دراسات في تاريخ

الأندلس وحضارتها

الجزء الأول

من الفتح حتى الخلافة

تأليف

الدكتور أحمد بدر


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



المقدمة

نشطت حركة التأليف في تاريخ الأندلس على أسس علمية منذ القرن الماضي في اللغتين : الفرنسية والأسبانية . ولمع في هذا المجال اسما كل من راينهارت دوزي الهولندي وكوديرا الأسباني . واستمر هذا النشاط في القرن الحاضر ، متمثلاً بمؤلفات ليفي بروفنسال وفي مقدمتها كتابه العام عن تاريخ الأندلس حتى نهاية عصر الخلافة ، وبالابحاث الأسبانية حول مواضيع ودقائق متفرّقة من تاريخ الأندلس وحضارتها . أما الدراسات العربية في هذا المضمار وعلى تلك الأسس فهي قليلة جداً .

على أن كل هذه الدراسات والأبحاث لا زالت بعيدة عن تغطية كل تاريخ الأندلس بجميع فتراته ، أي من الفتح الى سقوط غرناطة ، وبجميع مجالاته من سياسية وحضارية ، على الرغم من أهميته لأنه يكوّن الجزء الأساسي من تاريخ الجناح الغربي لديار العرب والاسلام في العصور الوسطى . والى أهميته هذه بالنسبة لتاريخ العرب العام ، يمكن أن نضيف قيمته بالنسبة للتاريخ الانساني الحديث ، نظراً لكون الأندلس طريق الحضارة العربية الرئيسي ، بكل ما احتوت عليه من ابداع وما ضمته في ثناياها من تراث كلاسيكي ، الى أوربا . كما أن حضارة الأندلس أسهمت في تكوين الشخصية الحضارية لأبناء الثقافة الأسبانية في أوروبا والعالم الجديد .

لهذا كله ، يبـدو من الضروري اغناء المكتبة العربيـة بتاريخ للأندلس ، يعتمد على كل المصادر الأصلية ، من عربية بقسميها : المخطوط والمنشـور ، وقشتالية ، بالاضـافة الى الدراسـات والمؤلفات الحديثة من اسبانية وفرنسية وما هو علمي من العربية • ولا تقتصر أبعاده على تاريخها منذ الفتح حتى سقوط غرناطة فحسب ، بل تتعدى هـذا النطاق لبحث أثر الحضارة العربية على أوربا من خلال الاندلس ، ولتقصّي أثر هذه الحضارة في تكوين الشخصية الحضارية الأسبانية حتى العصر الحاضر •

ضمن هذا النطاق واستناداً على تلك الأسس أقدم للقارىء العربي الجزء الأول من هـذا التاريخ يشتمل على تاريـخ الأندلس منذ الفتح حتى الخلافة ، وأعد للطبع جزءاً ثانياً يغطي الخلافة والطوائف •

وقد انطلقت في عرض أحداث هـذا التاريخ من المفهوم القائل بأن مهمة التاريخ عرض أحداث البشر الماضية في جميع المجالات • ولذا لم أعرض الاحداث مقسمة على أساس الأمراء والحكام ، بل على فترات تتمايز عن بعضها بالقوى الاجتماعية التي كانت تلعب الدور الهام على مسرح أحداثها • وضمنت بحث كل فترة الحياة الفكرية للأندلس فيها اضافة للأحداث السياسية ، اعتقاداً مني بأنها أفضـل طريقة لتفسير ظهور التطورات الفكرية في الوقت الذي ظهرت فيه والشكل الذي أخذتـه •

أحمـد بدر
دمشق شباط ١٩٦٩

الفصل الأول

عصر الفتح

الأندلس : اسمها وجغرافيتها

عرفت شبه الجزيرة التي أطلق عليها العرب اسم الأندلس بأسماء مختلفة عبر العصور ، أقدم اسم معروف لها هو أوفيوسا ophiousa « بمعنى بلاد الحيّات » ، وبعده كانت الأقوام التي تسكن جزءاً منها تطلق عليه اسماً لا تلبث أن تعممه فيصبح علماً لشبه الجزيرة كلها . فاليونان بعد أن عرفوها وسكنوا على الشواطىء الجنوبية والشرقية منها سموها Iberia أي بلاد الايبيريين ، أما الرومان فقد أعطوها اسم هيسبانيا الذي احتفظت به كاسم حالي حتى اليوم مع تحوير بسيط بقلب الهاء فيه . ويظن أن الرومان أخذوا هذه التسمية من الفينيقيين الذين عرفوها وأقاموا مستعمرات لهم على شواطئها الجنوبية ثم سيطروا عليها سياسياً أيام توسع قرطاجة ، وعرفت عندهم بالاسم الفينيقي ايشبيانيم I - schephan - im أي ساحل الأرانب[1] .

أما اسم الاندلس الذي أطلقه العرب عليها والذي لا يزال علماً للمنطقة الجنوبية من اسبانيا الحالية التي تضم كلاً من غرناطة وقرطبة وجيّان واشبيلية ، فالشائع ان العرب أطلقوه نسبة الى الواندال الجرمانيين الذين احتلوا المنطقة الجنوبية من اسبانيا وأقاموا فيها ما بين ٤١١ ـ ٤٢٩ م ،

1 — Aguado, Historia de España, T.I. p. 52.

وذلك قبل أن يعبروا المضيق الى شمال افريقيا • ولكن فكرة جعل العرب هم الذين أطلقوه غير مقنعة لسببين : أولهما لفظي ، اذ تخالف تقاليد العرب المتبعة في تحوير الالفاظ الاجنبية لنطقها بلغتهم ، وثانيهما تاريخي ، اذ أن العرب عندما دخلوا اسبانيا كان فيها القوط ولم يكن فيها واندال ، فلماذا لم يسموها بلاد القوط وسموها بلاد الواندال ؟ ولذا يرجّح على هذه الفكرة فكرة أخرى تقول بأن الاسم أطلقه سكان مراكش البربر على هذه البلاد لأن التحوير اللفظي بتحويل الـ (وا) الى الف يتوافق مع السنن اللفظية للبربرية ، كما أن هذه الفكرة مقنعة أكثر من السابقة من ناحية تاريخية ، ذلك أن الواندال أتوا الى شمال افريقيا من اسبانيا فمن المعقول جداً أن يعتبروها بلادهم[١] •

من الناحية الجغرافية تكوّن الاندلس وحدة جغرافية كاملة فهي شبه جزيرة تشكّل الزاوية الجنوبية الغربية من أوربا • وأرضها عبارة عن هضبة تنحدر بالتدريج من الشرق الى الغرب وتخترقها سلاسل جبلية عالية تتجه من الشرق الى الغرب • ترتفع من هذه الهضبة جبال عالية تكوّن الشمالية منها حاجزاً جبلياً يمتد على طول المنطقة الشمالية ، ويسمى القسم الفاصل بين اسبانيا وغالية منها جبال البيرينة التي يسميها العرب جبال البُرْت ، أما الجزء المجاور لخليج بسكاى فيسمى بجبال الكانتابريك ، ويلي هذه الجبال هضبة جافة ترتفع بعدها السلاسل الجبلية المسماة سيرا مورينا sierra Morenà ويسميها العرب جبال قرطبة[٢] • أما السلاسل الجنوبية المتاخمة للبحر الابيض المتوسط فتسمى Sierra Nevada ويسميها العرب جبل الثلج[٣] أو شلير وبين هذه السلاسل الجبلية ، توجد انهدامات في

1 — Werner Weichl, Al - Andalus, Vol XVII, 1952, pp. 449 - 450.

2 — La Description de L'Espagne d'Ahmad Al-Razy, Al-Andalus, Vol XVII, Fasc 1, 1953. p. 100.

3 — La Peninsule Ibérique au Moyen - Age, p. 250. انظر نص البكري في :

وسط الهضبة تسير فيها أنهار ، لعل أهمها انهدامان على شكل مثلث أحدهما في الجنوب الغربي حيث يسير نهر الوادي الكبير Guadalquivir وثانيهما في الشمال الشرقي حيث يسير نهر ابره Ebro .

اسبانيا في ظل القوط

تكوّن سكان اسبانيا في العصور القديمة من عنصري الكلت والايبيريين ، ثم تعرضّت لتأثيرات آسيوية وأوربية على السواء من خلال المستعمرات التي أقامتها على سواحلها الدول البحرية المتوسعة في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، فقد كوّن الاغريق مثل هذه المستعمرات منذ القرن الخامس ق.م ، وقام فينيقيون من صور بنفس العملية ، ثم ورثت عنهم مركزهم قرطاجة ، وأخيراً أسفر الصراع بين القرطاجيين والرومان عن سيطرة الرومان على شبه الجزيرة في عام ٢٠٥ ق.م. وتطاول أمد تلك السيطرة الى ما يقرب من سبعة قرون كانت كافية لصبغها بالصبغة الرومانية من الناحيتين : الاجتماعية واللغوية ، وساهم اعتناق كل من سكان البلاد والرومان للديانة المسيحية مساهمة كبرى في اتمام عملية الانصهار . وعندما ضعفت الامبراطورية الرومانية اجتاحت أراضيها موجات من البرابرة الجرمن ، ومنهم دخلت اسبانيا أقوام الألان والسويف والواندال واقتسمت أراضيها . وبعد ذلك ظهرت قوة جرمانية جديدة هي قوة القوط الغربيين أو الويزيقوط ، الذين ظلوا طيلة ما يقرب من قرن يعيثون فساداً في أنحاء الامبراطورية الرومانية ، قبل أن يحطّوا عصا الترحال في جنوب غاليا ومنها انحدروا الى اسبانيا ، حيث بسطوا عليها سلطتهم تدريجياً ، وكانوا يعتبرون رسمياً أتباعاً للامبراطور الروماني ، لكنهم بعد سقوط الامبراطورية عام ٤٧٦ م ، أصبحوا مستقلين فاتخذ زعيمهم اسم ملك وأصبحت طليطلة عاصمة لهم . لكن تكوين هذه الدولة ضم في تركيبه بذور الاضطراب والفوضى . اذ لم يكن مجتمعها متجانساً عرقياً لاختلاف الغزاة عن السكان من ناحية الجنس ، وكذلك انعدم في هذا المجتمع التجانس الديني ، فبينما

كان السكان من الكاثوليك ، اعتنق القوط المسيحية عـلى المذهب الآرياني الذي لا يعتقد بألوهية السيد المسيح ولا يجعل للعذراء مكاناً في العقيدة ، ولا يعترف للقساوسة بحق الوساطة بين الله والناس • ومن الطبيعي أن يؤدي هذا الأمر الى قيام رجال الدين الاسبان بمعارضة هذا الحكم وتحريض الناس على تقويضه •

ولم يكن وضع نظام الحكم أكثر ملائمة لاشاعة الاستقرار ، فقد كان العرش للأقـوى وهـذا ما أفســح المجال لحدوث اضطرابات في ســبيل الوصول اليه •

— **محاولات الاصلاح** • ـ جرت أثناء القرن السابع اصلاحات متعددة غايتها اجتثاث جذور الاضطراب وعدم الاستقرار • فلتحقيق الوحدة الدينية اعتنق القوط الكاثوليكية مذهب السكان وجعلوه المذهب الرسمي للدولة ، وذلك في أوائل القرن السابع الميلادي • وسارت عملية الامتزاج شوطاً أبعد في النصف الثاني من نفس القرن بفضل دمج القانونين الروماني والقوطي في قانون واحد يخضع لــه الجميع ، وبموجبه أصبح التزاوج بين القوط والسكان شرعياً • كما حاول هذا القانون أن يقضي على أسباب النزاع حول العرش باقراره مبــدأ النظام الانتخابي للملكيــة الذي يجعل العرش حقاً لمن ينتخبه النبلاء •

اوضاع اسبانيا قبيل الفتح العربي الاسلامي

لم تستطع هذه الاعمال كلها استئصال شأفة المساوىء القديمة ، كما انه نتج عنها مساوىء جديدة ، بدت بأجلى مظاهرها خلال الاعوام الثلاثين التي سبقت الفتح الاسلامي •

فعلى النطاق الاجتماعي ، سوّى القانون بين أجناس الناس في الدولة،

كي يزيل الانقسام ، لكن الانقسام الذي كان جنسياً انقلب الآن الى انقسام طبقي ، اذ استغلت طبقة الاغنياء من الرومان الايبيرين القدماء التسوية بين الاجناس فتقاربت وامتزجت مع القوط الذين يؤلفون الطبقة الحاكمة الارستقراطية في سبيل الحفاظ على مصالحها • أما أغلبية السكان ، وكانت من المزارعين ، فلم تنل فائدة تذكر من الامتزاج بل استمرت تعيش حياتها السابقة ، التي زادت بؤساً في العهد القوطي • ومردّ ذلك الى أن الارض في العصر الروماني كان أكثرها ملكاً للدولة والقليل منها للاغنياء الذين كانوا يقيمون في المدن ، وقد نتج عن استمرار الفلاح في استغلال نفس القطعة من الارض ان أصبح شبه مالك لها ، لأن ما يدفعه من أجرة لصاحبها أو للدولة كان أشبه ما يكون بالضريبة ، لكن القوط الذين أصبحوا ملاّك قسم كبير من الاراضي باستخلاصها من بعض الملاك القدماء أو بتقسيم أملاك الدولة فيما بينهم استقروا في أراضيهم وأجبروا الفلاحين على زراعتها كأقنان وكعبيد لا كأحرار كما كان الحال في العصر الروماني •

أما على النطاق الديني فلم يؤد اعتناق القوط للكاثوليكية للقضاء على الاضطهاد الديني وانما الى تحويل اتجاهه ، فبعد أن كان موجهاً من القوط الاريانيين للكاثوليك أصبح موجهاً من الكاثوليك ضد اليهود • ولتوضيح ذلك تجب الاشارة الى أن جعل الكاثوليكية المذهب الرسمي للدولة رفع مكانة القساوسة الكاثوليك ، ولم تعد مجامعهم التي كانت تعقد في طليطلة من حين لآخر ، مجامع دينية بل أصبحت سياسية أيضاً وتقدم المشورة للملوك، وبوحي من هؤلاء القساوسة الذين أصبحوا يوجهون سياسة الدولة سن ملوك القوط قوانين قاسية ضد اليهود ، فقد أعلن مجمع طليطلة عن اكتشاف مؤامرة حاكها اليهود الاسبان مع بني جلدتهم في شمال افريقيا ،غايتها ادخال العرب الى اسبانيا ومن البديهي ان التهمة باطلة ، لأن العرب في شمال افريقيا كانوا يمرون خلال فترة ظهور القانون بظروف حرجة نتيجة لنشاط الكاهنة • ومهما يكن من أمر فقد استغلت هذه التهمة كمبرر لفرض

عقوبات على اليهود بغية تنصيرهم والقضاء على اليهودية • فرض عليهم أن يختاروا أحد أمرين : فاما أن يتنصّروا أو يصبح من لا يتنصّر عبداً تصادر أملاكه كما ينزع منه أولاده بعد بلوغهم السابعة ، ولم يلبث هذا الشرط الاخير أن طبق حتى على اليهود المتنصّرين بحجة انهم يحتفظون بديانتهم في باطنهم ويعلّمونها لابنائهم في السر ويختنونهم • وقد وقّرت هـذه الاضطهادات للعرب ـ كما سنرى بعد قليل ـ أقلية داخل شبه الجزيرة تمدّهم بالعون لتقويض سلطان مضطهديهم •

أما على النطاق السياسي ، فلم يستطع النظام الذي أقرّ مبدأ قيام الملكية على أساس الانتخاب أن يمنع المنازعات على العرش لأن العاطفة الابوية جعلت الملوك يحاولون نقل العرش لابنائهم وتهرّبوا من الحصول على موافقة النبلاء الناخبين ، وهذا ما جرّ البلاد الى حرب أهلية دخل العرب البلاد على أثرها •

بدأت الأزمة التي أدت الى هذه الحرب الاهلية في عهد الملك ايخيكا مضطهد اليهود ، فقد عيّن من بعده ابنه ويتيثا Witiza ، الذي يسميه العرب غيطشة ، ولياً لعهده وأشركه معه في الحكم دون الالتفات الى قانون الانتخاب • وعندما توفي استمر ابنه في الحكم ، وأدت سلسلة متوالية من الاعمال التي قام بها الى ظهور معارضة شديدة له •

لم يحاول الحصول على موافقة النبلاء بارتقائه العرش ، كما انه حذا حذو أبيه في خرق قانون الانتخاب وسعى لتأمين العرش لابنه Aquila فسماه ولياً للعهد دون أخذ موافقة أحد ، وأخيراً خفّف العقوبات المفروضة على اليهود • وبهذه الأعمال أثار معارضة النبلاء الطامحين للاشتراك في الحكم ورجال الكنيسة الناقمين على اليهود • ولم يكد يلفظ أنفاسه الاخيرة في سنة ٧٠٨ أو أوائل ٧٠٩ م حتى عصفت بالبلاد ريح الفوضى أو الانقسام ، فامتنع كثير من النبلاء الموجودين في طليطلة ، عن الخضوع لصبي صغير مثل

وقله ، أما النبلاء من الاطراف فقد استقلّوا بمقاطعاتهم • وبعد مضي مايقرب من سنة اجتمع نفر من النبلاء واعتبروا أنفسهم كمجمع له حق انتخاب الملك وانتخبوا دوق قرطبة دودريغو Radrigo ، الذي يسميه العرب لذريق ملكاً • لكن البلاد لم تخضع كلها للذريق ، وامتنعت المناطق الشمالية من اسبانيا كجليقية واشتوريش حيث هرب الملك السابق وأقاربه ، عن الخضوع له وناصبته العداء[1] •

نشط لذريق لتحطيم خصومه وأفلح في هزيمة جيش لهم أرسلوه ضده عام ٧٠٩ ، فبدأ اليأس يدب في صفوفهم ، وهرب كبارهم من اسبانيا الى شمال افريقيا حسب قول احدى الروايات أو صالحوا لذريق وتسلّموا مراكز هامة في جيشه حسب رواية أخرى[2] ، وفي نيتهم انتظار فرصة سانحة للاطاحة به • وسنرى أن هذا الحزب المناهض للذريق سيلجأ للتحالف مع قوة العرب الخارجية لتحطيم لذريق بعد أن عجز عن تحقيق ذلك بقواه الخاصة •

عدا عن الظروف الاجتماعية والسياسية التي جعلت قسماً كبيراً من السكان ، لا يرى فقط عدم وجود مصلحة له في مقاومة العرب بل ساقته هذه المصلحة لمساعدتهم • أصابت البلاد في السنوات الثلاث التي سبقت الفتح مجاعة ساهمت بنتائجها في زيادة ضعفها ، فأصابها وباء أودى بحياة الكثيرين من سكانها وبالغت الرواية في نسبتهم فجعلتهم نصف السكان

---

١ ـ Manuel Torres España Visigoda, H. E, T. III, pp. 76 - 250.

٢ ـ انظر ابن القوطية تاريخ افتتاح الاندلس ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، بيروت ١٩٥٧ • ص ٢٩ وسنشير اليه باسمه افتتاح الاندلس ، وأنظر كذلك :

Estudio Sobre La Invasion De Los Arabes En Espana, Por Eduardo Saavedra, Madrid 1892. pp. 40 - 43.

وسنشير اليه فيما بعد باسم المؤلف Saavedra .

أو أكثر[1] . كما أن لذريق الذي قلّت موارده في وقت كان أحوج مايكون فيه الى المال لتوجيه حملات ضد أعدائه ، اضطر لمد يده الى كنوز الكنائس الشهيرة ، وهذا أثار عليه حفيظة الكثيرين وخاصة من رجال الدين ، ونجد صدى لعمله الأخير وأثره في الفتح العربي في الاسطورة التي ترددها الرواية العربية ومؤداها « ان لذريق فتح البيت والتابوت التي كانت النصرانية تعظّمه بعد أن نهته عن ذلك فوجد فيه صور العرب متنكّبة قسيها وعمائمها على رؤوسها ومن أسفل العيدان مكتوب ، اذا فتح هذا البيت وأخرجت هذه الصور دخل الاندلس قوم في صورهم فغلبوا عليها »[2] .

---

١ ـ أنظر : أخبار مجموعة في فتح الاندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم ، ص ٨ ، لمؤلف مجهول ، تحقيق Emilio Lafuente Alcantara ، المكتبة العربية ، مدريد ١٨٦٧ ؛ وسنشير اليه فيما بعد : الاخبار المجموعة .

٢ ـ أنظر هذه الاسطورة في الروض المعطار ، ص (٧) .

فتح الأندلس

مقدمات الفتح

بعد جهود استمرت ما يقرب من سبعين عاماً ، استطاع العرب بقيادة موسى بن نصير عام ٩٠ هـ ، أن يتموا فتح شمال افريقيا كله عدا سبته • وكان هذا الفتح فريداً في نوعه بين جميع الفتوحات العربية ، اذ لم يدانيه أي فتح عربي آخر ، سواء في طول المدة التي استغرقها أوفى النكسات التي أصابت العرب خلاله أو في كثرة الدماء التي كلفها • ويمكن تعليل بقاء سبته صامدة وحدها في وجه العرب بوضع المدينة الطبيعي ، فهي محاطة بالجبال من ناحية مراكش ومفتوحة على البحر تجاه شبه الجزيرة الايبيرية وهذا يحتم ضرورة الاستعانة بالاسطول من أجل فتحها ولم يكن الجيش الفاتح يملك شيئاً منه •

اتسمت الفتوحات العربية الاسلامية بصفة الموجات المتعاقبة ، فما أن تصل موجة منها الى مداها حتى تتولد من نهايتها موجة جديدة • وهكذا كان من المنتظر الا يتوقف الفتح في المغرب بعد وصول العرب الى شاطىء المحيط الاطلسي • بل كان من المتوقع تبعاً لسمة هذه الفتوحات أن يتابع الفتح سيره اما باتجاه الجنوب أو باتجاه الشمال • لكن التوسع في الجنوب كان بعيد

الاحتمال ، لأنه لا يحتوي الا على أقاليم حارة يصعب على الفاتحين العيش في مناخها أو على صحاري فيها كل ما يزهّد في فتحها فلا كثرة من البشر يمكن أن يهدوها سواء السبيل ولا ثروات تكوّن غنائم مغرية • أما الشمال أي ما يلي مضيق جبل طارق في شبه الجزيرة الايبيرية فكان يحوي كل المغريات • لكن مصاعب جمّة كانت تقف في وجه تحقيق فتحه أنياً ، ولا بد من الانتظار أمداً لتذليلها ، كتأمين الاسطول الضروري لفتح سبته أولاً ومن ثم حمل الجند عبر المضيق الى البر الاسباني •

جـاء تدخل حاكم سبته الى جانب العرب فوفّر عليهم فترة الانتظار لأنه أمّن لهم العبور من سبته ووضع تحت تصرّفهم سفناً تنقلهم الى البر الاسباني ، ووصلهم بحلفاء أيضاً في الداخل وبأدلاء لطرق الفتح • وقـد اطلقت الروايات المسيحية على هذا الحاكم اسماً اختلفت أشكاله بين خوليان ويوليان ، كما ورد اسمه في المصادر العربية مختلف الاشـكال على أن أشهرها اُلْيان الوارد عند ابن الفرضي[1] • ومع هذا الاختلاف في الاسم هناك اختلاف أعظم حول الاصل فالبعض جعله بربرياً والبعض الآخر اعتبره قوطياً وآخرون مثـل سافيدرا ابتعدوا أكثر من ذلك فنسبوه الى أصـل فارسي • لكن الأرجح انه كان حاكماً بيزنطياً لسبته ، لآن هذه المدينـة كانت تشكل جزءاً هاماً من ولاية طنجة البيزنطية ولم يرد في روايـة ما انتقال هذه المدينة الى سلطة أحد غير أسيادها القدماء • ويرجح أيضاً ، انه بالنظر لوضع بلده الجغرافي وللأوضاع العامة للسلطة البيزنطية التي ضعفت في الشمال الافريقي لجأ لاقامة علاقات اقتصادية وعلاقات حسن جوار مع القوط حكام اسبانيا ومتّن صلاته بالاسرة الحاكمة ، وبقي صديقاً وفياً لها بعد أن أطاح بها لذريق • واستغل أبناء غيطشة ، بعد هزيمتهم في اسبانيا ، مدينة سبته

---

١ ـ انظر : عبد الله محمد بن يوسف الأزدي (أبو الوليد) المعروف بابن الفرضي ، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس ، في جزئين ، عني بنشره ، عزت العطار الحسيني ، القاهرة ١٩٥٤ ، ج١ ، ت ١٩٠ • وانظر أسـماء المختلفة في الروايـات المسيحيـة والاسلامية في : Saavedra, p. 48

حينذاك لم يبق شك لدى موسى بن نصير بضعف المقاومة القوطيـة وامكانية النجاح في الفتح ، فعهد الى مولاه طارق بمهمة القيام بهذه العملية. ويرى المستشرق پروڤنسال انـه تم وضع الترتيبات بين يوليان ووقلة أو ممثلين عنه من جهة وطارق بن زياد من جهة أخرى ، لعملية الفتح والدور الذي يجب على كل طرف القيام به • فطارق بن زياد يقوم بالهجوم عـلى اسبانيا مـن الجنوب في الوقت الذي يقوم فيـه وقلة وأنصـاره باشعال نار الحرب في الشمال • أما يوليان فكان عليه مرافقة الحملة والعمل كمستشار لها كما أن على سفنه الاربعة أن تنقل قوات طارق بن زياد ، وأخيراً عليه أن يبدأ ببناء سفن جديدة لنقل الامدادات في المستقبل • وافتراض حدوث اتفاق كهذا هو الشيء الوحيد الذي يفسر النجاح الذي أحرزه طارق بتلك السرعة وبذلك العدد القليل من الجند[1] •

معركة وادي لكه

عبر طارق المضـيق في رجب أو شعبان من سـنة ٩٢ هـ / نيسان أو مايس من عام ٧١١ م ونزل في سفح جبل كالبي Calpe ، الذي أخذ منه فيما بعد اسـمه فصار يدعى جبل طارق Gibraltar ، حيث انتظر هنـاك ريثما تم انتقال بقية الآلاف السبعة عـلى تلك السفن الاربعة • ولو أمعنا النظر في هذا الرقم الذي يعطيه المؤرخون المسلمون آخذين بعين الاعتبار أوضاع العرب البحرية في تلك الفترة وقلة السفن الموضوعة تحت تصرّفهم، لبدا لنا معقولاً الى حد كبير ، ولا يمكن أن يكون مبالغة من هؤلاء في تقليل عدد أفراد الجيش لتعظيم قيمة الانتصار الذي أحرزوه •

→

١٩٣٧ • ص ـ ١٢٧ • وسنشير اليه فيما بعد بالجزء الشهير منه باسمه (الروض المعطار). وهناك ترجمة له مع تحقيق للاعلام الجغرافية وما يقابلها حالياً • مـع نصوص للرازي عن جغرافية شبه الجزيرة الايبيرية لنفس المحقق بعنوان :

La Péninsule Ibérique Au Moyen - Age, Leiden 1938.

ستنشير اليها فيما بعد بالاسم الفرنسي •

١ ـ E. Levi Provençal, Histoire De L'Espagne Musulmane, T. I, P. 18.

كملجأ مناسب لهم وذلك لقربها من بلادهم من ناحية واستقلالها من ناحية أخرى .

ومن ملاحظة هذه الاوضاع والظروف يمكننا أن نستشف الدوافع والاسباب التي جعلت يوليان يتفق مع العرب . لكن الروايات العربية تقدّم لنا لتبرير هذا الاتفاق قصة ذات طابع اسطوري مؤداها أن ابنة الكونت يوليان الجميلة كانت وصيفة في قصر الملك القوطي ، فلما ارتقى لذريق العرش وأقام في القصر راقت له فاعتدى على عفافها ، وأحيط الوالد علماً بذلك فقدم الى القصر وعاد بابنته الى سبته بعد أن أقسم على الانتقام . وقد انتقلت هذه الروايات العربيـة الى المرويات اللاتينية ومنهـا أخذها شعراء الرومانس الاسبان ووجدوا فيهـا مجالا رحباً يسرح فيـه خيالهم ، فحمّلوا الفتاة المسكينة وزر احتلال العرب لاسبانيا وشبهوها بالتفاحة المحرّمة[١] .

المفاوضات بشأن الفتح

من المرجح انه بعد هزيمة حزب وقلّة Aquila ، وميله للاستعانة بقوة العرب لتحطيم لذريق ، قام يوليان بالاتصال مع طارق بن زياد مولى موسى بن نصير أمير المغرب وواليه على طنجة ، فوجّهه هذا الى سيده في القيروان . وعندما اجتمع به شجعه على فتح اسبانيا . لكن موسى بن نصير استشار الخليفة الوليد قبل الاقدام على أي عمل ، فوافق الخليفة على القيام بالفتح ، انما بعد عملية استطلاعية يقوم بها العرب أنفسهم . ومن أجـل تلك الغاية نزل طريف بن مالك أو بن ملّوك في عام ٩٠ هـ / ٧٠٩ م على رأس ما يقرب من ٤٠٠ من المسلمين معهم مائة فرس في جزيرة قريبة من الميناء المعروف الآن باسم طريف Tarifa ، ومن هناك شن الغارة الاسلامية الاولى على أرض شبه الجزيرة الايبيرية وكانت موفقة غنم على أثرها كثيراً وسبى كثيراً[٢] .

١ ـ R. Menendez Pidal, Flor Nueva de Romances viejos, Buenos Aires, 1963, pp. 39 - 51.

٢ ـ انظر : محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري (أبو عبد الله) صفة جزيرة الاندلس . منتخبة من كتـاب الروض المعطار في خبر الاقطـار . تحقيق ليفي بروفنصال ، القاهرة

انصرف طارق بعد ذلك لتوطيد قاعدة له في جنوب شبه الجزيرة فاحتل Carteya (وهي خرائب اليوم يسمى موقعها برج قرطجنة) ، وبعدها احتل مدينة أخرى قرب جزيرة صغيرة سماها العرب الجزيرة الخضراء (Algeciras اليوم) • وبذلك أمّن قاعدة أرضية محيطة بخليج بحري يمكن الاستناد عليها في تأمين وصول الامدادات أثناء الحرب وتأمين العودة في حالة الانسحاب •

علم لذريق بنزول العرب عندما كان يحارب في منطقة بامبلونا في الشمال عصابات تابعة لحزب وقلة (Aquila) فتخلى عن عملياته الحربية وحث الخطى متجهاً نحو الجنوب ، وفي قرطبة جمع جيشاً جديداً بلغ عدد أفراده ١٠٠،٠٠٠ على حد قول بعض المؤرخين المسلمين ، وهو رقم مبالغ فيه دون شك ويبدو الرقم الذي يذكره ابن خلدون ، وهو ٤٠،٠٠٠ جندي أقرب الى التصديق •

عرف طارق بتحرك لذريق فأرسل الى أفريقيا يطلب امدادات ،ودون أدنى تأخير وصله ٥٠٠٠ من الجند ، كما انضم اليه أنصار وقلة من الاسبان، وعندها شعر بأنه على درجة من القوة يستطيع معها مواجهة العدو في معركة• لكنه لم يبتعد في السير لملاقاته واكتفى بالتقدم من قاعدته نحو بحيرة خاندا القريبة ، وهي عبارة عن بحيرة تمتد عدة كيلو مترات بموازاة البحر وتصب مياهها فيه بواسطة نهر صغير يدعى Barbate ، سماه العرب وادي لكه (أي وادي البحيرة) وقد حمى أحد جناحيه بالبحيرة المذكورة وحمى الجناح الثاني بمرتفعات ريتين ، وفي هذا المكان وقع الاصطدام بين الجيشين•

دامت المعركة أسبوعاً حسب قول احدى الروايات ، يبدأ في ٢٨ رمضان من عام ٩٢ هـ / ١٩ تموز عام ٧١١ م ؟ وكانت نتيجتها نصراً عظيماً للمسلمين • ومما ساعدهم في احرازه شدة مراس بربر غمارة الجبليين الذين كوّنوا نسبة كبيرة من جيش طارق ، واحتواء الجيش على عنصر

غريب لا عهد للقوط بالحرب معه أو بمعرفته وهو عنصر السودان ، وأخيراً انسحاب قسم من جيش لذريق وانضمامه للمسلمين ، وهو القسم الذي كان يقوده اثنان من حزب وقلة الذين تصالحوا مع لذريق وكانا يقودان الميمنة والميسرة في الجيش . ويظنان حسب احدى الروايات أن المسلمين يبغون الغنيمة فقط فاذا انتصروا على لذريق وعادوا بقي الامر لو قلة وحزبه ويضع ابن حيّان على لسان أحد زعمائهم قوله « قال بعضهم لبعض هذا ابن الخبيثة قد غلب على سلطاننا وليس من أهله وانما كان من سفالنا وهؤلاء قوم لا حاجة لهم بايطان بلدنا انما يريدون أن يملؤوا أيديهم من الغنائم ثم يخرجون عنا فانهزموا بنا بابن الخبيثة اذا لقينا القوم »[1] .

أما ابن القوطية فيذكر رواية أخرى في سبب الانسحاب ترجّح على الأولى لانسجامها على طبيعة العلاقات بين المسلمين وحزب وقلة القائمة على الاتفاق ، فيقول « فلما تقابلت الفئتان أجمع أبناء غيطشة على الغدر بلذريق، ووصلوا في ليلتهم تلك الى طارق يعلمونه أن لذريق كان كلباً من كلاب أبيهم ويسألونه الأمان وأن يخرجو االيه في الصباح على أن يمضي لهم ضياع أبيهم بالاندلس وكانت ثلاثة آلاف ضيعة وسميت بعد ذلك بصفايا الملوك »[2] .

أما نتائج هذه المعركة فكان أولها انفتاح أبواب شبه الجزيرة الايبيرية أمام المسلمين على مصاريعها بعد تحطّم قوة جيش القوط لفداحة الخسائر التي لحقت به إذ « قتل منهم خلق عظيم أقامت عظامهم بعد ذلك بدهر طويل ملبّسة بتلك الأرض » ، وكان لذريق بين المفقودين ،وتذهب أكثرالروايات الى انه لم يعثر على جثته ويقول بعضها انه غرق بدليل وجود فرسه بعده وقد ساخ في طين وحمأة وخف له قد ثبت في الطين .

---

١ ـ انظر : رواية ابن حيان في الاخبار المجموعة ، ص ٨ .

٢ ـ افتتاح الاندلس ، ص ٢٩ .

وتقول بعض الروايات ان هذا المكان الذي فقد فيه لذريق يسمى سواني أو سواقي ، وفي الترجمة البرتغالية لعام ١٣٤٤ م لنص للرازي أحد أوائل مؤرخي الاندلس يرد ذكر العثور على ضريح في مدينة Viseo الواقعة شمال البرتغال الحالية ، كتب عليه هنا يرقد الدون رودريغو آخر ملوك القوط الذي فقد في Sagoneira • وانتقلت فكرة هذا النص عبر كتب متعددة ، فاستند عليها في القرن الماضي saavedra ليأتي بنظرية جديدة ، مؤداها أن Sagoneira مكان مقتل لذريق يجب أن يكون في مكان قريب من موضع القبر • وبما أن موقع segoyuela de cornejos المجاور قريب لفظياً من اسم مكان مقتله الوارد في النص البرتغالي المترجم عن أصل عربي ، لذا قال بأنه مكان مقتله وهذا أدعى به للقول بأن هناك موقعة أخرى جرت مع لذريق في هذا المكان غير موقعة وادي لكه ، وان الذي اصطدم بلذريق هو موسى بن نصير لأنه كان فاتح هذه المناطق • وقد انبرى كثير من الباحثين لتبيان خطأ استنتاج سافيدرا ، كان آخرهم هيرنانديث خيمينيث الذي يرجح في مقال له أن sagoneira أ. saguyue الواردة في النص البرتغالي والنصوص الأخرى المأخوذة عنه عبارة عن تحريف لفظي للكلمة العربية سواقي أو سواني وذلك حسب قواعد التحريف اللفظي التي جرى عليها الاسبان والبرتغاليون أثناء نقل أسماء الاعلام العربية الى لغتهم[1] •

والنتيجة الثانية كانت تعاظم قوة المسلمين أكثر فأكثر لأن الناس من الجانب الآخر من المضيق أقبلوا نحو طارق من كل وجه وخرقوا البحر على ما قدروا عليه من مركب وقشر بعد أن عرفوا بالفتح عليه وعظمة المغانم التي حصل عليها » •

وكانت النتيجة الثالثة حصول المسلمين ضمن الغنائم على أعداد كبرى

---

١ ـ Felix Hernandez Gimenez, Al - Andalus, Vol XXIX, Fasc I, p 18 - 21

من الخيل ، كانت كافية حسب الرواية لركوبهم جميعاً « فلم تبق بينهم راجلاً[١] » وهذا سيكون سبباً لحركتهم السريعة التالية التي طووا فيها المراحل بين أقصى الجنوب وما وراء طليطلة في وقت قصير نسبياً ، وهو أمر لم يكن ممكناً إذا ظلّوا يعتمدون على الخيول المحدودة التي تمكنت الاعداد الصغيرة من السفن الموجودة في حوزتهم نقلها عبر المضيق .

مسير طارق الى طليطلة ، حرب المعاقل :

اقتضت ضرورة استغلال نصر وادي لكُه واستئصال شأفة القوى القوطية تحرك طارق نحو مدينة استجة (Ecija الحالية) الواقعة على نهر شنيل ، حيث تحصّنت فلول جيش لذريق المنهزمة وكانت المقاومة شديدة لدرجة « انه كثر القتل والجراح بالمسلمين ولم يلقوا بعد ذلك حرباً مثلها » . وبعد هذه المعركة وضح للقوط عجزهم عن مقاومة قوة طارق وبأنه يريد احتلال البلاد لا القيام بغارة كما فعل طريف ، ولذا تركوا السهول وتخلّوا عن مجابهته واعتصموا بالجبال والحصون والمعاقل . وأصبحت الحرب عندئذ حرب معاقل وأصبح التوسع في البلاد يحتاج الى زمن طويل لاضطرار الجيش للتوقف عند كل معقل . وردّ الفاتحون على ذلك بتجاوز هذه المعاقل والوصول الى العاصمة بالجيش الرئيسي . وذلك عندما وافى طارقاً على استجة حليفه يوليان الذي أشار عليه بأن يتوجه رأساً الى طليطلة العاصمة حتى لا يفسح المجال للقوط للنظر في أمرهم والاجتماع الى أولى رأيهم . وعرض عليه ادلاء من أصحابه مهرة . يرافقونه ويرافقون بعوثه . وكانت قرطبة القاعدة القوطية الاساسية التي تقف بينه وبين طليطلة فأرسل اليها المولى مغيث على رأس سبعمائة فارس استطاعوا

---

١ ــ انظر : أحمد بن محمد المقّري التلمساني ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٩٤٩ ، ج١ ص ٢٤٣ . وسنشير اليه فيما بعد باسم النفح فقط .

٢ ــ رواية الرازي في النفح ، ج١ ص ٢٤٤ .

احتلالها عنوة بعد حصارها ثلاثة أشهر[1] . أما طارق نفســه فقد حرف خط سيره الى طليطلة عنها ، فسار اليها عن طريق جيان . وفوجىء القوط باقترابه من المدينة بهذه السرعة المذهلة ، ودب اليأس في قلوب النبلاء وكبار رجال الكنيسة من الصمود أمامه بعد كل هذه الانتصارات فهربوا من المدينة، ولذا لم تبد عاصمة القوط أية مقاومة للمسلمين فدخلوها وهي شبه خالية ، فغنموا فيها من الثروات الضخمة المتراكمة في القصــور والكنائس ما بهر عقــول الناس فأطلقوا لخيالهــم العنان في ابتــداع الروايات والصـــور الخيالية عنها[2] .

ولم يمكث طارق بعد ذلك أمداً طويلاً في المدينة ، بل ســار متجهاً نحو الشمال الشرقي ووصل الى وادي الحجارة (Guadaljarra الحالية)، ثم عاد الى طليطلة كي يقضي فيها الشتاء وبعد ذلك تابع أعمال الفتح فدخل ولاية برغش (Burgos) الحالية واحتل مدينة امايه (.Amaya) .

حملة موسى بن نصير :

تعلّل أكثر الروايات العربية القديمة توجه موسى بن نصير ونزوله فيها بحسده لطارق مما منحه الله من شرف الفتح وبتجاوزه للحدود التي أمره بالوقوف عندها من الفتح . لكننا اذا حاولنا معرفة الاسباب على ضوء الظروف التي كانت تحيط بالفتح الاسلامي آنذاك ، لتبيّن لنا أن مجيء موسى الى الاندلس كانت تقتضيه طبيعة هذه الظروف ليس الا ، فمن المعلوم ان طارق اخترق الاندلس من أقصى الجنوب الى ما فوق الوسط اختراق السهم وبقيت جميع البلاد من الجانبين غير خاضعة له تتجمع فيها حاميات قوطية ، وهذا الامر يجعل خط الفتح الاسلامي عرضة للانقطاع ، ولذا تجب الثقة

---

١ ـ انظر تفاصيل فتح قرطبة في النفح ، ج ١ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٧ .

٢ ـ انظر هذه القصص في الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبــة ، ٧٦ ـ ٧٨ .

بالروايات القائلة بأن موسى أتى الى الاندلس باستدعاء طارق له ولمصلحة الفتح على قلتها ورفض الروايات الأخرى رغم كثرتها[١] •

نزل موسى في الاندلس قرب الجزيرة الخضراء مع ١٨٠٠٠ جلهم من العرب وفيهم أحد أصاغر الصحابة وعدد من التابعين وذلك في رمضان من سنة ٩٢ هـ[٢]/حزيران ٧١٢ م وكان ميدان عمله غرب الاندلس ، ونعلّل الروايات العربية القديمة سيره على هذا الخط وعمله في ذلك الميدان بنفس الدوافع الشخصية التي جعلته يسير الى الاندلس ، فقد أنف من السير على نفس الخط الذي سار عليه طارق ودّله العلوج على طريق أشرف • ويلاحظ هنا انه من الطبيعي الا يسير على نفس خط طارق إذ ماذا سيفعل في مدن أتم فتحها المسلمون قبلاً ، ومن المعقول أن يفتح منطقة تقع على جانب هذا الخط حيث يأتي التهديد له فيحمي بذلك أحد جناحيه • أما اختياره للمنطقة الواقعة غرب خط الفتح فيمكن تفسيره ، بأن قوى القوط فيها كانت أعظم بدليل المقاومة الشديدة التي واجهها المسلمون في مدن هذه المنطقة •

بعد نزول موسى توجه نحو شذونة (Medina Sidonia الحالية) فاحتلها ، ومنها سار الى قرمونة فاحتلها بالحيلة ، وبعد ذلك حاصر اشبيلية عدة أشهر سقطت بعدها بيده ، ومن ثم تابع سيره الى الشمال حيث حاصر ماردة • وبعد حصار طويل لها ومعارك فقد فيها المسلمون أعداداً منهم استسلمت المدينة يوم الفطر من سنة ٩٤ هـ[٣]/ ٣٠ حزيران ٧١٣ م •

---

١ ـ انظر كل هذه الروايات في : كتاب البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب • لابن عذاري المراكشي ، الجزء الثاني الذي يبحث في تاريخ الاندلس من الفتح الى القرن الرابع الهجري ، تحقيق ج.س. كولان و ا • ليفي بروفنصال طبعة بيروت المنقولة عن طبعة المحققين في ليدن ١٩٤٨ ، ص ١٣ • وسنشير للكتاب فيما بعد باسم المؤلف «ابن عذاري»•

٢ ـ هذه رواية ابن حيان التي يوردها المقّري في النفح ، ج١ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ • أما رواية الرازي في النفح ، ج٢ ص ٢٥٩ فتجعل النزول في رجب من نفس السنة وعدد الجيش عشرة آلاف •

٣ ـ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١٤ ـ ١٥ •

بعد ذلك توجه نحو الشمال وبنفس الوقت أمر طارقاً بموافاته فخرج من طليطلة والتقى بسيده في جهات طلبيرة ، وتصور لنا الروايات هذا اللقاء قاتماً جداً ، ثم تختلف فيما بينها بتبيان درجة القسوة التي عامل فيها موسى مولاه طارقاً ، فبعضها يذكر انه عاتبه فقط لكن بعضها الآخر ينص على انه جلده بالسياط ، دون أن تلقي بالاً الى التناقض بين عمل موسى هذا وابقائه على طارق كقائد لجيشه كما كان في السابق واشتراكه معه في اكمال الفتح جنباً الى جنباً في منطقة واحدة حينا ، واختصاص كل واحد بفتح منطقة خاصة حيناً آخر ..

بعد لقاء موسى بطارق ، سار الاثنان الى طليطلة ، حيث قضيا شتاء عام ٧١٣/٧١٤ م ، وقد سعى موسى ، رغم مشاغله الكثيرة خلال اقامته بطليطلة عاصمة القوط القديمة ، ابراز مظهر السلطة الاسلامية على شبه الجزيرة الايبيرية فضرب أول النقود الاسلامية في الاندلس ، وكانت نسخاً لشكل نقود البلاد القديمة سواء من ناحية النوعية أو من الكتابة عليها بأحرف لاتينية والاحتفاظ بالرسوم التي كانت عيها قبلاً ، والشيء الجديد فيها استبدال التعابير المسيحية بأخرى اسلامية ووضع التاريخ الهجري عليها[١] .

ومن عاصمة القوط السابقة أيضاً ، أرسل موسى الى دمشق كلاً من التابع علي بن رباح والمولى مغيث ليخبرا الوليد بما حصل له من الفتح وبضم الاندلس الى ديار الاسلام ، رغم انها لم تكن كلها قد أصبحت تحت سلطان المسلمين ، أو أنهم فتحوا غالبية أراضي جنوبها ووسطها ولم يسيطروا على شيء من الشمال . للسيطرة عليه ، سار كل من موسى وطارق معاً باتجاه الشمال الشرقي فاحتلا سرقسطه (Zaragoza الحالية) وسيطرا باحتلالها على وادي ابره (Ebro حالياً) الأوسط . ومن هناك سار موسى باتجاه الشمال فاحتل لاردة (Lerida الحالية) ومنها انعطف نحو البحر فاحتل طركّونة (Tarragona الحالية) . ولم يستطع التوسع على الساحل فيما

---

١ ـ J. Navascues; Numario Hispànico, T. VIII. Nums, pp. 5-66.

بعد لعودة المولى مغيث من دمشق وابلاغه أمر الخليفة بوجوب عودته مع طارق الى دمشق ليقدما للخليفة الحساب عن نتائج حملاتهما • وربما تخلّى عند ذاك عن أمر فتح الشرق الذي يسهل فتحه وركّز جهوده على فتح المنطقة الشمالية الغربية من شبه الجزيرة التي عرفها العرب باسم جيليقية ، وهي بلاد جبلية وعرة ، فاستأذن رسول الخليفة ريثما يدبر أمرها •

أمر طارقاً بالسير على طريق روماني قديم ، يحاذي وادي ابره في قسم منه وينعطف بعد ذلك الى غاليسيا ، فسار طارق في الطريق المرسوم حيث احتل امايه وبعدها احتل ليون واشتورقه (Astorga الحالية) •

أما هو فسار في طريق آخر روماني يحف بجبال الكانتابريك من الجنوب ويحاذي قسم منه وادي ابره ثم وادي دويره Doero فاحتل سُرْيه Soria ، وعوضاً عن أن يلتقي بعد ذلك بطارق اتجه نحو الشمال رأساً ليصل الى سواحل استوريش (Asturia الحالية) في منطقتي اويبيدو (Oviedo الحالية) وخيخون ، فهرب منه سكان المنطقة ليعتصموا بالشواهق الجبلية المجاورة المسماة (Picos de Euoropa) ، وهناك رواية لابن حيان تقول ان موسى بن نصير وصل أيضاً الى حصني يارو (ربما تصحيف عن أوريه وهي orense الحالية) ولك Lugo الحالية ، في أقصى الزاوية الشمالية الغربية من شبه الجزيرة الايبيرية[١] •

مصير فاتحي الاندلس وشركائهم :

وأخيراً رافق موسى مولاه طارقاً في العودة الى دمشق عن طريق شمال افريقيا ، وذلك بعد أن ترك ابنه عبد العزيز أميراً على الاندلس ومقر اقامته في اشبيلية ، كما جعل ابنه عبد الملك أميراً على المغرب وابنه الثالث عبد الله أميراً على أفريقية • ووصل الى المشرق وفي حاشيته أعداد هائلة من

---

١ ـ النفح ، ج١ ص ٢٥٨ •

الأسرى والسباياً مع كميات كبرى من الغنائم الثمينة • وحلّ بدمشق قبل موت الوليد بأربعين يوماً •

أما المعاملة القاسية التي لاقاها مع مولاه طارق فيجب ألا نعطي عند ذكر أسبابها أهميـة كبرى للرواية التي ترد النقمة عليـه ومعاقبته الى الحقد الشخصي لسليمان عليه ، لأنه لم يعمل بأمره فيبطىء في السير كي يصل الى دمشق بعد موت الوليد الذي كان مريضاً وذلك كي تصبح الغنائم من نصيب سليمان • ذلك ان اصرار الوليد على عودته الى دمشق من الاندلس حتى قبل أن يكمل الفتح ، يدل على انه كان عند الوليد ما يوجب موجدته عـلى موسى ، وربمـا كان يخشى استقلاله بالجناح الغربي من الدولة • ولعل في تعيين موسى لابنائه في امرة هذه المنطقة ما يجعل هذه الخشية في مكانها • كما أن الشكاوى على موسى وطارق من احتجان الاموال كانت متعددة من أولئك الذين عادوا من المغرب الى المشرق •

ومهما يكن من أمر فان موسى عومل بشدة من قبل سليمان بن عبد الملك فعذّب وأغرم الاموال التي تقدرها بعض الروايات بمائتي الف دينار• وتقول بعض الروايات أن يزيد بن المهلب حامي اليمانية في بلاط سليمان بن عبد الملك تحملها عنه وصفح عنه سليمان ، بينما تقول الروايات الأخرى ان موسى مولى لقبيلة لخم وان قبيلته قد حملت عنه ٩٠ الف دينار من اعطيانها ، ومات موسى وهو يستعطف ويستعطي أبناء قبيلته للوفاء بما أغرم به • أما موته فكان في حوالي ٩٧ هـ ـ ٧١٦ م في وادي القرى وقبل موته قتل ابنه عبد العزيز أمير الاندلس ، كما عزل ابناه الآخران •

أما طارق بن زياد فقد قضى أيامه الاخيرة في ظل الغموض والابهام ، وان كان أبناؤه الذين خلّفهم في الاندلس قـد احتفظوا فيها بأملاكهم ، وكانوا ينفون تبعية عائلتهم لبني نصير[١] •

---

١ ـ ابن عذاري : البيان المغرب ج٢ ، ص ٢٢ • المقرّي ، نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٩•

أما شركاؤهم القوط فقد استوصى بهم الخلفاء خيراً ، اذ أقرّ موسى ومن ثــم الوليد الاتفاق الذي عقده معهم طارق باعطائهم ضياع عائلتهم . فصار لكبيرهم المند Almondo الف ضيعة في غرب الاندلس وأقام لأجلها في اشبيلية وصار لأرطباس Ardabastoالف في موسطة الاندلس وسكن من أجلها قرطبة ، وصار لثالثهم وَقَلّةَ Aquila الف ضيعة في شــرق الاندلس وجهة الثغر فسكن لأجلها طليطلة . ويلاحظ أنالخلفاء بتوزيعهم على هذه المناطق قد جعلوا منهم شبه دوقات يشرفون على شؤون أهل الذمة من رعاياهم في السابق ، وكدليل على ذلك نرى أن وقلة الذي كان مقدّراً له أن يكون وريث والده غيطشة كان مقرّه في نفس العاصمة طليطلة[1] . أما يوليان فقد استقر في الاندلس واعتنق أبناؤه الاســلام فيما بعد وبرز عدد منهم في المجال الفكري :

---

١ ـ المقّري ، النفح ، ج٢ ص ٢٤٩ ؛

R. M. Pidal Historia de España, T. III, P. LIV.

الفصل الثاني

عصر الولاة

٩٧ ـ ١٣٨ هـ / ٧١٦ ـ ٧٥٦ م

شارك عبد العزيز بن موسى بن نصير والده وطارق بن زياد أعمال الفتح • ولما أصبح أميراً على الاندلس استمر في تصفية جيوب المقاومة ، وأهم الاعمال الحربية التي تنسبها له الروايات فتحه لكل من الجنوب الغربي والجنوب الشرقي للأندلس ، مع اختلافها في تحديد الزمن الذي تم فيه الفتح • فبعضها يجعل هذه الفتوحات أثناء وجود والده وبأمر منه وبعضها الآخر يجعله بعد ذهاب والده • وعلى كل حال فتح عبد العزيز في الجنوب الغربي عدداً من المدن أهمها يابُره (Evora الحالية) وشنترين (Santaren وقُلُمْرية (Coimbra الحالية) أما في الجنوب الشرقي فأعماله أشهر ، اذ حارب تدمير أمير المنطقة الذي أصبحت المنطقة تسمى باسمه وهزمه عند قرطاجنة الخلفاء وهي ميناء مدينة مرسية « ووضع المسلمون السيف في أصحابه يقتلونهم كيف شاؤوا ، حتى نجا تدمير في شرذمة من قلال أصحابه الى حصن أوريولة وبعد حصار المسلمين له في هذا الحصن وقع صلح بين الطرفين ، فأصبح تدمير وأهل مدائنه السبعة ذمة للمسلمين تعهد المسلمون لهم بالحفاظ على الانفس والاملاك والحرية الدينية مقابل الا « يأوي للمسلمين آبقاً ولا عدواً ولا يخيف لهم آمناً ولا يكتم خبر عدو علمه • وعليه وعلى أصحابه ديناراً كل سنة وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير وأربعة أقساط طلا وأربعة أقساط خل وقسطي عسل وقسطي زيت وعلى

العبد نصف ذلك » وقد كتب كتاب الصلح هذا في رجب من سنة ٩٤ هـ[١] / نيسان ٧١٣ ٠

وبعد أقل من سنتين له في امارة الاندلس اغتاله عدد من زعماء الجند بايعاز من الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك الذي خشي من محاولته للاستقلال بالاندلس انتقاماً لوالده ، لكن قاتليه اتهموه بأنه لبس تاجاً كملوك القوط ، وبأنه يريد اعادة البلاد الى النصرانية بتوجيه من زوجته أرملة لذريق التي دعاها أم عاصم والتي تظاهرت باعتناق الاسلام ٠ نقل رأس الامير القتيل الى الشام[٢] وبقيت الاندلس دون وال عدة أشهر ، اتفق بعدها الفاتحون على تقديم أيوب بن حبيب ابن أخت موسى بن نصير ، الذي نقل مركز الحكم من اشبيلية الى قرطبة ، وبولايته تنتهي فترة الفتح التي دامت خمس سنوات تقريباً ويبدأ في الاندلس عصر جديد هو عصر الولاة ٠

الـولاة

تبدأ هذه الفترة بتعيين أيوب بن حبيب اللخمي في عام ٩٧ هـ وتنتهي بدخول ، عبد الرحمن بن معاوية بن هشام المعروف بالداخل والمؤسس للامارة الاموية ، قرطبة في عام ١٣٨ هـ ٠ أي ان هذه الفترة دامت أربعين عاماً ، تولى فيها الحكم الولاة التالية أسماؤهم :

١ ـ أيوب بن حبيب اللخمي : بعد شهور من مقتل عبد العزيز بن موسى ابن نصير الى ذي الحجة من عام ٩٧ هـ / آب ٧١٦ م ٠

٢ ـ الحر بن عبد الرحمن الثقفي : من ذي الحجة عام ٩٧ الى رمضان من سنة ١٠٠ هـ / آب ٧١٦ ـ نيسان ٧١٩ م ٠

---

١ ـ الروض المعطار ، ص ٦٢ ـ ٦٣ و ١٥١ ـ ١٥٢ ٠

٢ ـ عن مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير وأسماء قتلته انظر ٠ أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي ، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الاندلس ، تحقيق J. Ribera و F. Codera ٠ ل ضمن المكتبة العربية ، مدريد ١٨٨٥ ، ت ٧٥٤ و ت ١٠٩٨ ٠ وسنشير فيما بعد اليه باسم المؤلف « الضبيّ » ٠

٣ ـ المصدر السابق ، ت ٥٦٢ ٠

٣ ـ السمح بن مالك الخولاني : من رمضان سنة ١٠٠ ـ ذي الحجة في سنة ١٠٢ هـ • نيسان ٧١٩ ـ كانون ثاني ٧٢١ م •

٤ ـ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (المرة الاولى) : من ذي الحجة ١٠٢ ـ صفر ١٠٣ / كانون الثاني ٧٢١ ـ آب ٧٢١ م •

٥ ـ عنبسة بن سحيم الكلبي : صفر ١٠٣ ـ شعبان ١٠٧ هـ / آب ٧٢١ ـ كانون الثاني ٧٢٦ م •

٦ ـ عذره بن عبد الله الفهري : شعبان ١٠٧ ـ شوال ١٠٧ / كانون الثاني ٧٢٦ ـ آذار ٧٢٦ م •

٧ ـ يحيى بن سلمة الكلبي : شوال ١٠٧ ـ ربيع الاول ١١٠ / آذار ٧٢٦ ـ سباط ٧٢٨ م •

٨ ـ حذيفة بن الاحوص القيسي : ربيع الاول ١١٠ ـ شعبان ١١٠/كانون الثاني ٧٢٨ ـ تشرين الثاني ٧٢٨ م •

٩ ـ عثمان بن أبي نِسْعَة الخثعمي : شعبان ١١٠ ـ محرم ١١١/تشرين الثاني ٧٢٨ ـ نيسان ٧٢٩ م •

١٠ ـ الهيثم بن عبيد الكلابي : محرم ١١١ ـ ذي القعدة ١١١ / نيسان ٧٢٩ ـ شباط ٧٣٠ م •

١١ ـ محمد بن عبد الله الاشجعي : ذي القعدة ١١١ ـ صفر ١١٢ / شباط ٧٣٠ ـ نيسان ٧٣٠ م •

١٢ ـ عبد الرحمن بن عبدالله الغافقي (المرةالثانية) : صفر ١١٢ ـ رمضان ١١٤ ـ نيسان ٧٣٠ ـ تشرين الاول ٧٣٢ م•

١٣ ـ عبد الملك بن قطن الفهري : رمضان ١١٤ ـ شوال ١١٦ / تشرين الاول ٧٣٢ ـ تشرين الثاني ٧٣٤ م •

١٤ ـ عقبة بن الحجاج السلولي شوال ١١٦ صفر ١٢٣ / تشرين الثاني ٧٣٤ ـ كانون الثاني ٧٤١ م •

١٥ ـ عبد الملك بن قطن الفهري (المرة الثانية) صفر ١٢٣ الى ذي القعدة (١٢٣) هـ كانون الثاني ٧٤١ ـ ايلول ٧٤١ م •

١٦ ـ بلج بن بشر القشيري : ذي القعدة ١٢٣ ـ شوال ١٢٤ / ايلول ٧٤١ ـ آب ٧٤٢ م •

١٧ ـ ثعلبة بن سلامة العاملي : أو الجذامي : شوال ١٢٤ ـ آخر رجب ١٢٥ / آب ٧٤٢ ـ مايس ٧٤٣ م •

١٨ ـ أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي : رجب ١٢٥ـرجب ١٢٧/مايس ٧٤٣ ـ نيسان ٧٤٥ م •

١٩ ـ ثوابة بن سلامة الجذامي : رجب ١٢٧ هـ ـ نيسان ٧٤٥ م أعقب موته عدة أشهر من الاضطراب ، تولى بعدها الحكم يوسف بن عبد الرحمن الفهري (بالاشتراك مع الصميل بن حاتم) ودامت ولايته من ربيع الثاني ١٢٩ ـ ذي الحجة ١٣٨ / كانون الاول ٧٤٦ / ١٤ مايس ٧٥٦ م وهو تاريخ امارة عبد الرحمن الداخل •

نظرة واحدة على هـذه القائمة الطويلة لعشرين من الحكام الذين تعاقبوا على الحكم خلال أربعين عاماً فقط ، تدل على أن العصر عصر اضطراب وعدم استقرار ، ويلمح المرء ظواهر أخرى لهذا الاضطراب وتلك الفوضى عنـدما يقرأ الروايات المتعلقة بتلك الفترة عنـد المؤرخين الذين أرخوا للاندلس ، اذ نجد فيها :

١ ـ عدم وجود قاعدة أو قانون لتعيين الولاة ، فرغم أن التقليد جرى على اعتبار اسبانيا تابعة لوالي افريقيا في القيروان يعين عليها من يختاره ، لكن هذه القاعدة كانت تخرق دائماً فمثلا نجد عمر بن عبد العزيز يعين السمح بن مالك الخولاني لولاية الاندلس من قبله مباشرة • وفي أحيان أخرى كانت القبائل البربرية والعربية على مقياس أوسع

تعين هي الوالي من قبلها دون اعتبار لرأي والي افريقيا أو موافقة الخليفة في دمشق كما جرى الحال عند تعيين أيوب بن حبيب اللخمي في أول العصر ، وبلج بن بشر ، وثعلبة بن سلامة العاملي ، وثوابه بن سلامة الجذامي ويوسف بن عبد الرحمن الفهري •

٢ ـ اذا استثنينا وجود وال للاندلس ، وقاض الى جانبه يسمى بقاضي الجند ، لا نجد أثرا لجهاز اداري أو مالي ، فليس هناك ذكر في الروايـات التي وصلتنا لحكام في مقاطعاتها المختلفة أو موظفين الى جانب الوالي في المركز أو أشخاص مسؤولين عن المال وجبايته ، كما اننا لا نعثر على اشارة البتة لارسال أموال من هذا البلد الغني سواء الى والي افريقيا أو خليفة دمشق •

هذه الظواهر تدفعنا للاعتقاد بأن الاندلس في هذه الفترة كانت بلداً يحتله جند منقسمون الى عرب وبربر وكل قسم منهم ينقسم بدوره الى قبائل تعيش كل منها في منطقة معينة وتخضع لرئيسها •

ولدراسة أحداث هذه الفترة ، نجد من المناسب تقسيمها الى فترات ثلاثة ، تركز الاهتمام في كل منها حول حدث كبير •

١ ـ الفترة الأولى : الغزوات الاسلامية في أراضي غاليا

(غاليش التسمية العربية)

٩٧ ـ ١١٤ هـ / ٧١٦ ـ ٧٣٠ م

سار الفتح الاسلامي على شكل موجات متلاحقة منذ انطلاقه من شبه الجزيرة العربية ، فقد رأينا أن عمرو بن العاص لم يكد يكمل فتح مصر حتى بدأ بتوجيه الحملات ضد شمال افريقيا ، ولم يكد الشمال الافريقي يصبح بأكمله في قبضة العرب ، حتى عبروا المضيق واكتسحوا شبه الجزيرة الايبيرية ، وهنا أيضاً ما كادوا يتمون فتحها حتى خرقوا ذلك الحاجز الجبلي الضخم المسمى بجبال البيرينة•ولذا يمكننا اعتبار هذه الفترة من عصر الولاة امتداداً وتكملة لعصر الفتوحات ومتصلة به ، ونرى انه من الافضل اعطاء هذه الفترة اسم فترة غزوات العرب في أراضي غاليا لا فتوحات نظراً لان المسلمين لم يستقروا هنا الا ّ في المنطقة الصغيرة المجاورة لشاطيء اسبانيا الشمالي الشرقي والمسماة بمنطقة سبتمانيا ، رغم انهم وصلوا في بعض غزواتهم الى اللوار وفي أخرى حتى نهر السين •

توغل العرب في أراضي غاليا خلال الغزوات المتعاقبة التي قاموا بها على محاور مختلفة ، وربما كان مرد ذلك الى تغييرهم للمحور الذي يجدون مقاومة فيه ، والمحاور الرئيسية كانت أربعة •

١ ـ المحور الأول : محور نهر الرون :

تم التوغل في هذه المنطقة في أواخر فترة الفتح الاسباني فابن حيان في رواية المقرّي يقول : « وقد دوخت بعوث طارق وسراياه بلد افرنجه » ، فملكت مدينتي برشلونة ونربونة Narbona وصخرة ابينيون (Avignon الحالية) وحصن لودون (ليون الحالية) على وادي رُدُونه (الرون)•••وقد

ارتاع لهم قارله (شارل مارتل) ملك الافرنجة بالارض الكبيرة وانزعج لانبساطهم فحشد لهم وخرج عليهم في جمع عظيم ، فلما انتهى الى حصن لودون وعلمت العرب بكثرة جموعه زالت عن وجهه ، وأقبل حتى انتهى الى صخرة ابينيون فلم يجد بها أحدا ، وقد عسكر المسلمون قدامه فيما بين الاجبل المجاورة لمدينة اربونة وهم بحال غرة لا عيون لهم ولا طلائع فما شعروا حتى أحاط بهم عدو الله قارله فاقتطعهم عن اللجوء الى مدينة اربونة وواضعهم الحرب ، فقاتلوا قتالا شديداً استشهد فيها جماعة منهم وحمل جمهورهم على صفوفه حتى اخترقوها ، ودخلوا المدينة ولاذوا بحصانتها ، فنازلهم بها أياما أصيب له فيها رجال وتعذر عليه المقام ،وخامره ذعر وخوف من مدد للمسلمين فزال عنهم راحلا الى بلده وقد نصب في وجوه المسلمين حصونا على وادي ردونه شكها بالرجال فصيرها ثغرا بين بلده والمسلمين وذلك بالارض الكبيرة خلف الاندلس[1] » ويرى بروفنسال أن المسلمين فقدوا نربونة في تلك الفترة وربما خلال الاضطراب الذي ساد الاندلس اثر مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير ، ويستند في ذلك على أنالروايات العربية تذكر أن الوالي الذي جاء بعد أيوب اللخمي الى الاندلس وهاجم غاليا استعاد نربونه[2] .

المحور الثاني : التوغل في وادي الغارون

بعد المقاومة والنكسات التي واجهها العرب على هـذا المحور تحولوا للغزو في اتجاه آخر ، وكان ذلك في أثناء ولاية السمح بن مالك الخولاني بين ١٠٠ ـ ١٠٢ هـ ، وقد قام هذا الوالي أولا باسترجاع قاعدة المسلمين في أرض غاليا ومنطلق أعمال التوسع ، ثم توغل في وادي الغارون حتى وصل الى تولوز (طلوشة عند العرب) وحاصرها . حينئذ هرع اودودوق اكيتانيا لانقاذ مدينته واستطاع فك الحصـار بعد معركة حاميـة الوطيس

١ ـ المقري : نفح الطيب ج١ ص ٢٥٦ .
٢ ـ E. Levi Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, T.I, P. 55.

خاضها مع المحاصرين في ذي الحجة ١٠٢ هـ / ٩ حزيران ٧٢١ م قتل فيها السمح بن مالك الخولاني وتفرق جيشه .

المحور الثالث

بعد أربع سنوات من استشهاد السمح قام الوالي عنبسة بن سحيم الكلبي ١٠٣ ـ ١٠٧ هـ / ٧٢٦ ـ ٧٣٠ م بحملة أخرى على أراضي غاليا ، توغل فيها في منطقة بورغونيا فاحتل قرقشونه Carcasona ونميز ثم صعد نحو الشمال فاحتل ماكون وشالون ، حتى أن بعض الروايات تبالغ فتجعل تيار هذه الحملة يصل قرب مدينة سانس الواقعة على بعد ثلاثين كيلو مترا فقط عن باريس.وهناك رواية تقول أن عنبسة لم يستطع ادراك الاندلس وانما توفي في الطريق ، اذ داهمته في طريق العودة جموع كبيرة من الفرنج التحمت معه في موقعة أصيب أثناءها بجراح بالغة توفي على أثرها في شعبان سنة ١٠٧ هـ كانون ثاني ٧٢٦ م .

المحور الرابع : التوغل في اكيتانيا وموقعة بواتية

بعد مضي عدة سنوات على حملات عنبسة عيّن عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي والياً على الاندلس . وعقب وصوله اليها بدأ يمهد للغزو في أراضي غاليا . حشد قواته في بامبلونا الواقعة جنوب البيرينة في صيف عام ١١٤ هـ / ٧٣٢ م وفي نفس هذا الفصل عبر البيرينة من ممرات رونسيسفال (ويسميها العرب باب شزروا) وتوجه رأساً نحو بوردو على الغارون قبل التقائه بنهر الدوردونيا ، وفي منطقة غير بعيدة عن مصبه هزم اودو دوق اكيتانيا ودخل مدينة بوردو بعد ذلك فنهبها جنوده ثم تابعوا تقدمهم نحو الشمال مثقلين بالغنائم

في هذه الاثناء استنجد دوق اكيتانيا بشارل مارتل ، الذي قدّر خطر الهجوم الاسلامي على دولته التي يجهد في توطيدها حق قدره . فبادر على جناح السرعة لجمع جيش سار على رأسه لمواجهة العرب المتقدمين . وقد

استطاع الوصول الى تور قبل أن يحتلها المسلمون وبعد ذلك تابع سيره متجهاً نحو الجنوب فالتقى بطلائع المسلمين في نقطة تقع على طريق روماني قديم يبعد عشرين كيلو متراً الى الشمال الشرقي من بواتيه ، حيث وقعت المعركة في رمضان ١١٤ هـ / ٧٣١ م ، وفيها استشهد عبد الرحمن الغافقي وتراجع الجيش الاسلامي بعد ذلك • وأطلق العرب على مكانها اسم بلاط الشهداء •

أهمية معركة بواتية

الشيء الذي يلتفت اليه في هذا المجال هو أن المؤرخين المسلمين لم يعطوا لهذه المعركة أهمية عظمى بالقياس الى ما أولاها المؤرخون الحديثون، ومصداق ذلك نراه في انهم يشيرون اليها بالقدر الذي أشاروا به الىالغزوات الاسلامية الاخرى في أراضي غاليا ، وكذلك فهم يختلفون في سنة حدوثها حتى أن البعض منهم كابن خلدون مثلا يجعلها في زمن وال آخر لم يدخل الاندلس في الحقيقة وهو عبيد الله بن الحبحاب الذي كان والياً لافريقيا[١]•

أما المؤرخون المحدثون فقد اهتموا بهذه المعركة اهتماماً كبيراً ، ولا أدل على ذلك من الدراسات الكثيرة التي انصبت عليها والمناقشات التي اضطرمت حولها ، ويمكن أن نجمل آراءهم الكثيرة حولها في زمرتين : الاولى تتمثل بآراء باحثين مثل Becker في Cambridge Medieval History, II, 1926 pp. 374-375 ، ويرى هؤلاء أن انتصار مارتل أنقذ الغرب من العرب •

أما الزمرة الثانية فنجدها عند أمثال H. Pirenne في كتابه محمد وشارلمان ص ١٣٦ ، ويقول بأن معركة بواتيه أعطيت أهمية أكبر من التي تستحقها ، وانه حتى لو انهزم شارل مارتل فيها فلن يحدث شيء سوى ان الغنائم التي سيحصل عليها العرب ستكون أكبر •

---

١ ــ أنظر : حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٢٦١ ــ ٢٧٦ •

واذا حاولنا النظر بدقة ، تجاه هذه الآراء المتضاربة ، وحكمنا على أهمية هذه المعركة ، آخذين بعين الاعتبار الحوادث التي تلتها ، نجد أن هناك تطرفاً من الطرفين ، فهذه المعركة لم تكن فاصلة كما يرى Becker بمعنى انها لم تمنع العرب نهائياً من اعادة الكرة والهجوم على أراضي غاليا من جديد . فبعد سنتين اثنتين فقط أي في عام ٧٣٤ ، توغل يوسف بن عبد الرحمن حاكم نربونة في حوض الرون واحتل آرل Arles ثم ابينيون ثم تجاوزها نحو الشمال .

ومن ناحية ثانية لم تكن عديمة الاهمية أو تشبه غيرها في الاهمية ، ذلك اننا لاحظنا أن الغزوات السابقة حتى غير الموفقة منها كانت تتبع بغزوة أخرى ، أوسع نطاقاً وأكثر بعداً داخل غاليا من السابقة وذلك بعد تغيير محور الهجوم . أما في معركة بواتية ، فقد اتبعت بغزوات أقل عمقاً منها ، وأضيق نطاقاً من الغزوات السابقة ، وكان لهذا أهمية حتى على أوضاع المسلمين في داخل شبه الجزيرة كما سيمر معنا ذلك بعد قليل .

فقدان آخر المعاقل الاسلامية في غاليا :

استقر المسلمون في الاراضي التي توغلوا فيها بقيادة يوسف بن عبد الرحمن مدة أربع سنوات استطاع بعدها شارل مارتل ردهم من جديد نحو قاعدتهم نربونة ، ولاحقهم الى هناك حيث حاصرهم . وقد اهتم عقبة بن الحجاج السلولي والي الاندلس آنذاك بهذا الحصار فأرسل جيشا لرفعه ، ومع أن جيشه هزم الا أن حامية المدينة دافعت عنها ببسالة وأجبرت شارل مارتل على رفع الحصار ، وظلت هذه القاعدة بأيدي المسلمين حتى استردها منهم ببين الشجاع عام ٧٦١ م . وبسقوطها بيد الكارولنجيين فقد المسلمون آخر معقل لهم في الاراضي الغالية أو غاليش حسب تعبيراتهم .

الفترة الثانية من عصر الولاة

ما بعد عام ١١٤ ـ ١٣٨ هـ / ٧٣٢ ـ ٧٥٦ م

بعد عدة سنوات من معركة بواتية ، عجز المسلمون عن الاستمرار في توجيه جهودهم نحو الخارج ونحو الفتح في أراضي غاليا ، اذ اضطروا لتركيز اهتمامهم على معالجة المشاكل الداخلية التي تأزمت وجعلت عناصر الفاتحين من بربر وعرب يمتشقون الحسام لحلّها ، وغرقت الاندلس في خضم حرب أهلية بين عنصري الفتح : العرب والبربر أول الأمر • ومع أن العرب خرجوا منتصرين الا أن الهدوء لم يستتب ، اذ احتدم النزاع بين صفوف عنصر الغالبين ، بين العرب القدماء الذين أطلق عليهم اسم البلديين والعرب الجدد الذين أطلق عليهم اسم الشاميين وتمخّض هذا النزاع عن سيطرة الجدد على القدماء ، ولكن الأزمة مع ذلك لم تنته ،فانقلب الصراع بعد أمد بين العرب من جديد على أساس قبلي أو نزاع بين القيسيةواليمانية، ويظهر أن هذا النزاع كان من الممكن أن يستمر طويلاً لولا قدوم عبد الرحمن الداخل الذي أصبح حاكماً فرداً ، أخضع جميع العناصر وسائر القبائل لسلطته وجعلها كلها تسعى لخدمته وتعمل بأمره •

أما الدوافع التي أدت لهذا الصراع بين فاتحي الاندلس ، فكانت متعددة ومختلفة باختلاف مراحله ، باستثناء دافع واحد كوّن ما يشبه القاسم المشترك في مراحل النزاع الثلاثة ، وهذا العامل هو تقسيم الارض ، ولذا لا بد من التوقف عنده قليلاً قبل ذكر المراحل الثلاثة وتبيان الظروف والملابسات التي أضيفت اليه وأدت الى حدوث النزاع في كل مرحلة •

تقسيم الاراضي

سقطت أراضي الاندلس في أيدي المسلمين بأشكال مختلفة فبعضها سقط عنوة وبعضـها وجـده المسلمون خالياً فاحتلوه دون ايجاف خيـل ولا ركاب ، وبعضها نزل أهله عـلى الصلح فاحتفظوا بأراضيهم وجرى التعامل بينهم وبين الفاتحين بموجب شروط معاهدة معقودة بين الطرفين ،وهذه الشروط مع بعض الاختلافات الجزئية فيما بينها احتوت بصورة جوهرية على أمرين : أن يدفع هؤلاء جزيـة على رؤوسهم وخراجاً على أراضيهم كان على الاغلب جزءاً من غلة الارض يعادل الثلث حيناً والربع حيناً آخر حسب طيب الارض وغلّتها[1] .

وما عدا ذلك فان جميع الاراضي الاخرى التي وقعت بيد المسلمين سواء منها المفتوحة عنوة أو الخالية التي هرب منها أصحابها من النبلاء ورجال الكنيسة وهم المالكون للقسم الأعظم منها ، فتقاسمه الفاتحون على أساس نزول كل قوم فيما طاب له من الارض[2] . أما حق بيت المال في هـذه الاراضي ، فلم يحاول موسى بن نصـير أن يقتطعه من الاراضي بحسب كيفية سقوطها ، أي أن يعامل قسماً منها كفيء ، وهي الاراضي التي وجدها المسلمون خالية تكون قسمته على أساس الآية : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ، ولذي القربى ، واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم » ويعامل القسم الآخر كغنيمة وتطبّق عليها أحكام الآية « واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه ... الخ أو تفسير عمر بن الخطاب لهذه الآية في معاملة أراضي سواد العراق[3] بل عاملها كلها معاملة الغنيمة ، ولم يحاول أن يأخذ من الاراضي والسبي الا الخمس ، وبعد أن أخذ من خمس السبي ما اختاره لحمله الى دمشق ترك

---

١ ــ رواية الرازي في الرسالة الشريفية ، افتتاح الاندلس ، ص ٢١١ .

٢ ــ النفح ، ج١ ، ص ٢٥٨ .

٣ ــ انظر هذا التفسير في « الخراج والنظم الماليـة في الاسـلام » لضياء الدين الريس ص ١٠٥ ــ ١٠٩ .

بقيته علـى أرض الخمس كي يثلث مال المسلمين ، وعرف هؤلاء باسـم الاخماس وأطلق على أبنائهم بنو الاخماس[1] •

ومع أن أخذ الخمس كان فيه اجحاف بحق بيت المال ، الا أن الوقت لم يسمح لموسى بن نصير حتى يأخذ هذا الخمس كله فبقيت بعض الاراضي دون تخميس •

ولكي يحتفظ الفاتحون بما حصلوا عليه من الاراضي لجؤوا الى تعلّة رغبتهم في ترك هذه الاراضي البعيدة فأرضاهم الوليد باقرارهم على ما بأيديهم معتبراً هذه الاراضي ثغراً ، وتوجد دلائل على قيامه باقطاع أراضٍ لغيرهم تشجيعاً لهم على الاقامة في الاندلس[2] •

أما في عهد عمر بن العبد العزيز فقد أرسل السمح بن مالك الخولاني من دمشق كوال للاندلس مكلف بالقيام « باكمال التخميس وتمييز أرض العنوة عن أرض الصلح ليصحّ التخميس » وكان معه عدد من الجند يبلغ الخمسمائة حسب قول احدى الروايات • وفي هذه الاوامر المعطاة لـه ما يفسـح المجال للاعتقاد بأن عمر كان يرى أن بعض أراضي الاخماس كانت في أيدي الفاتحين ، كما أن بعض أراضي الخراج أي أراضي الصلح اختلطت بغيرها أي ربما اشتراها الفاتحون من أصحابها فانقلبت من أرض خراجية تدفع نسبة عالية من الضرائب كما رأينا « مثالثة أو مرابعة » الى ارض عشرية • وقد منع عمر بن عبد العزيز هذا العمل في المشرق وربما أراد أن يطبقه على المغرب • وفي كلا العملين ما يعرض مصالح النازلين في الاندلس ، فلجؤوا الى تعلّتهم المعروفة وهي الرغبة في العودة الى المشرق ، كمـا أظهروا خوفهم من أن يشاركهـم القادمون الجدد في أراضيهم • فأقرّهم عمر على ما بأيديهم وعلى ما سجلّه لهم الوليد وموسى بن نصـير

---

١ ــ الرسالة الشريفية ، افتتاح الاندلس ، ص ٢٠٤ ــ ٢٠٥ •
٢ ــ المصدر السابق ، ص ٢٠٦ ــ ٢٠٧ •

وأمر واليه بأن يقرّ القرى بأيدي أربابها وأن يقطع الجنود المرافقين له من أراضي الاخماس •

هذه الطريقة في تقسيم أراضي الاندلس جعلت بعض الفقهاء يعتبرون أن أرض الاندلس لم تقسّم تقسيماً شرعياً ، ونجد اصداء ذلك عند الفقيه القرطبي ابن حزم الذي يقول « هذا ما لم نزل نسمعه سماع استفاضة موجب للعلم الضروري ان الاندلس لم تخمّس كما فعل رسول الله فيما فتح ، ولا استطيبت أنفس المستفتحين وأقرّت لجميع المسلمين كما فعل عمر رضي الله عنه فيما فتح بل نفّذ الحكم فيها بأن لكل يد ما أخذت[١] •

ويرد نفس الشيء عن فقيه آخر هو أحمد بن نصر الداودي الذي يقول « واما أرض الاندلس فقد طعن فيها بعض الناس ، وزعم انها أو أكثرها فتحت عنوة ، وانها لم تخمّس ولم تقسم غير أن كل قوم وثب على طائفة فيها من غير اقطاع من الامام » •

بنتيجة ذلك نخلص الى نتيجة : هي أن كثيرين كانوا يرون أن تقسيم الاراضي تحكمت فيه الغلبة وليس الشرع ، ومن الطبيعي أن يحصل النزاع حول ملكيتها وأن تحاول الاطراف المختلفة من عناصر وقبائل الفاتحين أن تقتطع أكبر قسم منها وبهذا كانت قضية توزيع الاراضي عاملاً في كل نزاع بين الغالبين • وكان أول هذه النزاعات الحرب بين العرب والبربر •

الصدام بين العرب والبربر

بدأ الصدام في شمال افريقيا أولاً وبعد احراز البربر للانتصار فيه انتشر في الاندلس ، وقد هدّد سلطان العرب في كلتا المنطقتين •

---

1 — Asin palacios, Un codico Inexplorado de Ibn Hazm, Al - Andalus vol I, 1934, P. 1-56.

الثورة البربرية في شمال افريقيا

أحاطت بالولاة العرب جملة من الظروف جعلتهم يعاملون البربر معاملة قاسية تستثير النقمة ، وتعود جذور هذه الظروف الى زمن فتح شمال افريقيا وما أحاط بهذا الفتح من ملابسات ، فعلى ما يظهر كانت مقاومة البربر الشديدة وكثرة انتفاضاتهم التي سببت للعرب العديد من النكسات سبباً في جعل القواد العرب حتى أيام موسى بن نصير يعتبرون البربر جميعهم من قاوم منهم ومن نزل على الصلح دون مقاومة ، غنيمة يأخذ بيت المال منها الخمس من أرض ونعم وأموال • وهذا الاعتبار أدى الى ضخامة ما يرد بيت المال من خمس افريقيا حتى شاع لدى المشارقة ان هذا البلد أغنى بلاد الله طراً ، ومصداق ذلك الاعتقاد ما ينسب للرسول (ص) قوله في الحديث « خير الارض مغاربها وأعوذ بالله من فتنة الغرب » • وكذلك تعليلهم لضخامة الثروة التي استولى عليها عبد الله بن أبي سرح ، وكيف ان سهم الراجل بلغ ١٠٠٠ دينار وسهم الفارس ثلاثة آلاف بأن ذلك حصل « لأنه افترع افريقيا بكراً »[١] • ولذا كان على الولاة الذين تلوا الامراء الفاتحين أن يجمعوا ما أمكن من الأموال لكي يحتفظوا بمراكزهم ولا يظهروا بمظهر المقصّرين أمام الخلفاء ، وهذا ما يجعلهم يلجؤون لكثير من العسف والظلم في جمعها • أضف الى ذلك آن هؤلاء في سعيهم لنيل الحظوة لدى الخلفاء ، كانوا يجهدون في اتحافهم بطرائف المغرب المستحبة لديهم كالسبايا البربريات وجلود الخراف العسلية ، ولا يتورعون عن استخدام أية وسيلة في سبيل الحصول عليها[٢] •

الى هذه المظالم التي كانت قديمة ، ظهر في فترة الثورة عامل جديد انبثق عن الفترة التي كانت تمرّ بها الدولة الأموية وكانت فترة تنظيم

---

١ ـ ابن عذاري ، ج١ • ص ، ٧ و ١٢ •

٢ ـ الاخبار المجموعة ، ٣١ ـ ٣٢ •

وتعريب لجهاز الدولة يهدف الى ايجاد مسح جديد وتعداد للسكان لتقدير الضرائب على أساسهما لا على أساس السجلات البيزنطية أو الفارسية القديمة . ومن المنتظر أن تسوء هذه العملية البربر الذين اعتادوا الافلات من ربقة السلطة ، ومن شأن عمل كهذا أن يدخلهم ضمن اطار الادارة ولا يبقي لهم أملاً في الافلات من متطلباتها ، وآية مدّ عملية التنظيم هذه الى المغرب هي تعيين عبيد الله بن الحبحاب أميراً عليها ، وهو كاتب من الموالي يرد في النصوص انه عيّن أولاً كوال على مصر وأتم فيها هذه العملية[1] ، وربما كانت الغاية في تعيينه والياً في القيروان القيام بهذه العملية في المغرب أيضاً .

على أن الظلم وحده ، على فرض وجوده ، لا يكفي لقيام الثورة مالم تتوفر فئة تجسّم المظالم وتضخمها في أعين الناس وترسم لهم طريق تقويض الحكم القائم . وقد توفر ذلك في المغرب على يد الخوارج من الصفرية والاباضية الذين أنهكوا في المشرق تحت ضربات الامويين في العراق ، وخاصة أيام زياد بن أبيه وابنه عبيد الله والحجّاج بن يوسف الثقفي ، فابتعدوا عن ذلك المكان القريب من المركز الى تلك البقعة القاصية البعيدة وهي المغرب ، ووجدوا في تصرفات الولاة السيئة فرصة لنشر مبادئهم .

أحداث الثورة

الخوارج ووالي افريقيا

في عام ١٢٢ هـ / ٧٣٩-٤٠ م خرج جيش الوالي بقيادة حبيب بن أبي عبده للغزو في صقلية واستغل الخوارج الصفرية من البربر ، بقاء الوالي دون جيش في البلاد ورفعوا راية العصيان في طنجة . وتزعمهم ميسرة الذي تنعته الروايات العربية بالحقير وكان في الاصل سقّاء في سوق القيروان .

١ ـ دينيت ، الجزية والاسلام ، ص ١٣٨ .

واستطاعوا تحقيق أول نصر لهم في مدينة طنجة بقتل عاملها ابن المرادي المعروف بجوره في فرض الضرائب على البربر • ومن ثم اتجهوا نحو الجنوب للسيطرة على المغرب الاقصى واستطاعوا احتلاله وقتل اسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب عامل والده على منطقة السوس • وبما أن الثورة خارجية ، والخوارج لا يعترفون بأحقية الامويين في الخلافة ، لذا لم تعدّ انتفاضة ضد وال أو عامل انما انتفاضة على الحكم الاموي بكامله ، وهكذا خلع البربر طاعة الخليفة وبايعوا زعيمهم ميسرة كخليفة •

لما بلغ عبيد الله بن الحبحاب مقتل عامله وولده كتب الى حبيب بن أبي عبده يأمره بالرجوع من صقلية ، وأرسل خالد بن حبيب الفهري على رأس جيش للقاء ميسرة ، تمّ اللقاء على مقربة من طنجة فحصل قتال شديد بين الطرفين كانت نتيجته على ما يظهر نصراً لخالد ، انما لم يكن نصراً حاسماً • وانصرف ميسرة عائداً الى طنجة حيث قتله أتباعه لامور أنكروها عليه من سوء سيرته وتغيره عما كانوا بايعوه عليه مما أدى للهزيمة على حد زعمهم ، وولوا أمرهم خالد بن حميد الزناتي • وسار الخليفة الخارجي الجديد للقاء خالد فوجده في قتال مع جماعات البربر وداهمه أثناء احتدام المعركة فتكاثرت البربر على العرب وهزموهم وكره خالد بن أبي حبيب أن يهرب فألقى بنفسه وأصحابه الى الموت ، فقتل مع رجاله من القواد والكبراء ، ولذا سميت الموقعة بموقعة الاشراف [1]

البربر وجيش الشام

بلغت هذه الاحداث مسامع هشام بن عبد الملك الخليفة ، فقال : « والله لأغضبن لهم غضبة عربية ولابعثن لهم جيشاً أوله عندهم وآخره عندي » على حد تعبير ابن عذارى •

وكمقدمة لهذا الجيش الضخم حشد على جناح السرعة من أجناد

---

١ - ابن عذاري ، ج١ • ص ٥١ - ٥٤ •

الشام الخمسة جيشاً ، فأخذ من أربعة منها ستة آلاف من كل جند واكتفى بثلاثة آلاف من جند قنسرين • فتوفر له بذلك سبعة وعشرون الفاً ، ولما وصل هذا الجيش الى مصر انضمت اليه ثلاثة آلاف أخرى فأصبح تعداده ثلاثين ألفاً من أهل الديوان (أي من الجند النظامي فقط) عدا من انضم اليهم من الناس • وقد أوصى الخليفة بأن تكون القيادة لكلثوم بن عياض القشيري أمير شرطة دمشق ، وفي حالة موته تنقل القيادة لابن عمه بلج بن بشر القشيري ومن بعد هذا الى ثعلبة بن سلامة العاملي •

وصل هذا الجيش الى افريقيا في سنة ١٢٣ هـ ، ولكنه لم يستقبل من السكان استقبالاً حسناً لخوفهم من اعمال الجند داخل مدنهم فأغلقت أبواب المدن في وجهه ، ولم يكن حظه لدى جند افريقيا أفضل من ذلك اذ وقعت المنافسة بين القواد : حبيب بن أبي عبده القائد الافريقي وابنه عبد الرحمن من جهة ، وكلثوم بن عياض وابن عمه بلج من جهة ثانية ، وكادت المنافسة أن تؤدي الى الحرب بين الطرفين لولا المساعي التي بذلت للصلح • وبعد الاتفاق تقدم الطرفان نحو البربر فالتقوا بهم عند وادي سبو • كان من رأي الأدلاء والخبراء الذين أرسلهم هشـــام أن يخندق الجيش العربي ، بينما يقوم الفرسان بالاغارة على قرى البربر مما يضطرهم للتفرق لحماية قراهم وأماكن نزولهم ، وحينذاك يسهل القضاء عليهم • لكن بلج ابن عم القائد الشامي استخف بالبربر وعارض هذا الرأي قائلا : ان هؤلاء أكثرهم عريان أعزل لا سلاح له فأطاع القائد ابن عمه ، وعندما وقـع اللقاء هزم جيش الخليفة بقسميه الافريقي والشامي ، فقتل كلثوم بن عياض وحبيب بن أبي عبدة وأكثر القواد ، كما فرت فلول المشاة الى القيروان ، أما الفرسان بقيادة بلج بن بشر فقد فروا باتجاه المغرب الاقصى ومعهم عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبدة الذي جاز البحر الى الاندلس[1] ، وقد وقعت المعركة في سنة ١٢٣[2] • / ٧٤٠ – ٤١ م •

---

١ ـ انظر تفاصيل المعركة في الاخبار المجموعة ص ٣٢ ـ ٣٣ •

٢ ـ الضبي ، ت ٣٩٢ ، ص ١٨٦ •

الثورة البربرية في الاندلس

شجعت الانتصارات التي أحرزها البربر في الشمال الافريقي ، بربر الاندلس على الثورة لانهم كانوا مثلهم يعانون الظلم من العرب حسب أقوال دوزي ، ويرى هذا ماهيةهذا الظلم تبدو علىشكلين اثنين : أولهما ما يذكره ايزيدور الباجي وهو مؤرخ اسباني معاصر للحوادث قائلا : « وقد مثل والي الاندلس بالمغاربة الذين كانوا يفدون كثيراً الى اسبانيا وأنزل بهم أشد العقوبات لما أخفوا بين أيديهم من كنوز الاموال وطرحهم في غيابات السجون ترهقهم الديدان والقمل مصفدين باغلال الحديد ، وجعل يعذبهم بضرب السياط ويشتد في اساءتهم ومحاسبتهم ويتولاهم بأشد العقوبات ، وقد تجلى رد الفعل على هذه المعاملة بثورة محلية صغيرة في الشمال معروفة باسم ثورة مونوسه[1] » • وربما كان في هذه الملاحظة شيء من الصحة اذ نرى ما يقارب ذلك في المشرق عندما نقم اشراف الكوفة على المختار لانه جعل الموالي يشاركونهم في فيئهم وغنائمهم •

أما الشكل الآخر الذي يتجلى فيه هذا الظلم حسب رأي المستشرق المذكور ، ويتبعه فيما بعد المستشرق ليفي بروفنسال هو : « ان النصر قد تم في الاندلس على يد البربر المقيمين في شبه الجزيرة ، ولم يفعل موسى والعرب غير جني ثمار النصر ••• فاستأثر العرب بالاندلس الجميلة الخصبة وأقصوا البربر الى الشمال في المناطق الجبلية القاحلة »[2] •

اذا تعمقنا في هذا القول نراه لا يصور ما وقع في قضية توزيعالاراضي بدقة • فصحيح أن الاراضي الخصبة الواقعة في وديان الانهار الكبرى وأكثرها في الجنوب كانت بأيدي العرب لكن ذلك كان نتيجة لاوضاع وظروف معقدة لكل من العرب والبربر أثناء الفتح وبعده بقليل ، ولم توزع الاراضي على الوجه البسيط الذي ذكره دوزي بحيث يعطى السهلالمخصب

---

١ ـ دوزي ، تاريخ اسبانيا الاسلامية ، الترجمة العربية ج١ ص ١٥٧ •
٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٥٦ ـ ١٥٧ •

للعربي والجبل القاحل للبربري ومما يدعونا الى هذا القول الأمور التالية :

١ ـ لم يكن في انقسام الاراضي على هذا الشكل ظلماً للبربر في نظر الناس الذين عاشوا تلك الاحداث والا لما تردّد المؤرخون العرب منهم والاسبان عن ذكره ، لانهم لم يحجموا عن ذكر أي شيء اعتبره البربر في ذلك الوقت ظلماً مهما كان تافهاً ومهما بلغت درجة الشناعة فيه ، مثل مصادرة المواشي ، وتخميس البربر وارسال السبايا الى دمشق •

٢ ـ كانت حيازة فئة من الفئات للأرض لا تتم بناء على تقسيم ، فالمقرّي يشير لكيفية استيطان الاراضي بقوله « وكان العرب والبربر كلما مر قوم منهم بموضع استحسنوه حطوا به ونزلوا قاطنين[١] ، وكذلك يؤكد ابن حزم بأنه « نفذ الحكم على أرض الاندلس بأن لكل يد ما أخذت » • وهذا معناه أن الجيش يأخذ الاراضي التي يمر بها ويفتحها • واذا نظرنا الى أراضي العرب نجدها في الجنوب ووديان الانهار الكبرى وكلها تتوافق مع خط السير الذي اتبعه موسى وابنه عبد العزيز والمولى مغيث ، بينما مرّ طارق بهذه المنطقة مرور السهم حتى لحق بطليطلة ، وظل كل وقته في الشمال والوسط أي في المناطق الجبلية غير المخصبة • وهكذا نرى أن التقسيم لم يجر رغماً عن البربر ، وهو ما يبدو لأول وهلة غريباً ، إذ كيف يتخلّى قوم عن أرض خصبة ليقيموا في أرض جبلية غير مخصبة ؟ لكن الغرابة تزول اذا أخذنا بعين الاعتبار موطن هؤلاء البربر الاصلي واهتمامهم بالفتوحات •

٣ ـ جمع طارق بن زياد أكثرية جنده من قبائل مطغرة ومديونة ومكناسة وهوارة التي كانت تنزل ، أوائل القرن الثامن عندما حدث الفتح ، في جبال الريف والجبال الأخرى الواقعة على شاطىء مراكش الشمالية[٢] ، وهذا يعني أن هؤلاء كانوا يصرّفون نمط حياة بدوي ، ولهذا لم يقدّروا

---

١ ـ انظر سابقاً • ص ٣٤ •

٢ ـ E : Levi provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane, T.I, P. 16.

على ما يظهر الاراضي السهلية حق قدرها ، وفضّلوا عليها الغنائم من الذهب والمتاع والسبي ، ونجد على ذلك دليلاً في أول مرحلة من مراحل الفتح عندما قام أحد العرب القلائل في جيش طارق باحتلال قرطجنة في الجنوب فاقطعت له ، رغم انه لم تكن للعرب قوة تذكر أمام البربر في جيش طارق • وفي هذا دليل على عدم اهتمام البربر بأراضي السهول في الجنوب بل أقاموا في الشمال حيث تشبه المنطقة مناطقهم الجبلية ، وحيث يقفون على أبواب غاليا التي أصبحت ميداناً للغزو ومصدراً للغنائم • وربما لم يقدروا الاراضي الا بعد كارثة بواتية ، واقتصار الغزوات الاسلامية في غاليا على منطقة صغيرة لا تعطي مردوداً كبيراً من الغنائم ، بينما ظل العرب النازلون في السهول منذ حوالي عشرين عاماً ، يتمتعون بمورد غزير من المال والثروة • وهذا ما يفسر حدوث حركاتهم بعد معركة بواتية لا قبلها عندما أجري توزيع الاراضي •

احداث الثورة وفشلها

انطلقت الثورة البربرية في شمال الاندلس ، كما كان منتظراً لأن الشمال كان مركز تجمعهم ، ونصّبوا على أنفسهم إماماً ثم هاجموا عرب جليقية وقتلوهم ، ولم ينج من كل العرب في الشمال سوى عرب سرقسطة لأنهم أكثرية في منطقتهم ، وقد بعث عبد الملك بن قطن الفهري والي الاندلس آنذاك الجيش تلو الجيش ضدهم ، فهزمت كلها وأجلي العرب عن أماكنهم من شمال شبه الجزيرة حتى أواسطها • خشي حينذاك عبد الملك مصيراً له ولعرب الاندلس كمصير والي طنجة وعربها فاستعان بفلول الفرسان من جيش الشام المحصورين في سبتة بقيادة بلج بن بشر القشيري • ودخل هؤلاء الاندلس والحقد يملأ صدورهم على البربر ، فالتقوا مع الوالي بطلائعهم المتقدمة نحو المضيق وهزموهم عند شذونة ، وتابعوا بعد ذلك سيرهم نحو الشمال للاجهاز عليهم في عقر دارهم ، وبعد أن عبروا نهر التاجُه مع الجيش الذي يقوده كل من أمية وقطن من أبناء عبد الملك ، التقوا بالبربر على وادي سليط (Guazalete) ، وكان هؤلاء قد حلقوا

رؤوسهم اقتداء بالازارقة في المغرب ، لكن ذلك لم يجدهم نفعاً اذ هزمهم الجند الشامي وجند الوالي ويصف لنا صاحب أخبار مجموعة انتصار جند الشام على البربر في هذه الوقعة وما بعدها قائلا : « فمنحهم الله اكتاف البربر فقتلوهم قتلا ذريعاً حتى أفنوهم فلم ينج منهم الا الشريد • فركب أهل الشام ولبسوا السلاح ثم فرقوا قواد الجيوش في أرض الاندلس فقتلوا البربر حتى اطفؤوا جمرتهم[١] » •

فشل الثورة في افريقيا

وفشلت ثورة البربر كذلك في افريقيا ، فقد ولّى الخليفة حنظلة بن صفوان والياً على افريقيا ، فلم يكد ينزل في القيروان حتى توجه ضده جيشان للخوارج ، فتمكن من هزيمة كل جيش على حدة قرب مدينة القيروان كما قتل أحد القائدين وأسر الآخر • وتبدو لنا الصورة التي يقدمها المؤرخون القدماء للهزيمة وخاصة لاعداد الجيوش وقتلاها بصورة تدعو للظن بوجود مبالغة فيها ، فابن عذاري يعلق على هذه الهزيمة قائلا : « وقيل ما علم في الارض مقتلة أعظم منها ، وأراد حنظلة أن يحصي من قتل وأمر بعدّهم فما قدر على ذلك ، وأمر بقصب فطرحت قصبة على كل قتيل، ثم جمعت القصب وعدّت فكانت القتلى مائة وثمانين الفاً وكانوا صفرية يستحلون النساء ويسفكون »[٢] •

وعلى كل فقد استطاع الولاة في كل من افريقيا والاندلس بمعونة الجيوش الآتية من الشام ، انقاذ المغرب من السقوط بكامله في قبضة البربر، لكنهم لم يستطيعوا استئصال المبادىء الخارجية من هذه الاراضي ، اذ سيظهر بعد حوالي نصف قرن قسم منهم في الاندلس ، أما في شمال افريقيا فسنرى الخوارج يؤلفون دويلات خارجية صغيرة منعزلة وسيزداد تطرف بعضها حتى تصبح بعيدة كل البعد عن الاسلام • وستعيش هذه الدويلات عدة قرون •

---

١ ـ الاخبار المجموعة ، ص ٤٠ •
٢ ـ البيان المغرب ، ج١ ص •

الصراع بين الشاميين والبلديين

بدء الصراع

ساعات الصراع بين العرب مع بعضهم في الاندلس ، كانت موصولة بساعات الصراع بينهم وبين البربر ، ويمكن اعتبار نقطة البدء لذلك الصراع، الوقت الذي فر فيه فرسان جيش الشام بقيادة بلج بن بشر متجهين نحو المغرب الاقصى بعد أن سد البربر عليهم طريق القيروان • وقد حاول بلج بعدئذ دخول طنجة فامتنعت عليه ، فيمم وجهه شطر سبتة فدخلها وتحصن فيها ، وكانت له ولجنده بالفعل ملاذاً أميناً ، فقد كانت محاطة من جهة البر بجبال حولها من جميع الانحاء بينما تنفتح من جهة البحر على اسبانيا • ولما كان البربر محاربين غير ذوي خبرة في حصار المدن ، استطاع بلج أن يصد لهم ست هجمات قاموا بها ضد المدينة[1] • ولما عجزوا عن فتحها خربوا ما حولها من مزروعات على مسيرة يومين حتى يميتوا المحاصرين جوعاً • وكادت توقعاتهم أن تصيب ، فلم يلبث الجند المحصور والبالغ عدده عشرة آلاف جندي[2] ان اشتد عليه الجوع بعد قضاء ما يقرب من سنة في داخل المدينة • وبعد أن أكلوا دوابهم ثم تقوتوا بالجلود أشرفوا على الهلاك وتوجهوا بأبصارهم نحو الاندلس ، وهو بلد يتبع الخليفة الذي أرسلهم •

في ذلك الوقت حصل تبدل في ولاية الاندلس ، فقد عزل عقبة بن الحجاج السلولي أو تخلى هو عن الامارة من نفسه بعد نشوب الثورة في افريقيا حسب رواية أخرى ، ووليها بعده عبد الملك بن قطن الفهري للمرة الثانية عام ١٢٢ هـ / ٧٣٩ ـ ٤٠ م • ولم يسمح الوالي الجديد للجند الشامي بدخول الاندلس ، كما امتنع عن امدادهم بالقوت ، ولم يكتف

---

١ ـ الاخبار المجموعة ص ٣٥ •

٢ ـ افتتاح الاندلس ، ص ٢٤١ •

بذلك بل منع الناس عن مد يد العون لهم ، وأطاعه الناس في ذلك ، باستثناء شريف من لخم يدعى عبد الرحمن بن زياد الاخرم تجرأ على مخالفة الوالي وزود الجند الجائع بسفينتين مشحونتين بالشعير والادام •

يشكل امتناع عبد الملك بن قطن الفهري عن مد الجند الشامي بالقوت أو السماح له بجواز المضيق الى سبتة أول حلقة من السلسلة التي تجلى فيها النزاع بين العرب في الاندلس الذين سموا بالبلديين وبين الجند الذين سموا بالشاميين • وكانت للوالي دوافعه التي تملي عليه هذا الموقف فهو من المدنيين الذين حضروا موقعة الحرّة وذاقوا آلامها ، وربما كان يشفي غلّه برؤيته للشاميين الذين نكّلوا بأهل المدينة ، يذوقون الويلات من الجوع ومن البربر • والى هذا الدافع النفسي يمكن أن نضيف عاملاً آخر يتعلق بضرورات الحفاظ على سلطته • اذ أن عشرة آلاف جندي نظامي سيكونون عند دخولهم للأندلس أقوى من واليها الذي لم يكن له سلطة قويّة على قبائل عربية وبربرية تخضع كل منها لشيخها • وكان منافسو الشاميين من زعماء عرب افريقيا الذين انهزموا مع المنهزمين وعبروا البحر الى الأندلس من أمثال عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبده[1]، ينصحونه بعدم ادخال الشاميين ويثيرون مخاوفه على سلطته منهم •

لم يكن الوالي وحيداً في موقفه من قضية ادخال الشاميين الى الاندلس، بل ان أغلب عربها كان لهم نفس الموقف ، ذلك لأنهم اقتسموا الاراضي وتموّلوا فهم ملوك حسب تعبير أحد المؤرخين القدماء ، ويخشون الآن مقاسمة هؤلاء الجدد لهم أراضيهم عندما يدخلون • لذا وقفوا مع الوالي

---

١ ـ انظر ترجمته في : محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي (أبو عبد الله) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس ، وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والادب ، وذوي النباهة والشعر • تحقيق محمد بن تايت الطنجي ، القاهرة ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٢ م ، ت ٥٩٤ • وسنشير اليه فيما بعد باسم مؤلفة « الحميدي » •

أثناء حياته وحاربوا جند الشام بعد وفاته ويورد أحد المؤرخين القدماء أقوالاً لهم لهؤلاء الشاميين أثناء حربهم « اخرجوا عنا فان بلدنا يضيق بنا »[١] .

الجند الشامي يسيطر على الاندلس :

وأخيراً جرت الرياح بما لا تشتهي السفن بالنسبة لعبد الملك بن قطن الفهري ، فقد تعاظمت قوة الثورة البربرية في الاندلس وهزمت جيوش الوالي الواحد منها بعد الآخر وتقدم البربر من معاقلهم في الشمال باتجاه الجنوب حتى أصبحوا يهددون العاصمة قرطبة نفسها . فلم يجد الوالي بدا من الاستعانة بتلك القوة الجاهزة في سبتة والمتعطشة لقتال البربر . لكنه استغل جوع تلك القوة ليفرض عليها شروطا تجعل منها فقط أداة تخدم مصلحته بدفع خطر البربر ، وتمنعها من تشكيل أي خطر على سلطته هو بالذات أو على مصالح العرب في الاندلس . وهكذا اشترط على الجند الشامي : أن يدخلوا الاندلس ليحاربوا البربر ويغادروا البلاد مباشرة بعد الاجهاز عليهم واخماد ثورتهم . فرضوا بذلك بعد أن أخذوا عليه عهداً بأن يحملهم جملة واحدة ولا يعرضهم للبربر ، وأعطوه رهائن منهم لضمان تنفيذ بنود الاتفاق فوضع الوالي هذه الرهائن في جزيرة أم حكيم قرب الجزيرة الخضراء .

دخل الشاميون الى الاندلس جائعين عراة ، فتعاون ابن قطن والناس على اكسائهم ، وحارب بالاشتراك معهم ومع عرب الاندلس البربر فهزمهم، وبعد ذلك بدأ يطالبهم بالخروج لكنه لم يكن حكيماً فيما عرضه عليهم ، اذ تنصّل من وعده لهم بحملهم جملة ، متذرعاً بأنه حينما وعدهم بذلك كانوا لا يملكون شيئاً أما الآن فقد أصبح لكل منهم المتاع العظيم والعديد من العبيد ولا تكفي سفنه لحملهم كلهم دفعة واحدة . عرض عليهم بأن يحملهم على دفعات فعرض عليه الشاميون حينئذ انهم يتنازلون عن التمسك

---

١ _ الاخبار المجموعة ، ص ٣٩ . افتتاح الاندلس ، ص ٤٣ .

بالوعد المقطوع لهم اذ قبل أن يتم نقلهم من شاطيء البيرة (غرناطة) أو تدمير (مرسيا) الى افريقيا (تونس) حيث يكونون بمأمن من البربر ، فرفض ذلك أيضاً بحجة عدم وجود مراكب الا في ميناء الجزيرة الخضراء ، وعدم امكان تحريكها من ذلك المكان خشية نزول البربر •

لا شك انه كانت لدى الجند الشامي نية في البقاء في الاندلس الغنية الجميلة الخصبة ، وجاء موقف عبد الملك الآن من قضية نقلهم على دفعات الى شاطيء مراكش ، ليجعل من بقائهم في الاندلس لا قضية رغبة وانما قضية حياة أو موت فأجابوه : « تعرضنا لبربر طنجة ، أقذف بنا في لجة البحر أهون علينا » ولم يبق أمامهم أمل الا في حربه وهم قوة لا بأس بها ، وقد زادهم وضعه لهم على حافة اليأس قوة على قوة ، فخلعوه ودخل بلج قصر الامارة في عشية يوم الاربعاء في صدر ذي القعدة من سنة ١٢٣ هـ أواسط ايلول سنة ٧٤٢ • في أثناء المجادلات بين الطرفين امتنع والي الجزيرة عن امداد جزيرة أم حكيم مقر الرهائن بالماء والطعام وهي جزيرة لا ماء فيها فتوفي على اثر ذلك أحد اشراف غسان • ولما استولى الجند الشامي على الحكم وأطلقوا الرهائن تبين لهم مقتل الشريف فهاجوا ضد عبد الملك ، ولم تنفع نصائح بشر لهم بالاعتدال وبعدم قتل الوالي السابق نظراً لانه طاعن في السن ولانه من الممكن أن لا يكون له يد في معاملة الرهائن بقسوة ، لكنهم لم يرعووا وعندها أخرج عبد الملك وهو ابن تسعين سنة قد جلله الشيب كأنه فرخ نعامة وهم ينادونه يا محتال فلت من سيوفنا يوم الحرة ، ثم عرضتنا لاكل الكلاب والجلود طلباً بثأر الحرة ثم بعث جند أمير المؤمنين ، ثم قتلوه وصلبوا عن يمينه خنزيراً وعن يساره كلباً •

الثورة على بلج ومقتله

كانت سيادة الشاميين خطراً على مصالح عرب الاندلس كلهم ،ولذلك لبوا نداء ابني عبد الملك أمية وقطن اللذين هربا من قرطبة بعد خلع أبيهما

للثأر له ومحاربة الشاميين وعرضوا على البربر الأمر ، فقبل هؤلاء واغتنموا تلك الفرصة التي سنحت لهم بانقسام العرب الى قسمين « فقبلت البربر أن تنال ثأرها من أهل الشام فاذا فرغوا كان لهم في أهل البلد رأي » ، كما انضم للثائرين عبد الرحمن بن حبيب ، عدو بلج والشاميين منذ وصول الشاميين الى افريقيا ، وعبد الرحمن بن علقمة اللخمي والي اربونة ، وتعصب جميع سكان الاندلس لعبد الملك ولاخراج الشاميين من أرضهم لانها تضيق بهم . وخرج بشر لمحاربة المؤتلفين ضده وهو في خمس عددهم. وفي المعركة التي جرت قرب قرطبة تقدم عبد الرحمن اللخمي واخترق الصفوف لقتل بلج ظناً منه أن جيشه سينفرط عقده عند موته ، وقد أفلح في الوصول اليه وأصابته بضربة قوية ولو انها لم تكن قاضية في الحين ، الا أن ضغط جند قنسرين عليه اضطره للانسحاب وجر معه في انسحابه كتلة جيش البلديين فلاحقهم الشاميون يعملون فيهم قتلا وأسراً . وأخيراً عادوا الى العاصمة يحملون قائدهم الجريح الذي توفي بعد أيام قليلة ، أي في حوالي شهر شوال من عام ١٢٤ هـ . / ١٨ آب ٧٤٢ م .

ثعلبة بن سلامة العاملي

بعد موت بلج رفع الجند الى سدة الامارة ثعلبة بن سلامة العاملي مدعين بأن تعيينه شرعي من قبل الخليفة ، لانه أوصى عند ارسال الجيش الشامي الى افريقيا بأن يقوده كلثوم بن عياض ، وفي حالة موته بلج بن بشر ابن عمه وفي حالة وفاة هذا ثعلبة بن سلامة العاملي . وما أن تسلم هذا زمام الحكم حتى بادر بالخروج لمحاربة البلديين الذين تجمعوا في جهات ماردة واستطاع الانتصار عليهم والعودة بعدد كبير من الاسرى الى قرطبة . وقد جدد هذا في الاندلس تلك الصورة البشعة التي ظهرت لاول مرة في المشرق عند نشوب النزاعات القبلية ألا وهي سبي نساء وأطفال الخصوم ، لكنه ابتكر

---

١ ـ ابن عذاري ، ج٢ ص ٣٢ والاخبار المجموعة ، ص ٤٢ .
٢ ـ الاخبار المجموعة ، ص ٤٣ .

شيئاً جديداً وهو بيع الاسرى بطريقة المناقصة حتى بيع أحد الاشراف بكلب وبيع آخر بعود[1].

نهاية سيادة الجند الشامي على الاندلس

في هذه الاثناء وصل الى الاندلس ، أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي معيناً من قبل والي افريقيا اما بطلب من صالحي الاندلس الذين راعتهم كثرة الدماء والتطرف في الشدة التي كان يعامل بها كل طرف من المتخاصمين خصومه ، أو بأمر من الخليفة هشام بن عبد الملك . ودخل الاندلس في رجب من عام ١٢٥ هـ / مايس ٧٤٣ .

ومهما يكن من أمر فقد كانت هذه الشخصية ملائمة لحل مصاعب الموقف المتردي في الاندلس ، اذ كان أبو الخطار من أشراف الشام وهي ميزة تجعل كلمته مسموعة لدى الشاميين ، وكان برفقته عدد من الجنود يبلغ عددهم الثلاثين حسب رواية صاحب الفتوح ويسمون بالطالعة الثانية من الشاميين أو عسكر العافية لانه خلص الاشراف والذراري من البيع .

أطاع الشاميون الوالي الجديد ، أما البلديون فقالوا سمعنا وأطعنا ولكن لا محمل فينا لهؤلاء الشاميين فيخرجوا عنا ، فقال لهم ادخل قرطبة واستريح ثم يكون ما تريدون فقد ظهر لي أمر فيه صلاح جميعكم ان شاء الله .

أما الحل الذي وضعه ورضي به الجميع فهو :

١ ــ نفي الزعماء الذين اعتبروا مسؤولين عن الدماء والفظائع من أمثال ثعلبة بن سلامة العاملي وعبد الرحمن بن علقمة وعبد الرحمن بن حبيب ، كما أمّن زعماء آخرين من أمثال أمية وقطن ابني عبد الملك ابن قطن الفهري .

٢ ــ لم يخرج الشاميين من الاندلس وبذلك أرضاهم ، لكنه بنفس الوقت

---

١ ــ انظر صور النزاع القبلي في المشرق في : البلاذري ، انساب الاشراف ، ج٥ ، ص ٢٩٨ ــ ٣٣١ .

لم يغضب البلديين ، لأن هؤلاء انما يخشون بقاء الشاميين في الاندلس خوفاً من مقاسمتهم أملاكهم ، فأبعد لهم عبد الملك هذا الاحتمال الممكن ، بأن فرق الجند الشامي في الكور وأنزلهم على ثلث أموال هذه الذمة مقابل أن يؤدوا خدمة عسكرية ، أما الكور التي وزعهم فيها فهي البيرة ، حيث أنزل جند دمشق ، وريه أنزل فيها أهل الاردن ، وشذونة أنزل بها جند فلسطين ، واشبيلية وأنزل بها أهل حمص ، وجيان وأنزل بها جند قنسرين . أما أهل مصر فقد أنزل قسماً منهم بباجه ، والقسم الآخر بتدمير[1] .

العصبية القبلية

من المعروف أن العصبية القبلية ، قد ظهرت بصورة واضحة لدى القبائل العربية في المشرق وتعمق الشعور بها خلال المنازعات التي جرت هناك ، ومن الطبيعي أن يحمل العرب الذين دخلوا الاندلس مشاعرهم وعصبياتهم القبلية معهم ، كما كان طبيعياً أيضاً أن يحتفظوا في أفئدتهم بتلك الحزازات والعداوات التي سببتها المنازعات السابقة بين القبائل بل وربما بالنية في تصفية الحسابات والثارات على الارض الجديدة اسبانيا ، لذا لم يكد السلام يحل محل الحرب الدامية التي سببها النزاع بين البلديين والشاميين حتى بدأ صراع بين العرب على أساس جديد هو الأساس القبلي . ولفهمه لا بد لنا من ايضاح تركيب العنصر العربي في الاندلس .

العرب في الاندلس

كانت أغلبية جيش طارق من البربر ، والكتلة الكبرى من العرب الذين دخلوا الاندلس ، كانت في جيش موسى بن نصير ، ويتراوح عدد

---

١ ـ محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار (أبو عبد الله) ، كتاب الحلة السيراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج١ ص ٦١ ـ ٦٢ وسنشير اليه فيما بعد بعنوانه « الحلة السيراء » .

هـذا الجيش بين عشرة آلاف حسب روايـة الرازي[1] التي يسندها الى علي بن رباح أحد التابعين الذين دخلوا مع موسى بن نصير وثمانية عشر الفاً حسب رواية صاحب الاخبار المجموعة[2] . وكان موسى أحد التابعين وفي جيشه واحد من أصاغر الصحابة هو المنيذر الافريقي وعدد من التابعين أشهرهم الحنش الصنعاني ، الذي شهد أحداثاً متعددة من حوادث التاريخ الاسلامي في القرنين الاول والثاني ، فقد شهد معركة صفين مع علي بن أبي طالب وبعد مقتله قدم الى مصر ، ثم اشترك في الحرب الاهلية الى جانب عبد الله بن الزبير وأخيراً شارك في فتح شمال افريقيا ودخل الاندلس ، حيث ركز اهتمامه على نشر الدين الاسلامي وبناء المساجد ، واليه ينسب بناء جامعي سرقسطة وقرطبة .

وبعد هذه الدفعة الكبيرة من العرب الداخلين للاندلس ، صارت تفد تباعاً دفعات أصغر برفقة الولاة ، فقد قدم الوالي الحر الى الاندلس مـع أربعمائة من وجوه افريقيا[3] ، وقدم بعده السمح بن مالك مع جنود له من الشام [4] .

سميت هذه المجموعات كلها من العرب الداخلين باسم العرب البلديين تمييزاً لهم عن العرب الشاميين الذين دخلوا الاندلس بجيش بلج ، وقد سمي أفراد هذا الجند باسم طالعة بلج أو الطالعة الاولى تمييزاً لهم عن الدفعة الثانية من الجند الشامي ، التي أتت مع أبي الخطار الحسام بن ضرار الكلبي والتي أطلق عليها اسم عسكر العافية أو الطالعة الثانية .

النزاع القبلي

الى جانب هـذا الانقسـام المبني على تاريخ الدخول ، انقسم عرب الاندلس على أساس قبلي ، فقد كان فيهم ممثلون لحوالي ٤٢ قبيله من القبائل المضرية و ٥٢ من القبائل اليمانية .

---

١ ـ النفح ، ج١ ص ٢٥٩ .
٢ ـ الاخبار المجموعة ، ص ١٥ .
٣ ـ ابن عذاري ، ج٢ ، ص ٢٥ .
٤ ـ الرسالة الشريفية في افتتاح الاندلس ، ص ٢٠٦ .

وفي ولاية أبي الخطار الحسام بن ضرار الكلبي ، أدت عدة عوامل وظروف لنشوب النزاع بين هذه القبائل ، ولعل أهمها :

١ ـ انفصال القبائل عن بعضها في الفتح وبعده في السكنى والاستقرار، ففي الجيش كانت كل قبيلة تكوّن وحدة متميزة (كما يستنتج ذلك من فقرة من فقرات الرسالة الشريفية نقلا عن كتاب الرايات للرازي) : « بلغ عدد الرايات في جيش موسى عشرين راية ثلاث منها له ولابنه والبقية لمن دخل معه من قريش وسائر العرب ، وعدّد البيوتات الاخرى لمن دخل دون راية »[١] • وبما أنّ كل جماعة من الفاتحين حلّت في الارض التي اختارتها أثناء سيرها ، فمعنى ذلك أن احتفاظ كل قبيلة بشخصيتها وانفصالها عن غيرها في جيش الفتح قد توطد وتثبت •

وبالاضافة لكل هذا فان التجاور في السكنى في أرض محتلة حديثاً في جو يسود فيه قانون الغلبة والقوة ، سيؤدي حتماً الى اصطدام حول ملكية الاراضي ، كما حدث في المشرق •

٢ ـ ظروف أبي الخطار الخاصة وماضيه : ينتسب أبو الخطار الى قبيلة كلب اليمانية[٢] وقد عمل في الجيش الذي فتح افريقيا ، ثم استقر هناك وتولى بعض الاعمال الهامة لدى والي افريقيا بشر بن صفوان (١٠٣ ـ ١٠٩ هـ) • وجاء خلفه عبيدة بن عبد الرحمن السلمي فانتزع من أبي الخطار وظيفته وعذبه وغرمه بعض الاموال ، وهنا يجب أن نعيد الى الذاكرة أن الفترة هذه كانت فترة تأجج لنار العصبية القبلية في المشرق اثر خلافة يزيد بن عبد الملك المقرّب للقيسية بين ١٠١ ـ ١٠٥ هـ ، وخلال الفترة الاولى من حكم هشام بن عبد الملك • وقد نظم أبياتاً في هذه الفترة عبّر فيها عن حالته ونقمته على القيسيين ومعاتبته للأمويين لانكارهم خدمات

---

١ ـ الرسالة الشريفية ، في افتتاح الاندلس ، ص ٢٠٣ •
٢ ـ الضبي ، ص ٢٥٩ ـ ٢٦١ •

اليمانية لهم التي أوصلتهم للحكم أيـام مرج راهط ويحذرهم من مجيء يوم يفاجئهم أعداؤهم فيه ، فلا يجدوا لانفسهم نصيراً .

وفي الوقت الذي كان فيه أبو الخطار يقاسي في المغرب كان صديقه وابن قبيلته ابن جوّاس يقاسي في الاندلس[1] .

لكل هذه الاسباب ما لبث أبو الخطار بعد أمد من الحكم الحيادي ، ان بدأ يظهر الميـل نحو اليمانية ويتحزب معهم ضـد القيسية ولا يسمع شكاوى هؤلاء ضد أبناء قومه .

أما الشرارة التي أدت لانفجار الحرب القبلية ، فحسب ما ترويه لنا المصادر العربية ، انطلقت عندما قام الصميل بن حاتم الكلابي بمراجعة أبي الخطار في قضيـة كناني اعتدى عليه يماني ، ولـم يعر الوالي شكواه أذنا صاغية ، فأغلظ أبو الخطار في الرد ، فلما أجابه الصميل بنفس اللهجة نكزه أبو الخطار وطرده من مجلسه ، فاحتمل الصميل هذه الاهانة صابراً غير شاك ولقيها هادئاً في ازدراء ، وانصرف مغضباً وغادر القصر مائل العمامة ، فلقيه رجل عند الباب فسأله : « يا أبا جوشن ما بال عمامتك مائلة ؟ فأجابه الشيخ القيسي : ان كان لي قوم فيسقوّمونها . وذهب الصميل بن حاتم بعد ذلك الى قبيلته واستطاع أن يشن الحرب التي قضى بها على الوالي . لكن أشعاراً رويت عـن أبي الخطار » ، تفيد أن ما أثار نقمة القيسيين هـو اضطهاده لهم وقتله منهـم أعداداً انتقاماً لاصدقائه من أمثال ابن جوّاس الذين قتلوا بأيديهم ، وهذه هي الاشعار[2] :

فليت ابن جوّاس يخبر انني ... سعيت به سعي امرىء غير غافل
قتلت بـه تسعين تحسب انهم ... جذوع نخيل صرّعت بالمسايل
ولو كانت الموتى تباع اشتريته ... بكـفي وما استثنيت منه أناملي

---

١ ـ دوزي . الجزء الاول ، الترجمة العربية ، ص ١٣٦ .
٢ ـ الحميدي ، ت ٤٠٢ ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩ .

صفوف القيسية وذلك بازالة الجفاء بينه وبين أبي عطا زعيم غطفان ، الذي كان يحسده للمكانة التي وصل اليها في زعامة القيسيين وقد زاره الصميل في بلدته وعادت العلاقات بينهما الى الصفاء • وانتقل بعد ذلك لشق صفوف اليمانية والتحالف مع بعض قبائلها ضد القبيلة الحاكمة ، مستوحياً ذلك من تجارب القيسية الماضية ، وذلك منذ حوالي ستين عاماً حين كانوا في الشام لجانب ابن الزبير وهم أقلية تجاه الكلبيين أنصار الامويين فتحالفوا مع جذام وزعيمها نائل الجذامي الذي استخلص فلسطين من ابن بحدل كما أرسل قوات حاربت بجانب الضحاك في مرج راهط[1] • وهكذا اتفق الصميل مع قبيلتي لخم وجذام اليمانيتين ،وأغراهما بأن قدّم للأمر رجلا منهم هو ثوابة بن سلامه العاملي كان له في الحقيقة من الامارة الاسم وللصميل الحظ[2] • وقد خدم هذا التحالف الصميل لا بجلب قسم من اليمانية من جانب أبي الخطار الى جانبه فقط ، وانما جعل بقية القبائل اليمانية تتراخى في معونة أبي الخطار في الحرب لانها لا تريد الآن محاربة أبناء قومها ، خاصة وانهم سيرون أن الامارة ستنتقل من يماني الى يماني آخر[3] •

وبعد عقد التحالف والمناداة بامارة ثوابة ، خرج أبو الخطار لمحاربة الثائرين عليه لكنهم هزموه في شذونة ورفعوا لسدة الامارة في قرطبة ثوابة ابن سلامه في رجب من سنة ١٢٧ هـ / نيسان ٧٤٥ م ، حيث ظل يحكم أكثر من عام بقليل ، ومن ورائه الصميل حتى توفي •

المرحلة الثانية حكم قيس

توفي ثوابة في المحرم من عام ١٢٩ هـ / فاختلف على وراثته بنو قومه وتنازع على امارة الاندلس كل من ابنه عمرو ويحيى بن حريث ، وتطاول أمد النزاع عدة شهور بقيت الاندلس خلالها دون وال ، ولم يكن بالامكان

---

١ ـ ولهاوزن ، الدولة العربية وسقوطها ، ترجمة العش ١٤٠ ـ ١٤١ •

٢ ـ الاخبار المجموعة ص ٥٦ ـ ٥٧ •

٣ ـ رواية ابن حيان في النفح ، ج٢ ص ٢٣ •

الحرب بين القيسية واليمانية وسيطرة القيسية على الاندلس

تزعم القيسية في هذه الحرب الصميل بن حاتم بن شمر ذي الجوشن • أصله من الكوفة وشمر قاتل الحسين جده ، فلما قامت حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي صاحب الشيعة السبأية وقتل قتلة الحسين بما فيهم شمر ، ارتحل ابنه حاتم والد الصميل الى الشام خوفاً على نفسه ، ودخل الصميل في جند قنسرين ثم ارتحل مع بلج الى الاندلس • وقد توصل بدهائه ومناقبه لتزعم القبائل العربية • ويصوّره لنا من ترجموا له شخصاً يمثل الانسان العربي الجاهلي أصدق تمثيل • فقد كان كريماً الى أبعد الحدود حتى أن شاعره كان لا يزوره أكثر من مرة في العام خشية نفاد ماله لضخامة ما كان يهب • وكان مستخفاً بالدين يشرب الخمر • لكنه كان شـديد الاعتزاز والفخر بعروبته ، وقد استمع ذات يوم الى معلم يقرىء الصبية قوله تعالى سورة ٣/١٣٤ : « وتلك الايام نداولها بين الناس » ، فوقف الصميل ونادى المعلم وقال له : « وتلك الايام نداولها بين العرب » ولما أجابه المعلم بأن الآية الكريمة هكذا نزلت قال : « ما أرى والله الاّ انه سيشركنا في هـــذا الامر العبيد والاراذل والسفلة » • وكان أيضاً أمياً الاّ انه دمثا لطيف المعشر شهد له بذلك عبد الرحمن الداخل[1] •

واستطاع الصميل أن يصل بقومه القيسيين وتحت زعامته لتسيير شؤون الحكم في منذ سنة ١٢٨ حتى ١٣٨ هـ أي العام الذي دخل فيه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، وكان ذلك على مرحلتين :

١ ـ المرحلة الاولى : اسقاط قبيلة كلب عن الحكم :

كان على الصميل بن حاتم في سعيه للقضاء على حكم أعداء قبيلته ، أن يعالج أمراً غاية في الاهمية ، وهو أن القيسية في الاندلس تعتبر أقلية بالنسبة لليمانية ، وقد توصل لحل بارع في هذا المجال ، اذ لجأ في أول الامر لرص

١ ـ افتتاح الاندلس ، ص ٦٣ •

التوجه الى العاصمة أو المركز ودعوته للتدخل ، لان الدولة الاموية في تلك الفترة كانت تمر بمرحلة النزع ، وقد لجأ الصميل لابتكار حل مستوحى مما حدث في ولايات المشرق سابقاً في الفترة التي أعقبت حكم يزيد حيث كانت القبائل المتنافسة حسماً للنزاع الذي ينشب بينها على الامارة ، تعين أميراً قرشياً بوصفه فوق الاحزاب المتناحرة • وفي هذا الحل ما يتناسب مع أمل الصميل اذ يبعد اليمانيين عن الحكم نهائياً في الاندلس • أضف الى ذلك أن يوسف الفهري وهو من أحفاد عقبة بن نافع ومن قريش الظواهر ، كان شخصاً طاعناً في السن ويبلغ السابعة والخمسين من العمر في سنة تعيينه ، كما انه غير ذي خبرة في الحكم ، اذ كان قبل تعيينه معتزلا للناس على شيمة أصحاب الخير الاطهار ، ولهذين السببين كان سهل الادارة والتسيير من قبل الصميل[1] •

الحرب بين القيسية واليمانية

أصبحت القيسية الآن هي الحاكمة ، وبقي عليها تصفية حساباتها والأخذ بثاراتها من اليمانية ، وقام الصميل بتوفير الفرصة • فقد عمل أثناء محاولاته لتعيين الفهري أميراً على عدم دفع خصومه وخاصة جذام الى حافة اليأس التي ربما أدت بها للمجازفة بامتشاق الحسام وافساد خططه ، ولذا أرضاها باعطاء يحيى بن حريث كورة ريّه • وعندما استتب الأمر لواليه تماماً نزعها منه •

أدى هذا العمل الى تآلف القبائل اليمانية كلها وتوحيد كلمتها ضد القيسيين ، فقامت جماعة من قضاعة بمهاجمة السجن حيث كان أبو الخطار مسجوناً منذ هزيمته أمام التحالف بين جذام ولخم وقيس • ثم اتفقت الاطراف اليمانية على محاربة الصميل والفهري ، وتنازل الكلبيون لجذام عن حقهم في الحكم ووافقوا على أن يلي الأمر في الاندلس بعد هزيمة الاعداء يحيى بن حريث •

---

١ ـ أنظر ترجمته في الحلة السيراء ، ج٢ ، ص ٣٤٧ ـ ٣٥٠ •

حدثت المعركة بين معسكري الخصمين على نهر قرطبة في قرية شقندة، وكان الجيشان متقاربين عدديا وان كانت اليمانية أكثر قليلا ، وبعد معارك دامت طيلة نهار كامل أنهكت فيهـا قوى الطرفين دون الوصول الى أيـة نتيجة • بعث الفهري بناء على نصيحة الصميل يستنجد بجيشه الثاني وهو عوام قرطبة وأهل الاسواق فيها فجاءه منهم حوالي أربعمائة شخص كان لهم رغم قلة عددهم أثر كبير ، اذ وصلوا الى قوم موتى (من شدة التعب) حسب تعبير صاحب أخبار مجموعة • واستطاعوا أن يحوّلوا دفة النصر لجانب القيسيين الذين قتلوا وأسروا أعداداً كبيرة من أعدائهم • وكان في عداد الاسرى أبو الخطار ويحيى بن حريث فقتلا ، وحمـل الصميل بقية الاسرى معه فأدخلهم الى قرطبة ووضعهم أمام كنيسة سان فيسينتو (التي أقيم عليها المسجد الجامع) ، حيث نصب من نفسه ضدهم مدعياً وقاضياً وجلاداً فقتل منهم حوالي السبعين ، وكان يهم بقتل المزيد لولا تدخل بعض الزعماء القيسيين من أمثال أبي عطاء •

استقر الأمر نهائياً بعد ذلك للقيسيين ، وساعد في اخضاع الناس لهم ، ذلك القحط الذي جعل الناس ينهمكون في أمر تدبير لقمة العيش • ولـم يحدث خلال هذه الفترة من الامور الجديرة بالاهتمام سوى أن الفهري الذي كان له الاسم ضاق ذرعا بتسلط الصميل الذي كان له الرسم فأبعده عن قرطبة وعينه أميراً على سرقسطة • وقد قبل الصميل هذه الولاية لاسباب لم يتفق عليها المؤرخون العرب القدماء فبعضهم قال : انـه قبلها لأنها أقل محلاً من غيرها في هذه السنوات العجاف التي مرت على الاندلس والبعض رأى انه قبلها لأنها تعج باليمانية وتتوفر له بذلك فرصة التنكيل بهم وارواء غلة انتقامه •

بعد انقضاء سنوات المحل ، عادت النضرة والحياة الى الارض وعادت معهما الى النفوس أهواؤها ونزعاتها • فتذكرت اليمانية سيادتها المفقودة على الاندلس رغم أكثريتها العددية • فنشطت للعمل وتهيأت لها دعامتان معنويتان

قويتان أولاهما الثورة باسم الخليفة العباسي الذي انتصر في المشرق وأصبح سيد ديار الاسلام ، وثانيتهما معارضة الفهري بقرشي آخر انبل منه محتداً هو عامر بن عمرو القرشي العبدري من قريش البطاح لا من قريش الظواهر كالفهري ، كما أن أحد أجداده كان أخاً لصاحب لواء الرسول صلى الله عليه وسلم يوم بدر وأحد • وقد شك فيه يوسف وحاول قتله فهرب الى الشمال حيث انضم اليه اليمانية والبربر مع بعض القواد العرب المشهورين كالحبحاب بن رواحة[1] •

ضرب الثائرون الحصار على سرقسطة للقضاء على الصميل الرأس المدبر والمحرك للأمور رغم بعده عن قرطبة ، لان الدلائل كلها تشير الى أن الفهري كان يستشيره في أموره الكبير منها والصغير • وضاق الأمر بالصميل المحاصر فطلب النجدة من يوسف لكن هذا كان عاجزاً عن امداده لضعف أمره داخل قرطبة حتى انه « لم يعد يخرج الا في حوالي خمسين شخصاً »[2] • فاضطر الصميل للاستنجاد بالقيسيين الذين أنجدوه بكل فروعهم ، وكان الموالي الامويون ضمن النجدة القيسية التي وصلت الى سرقسطة وفكت عنها الحصار وبينهم كان مولى أموي حديث العهد جداً بالاندلس ، وهو المولى بدر مولى الامير الاموي عبد الرحمن الذي فر من المشرق خشية على عنقه أن تطوله سيوف العباسيين ، وأقام على الشاطيء الآخر من المضيق ومن هناك كان يدبر لانشاء امارة لنفسه على أرض الاندلس يعوض فيها ما فقده آله في المشرق ، وكان المولى بدر مكلفاً من قبله بالقيام بعملية الاستطلاع واجراء الاتصالات مع الاشخاص الذين توسم الامير فيهم قبول تقديم المعونة لتحقيق غايته •

---

١ ـ الحلة السيراء ، ج٢ ص ٣٤٤ ـ ٣٤٦ •

٢ ـ ابن عذاري ، ج٢ ص ٢٦ ـ ٧ ، الاخبار المجموعة ، ص١ ٦٢ •

بداية العصيان في الشمال

استسلمت اثر الفتح الاسلامي للأندلس أغلبية الطبقة العليا في المجتمع من نبلاء ورجال الكنيسة لكن قلة من أفراد هذه الطبقة ركنت الى الفرار ، لخوف بعضهم على دينهم من هؤلاء الفاتحين المختلفين عنهم في الدين وذلك قبل أن تتهيأ لهم الفرصة لمعرفة تسامحهم الديني فحملوا معهم بقايا قديسيهم، كما هرب البعض خوفاً على حياتهم التي يهددها أبناء جلدتهم أكثر مما يهددها الفاتحون ، لأن الفتح حصل اثر نزاع داخلي بين حزبين ، لجأ المهزوم الى العرب ودخل في ركابهم ولابد له من الانتقام • وقد تفرق الهاربون في أماكن شتى ومتباعدة • فالبعض وصل الى ضفاف الرين والبعض استقر في غاليا • لكن القسم الأكبر أقام في المنطقة الجبلية الشمالية محتمياً بوديانها الوعرة أو مرتفعاتها الشاهقة ومختلطاً بسكانها الجبليين وبأهل السهول المجاورة الذين ارتقوا هذه المعاقل الجبلية للاعتصام بها • وتكونت نتيجة لذلك مراكز متعددة خارجة عن سلطة أمير قرطبة • ومع الزمن تضخمت بعض هـذه المراكز وقويت فابتلعت ما يجاورها وأسست دولاً[1] ، استفادت من فترات الضعف المختلفة التي كانت تصيب الدولة الاسلامية في الاندلس خلال القرون الثلاثة الاولى التي تلت الفتح ، لتقوى وتتوطد • ومن ثم باشرت في القرن الخامس الهجـري الحرب التـي سميت حرب الاسـترداد (La Reconquista) بعد تجزؤ الدولة الاسلامية وتطاول أمد هذه الحروب حتى أواخر القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر ميلادي حين انهيت السيادة العربية الاسلامية على أرض شبه الجزيرة الايبيرية •

عصيان اشتوريش

اشتهر من هذه المراكز بعيد الفتح مباشرة مركز يتكوّن من القرى الجبلية في الشواهق الوعرة المعروفة باسـم Picos de Eoropa الواقعة في

---

١ ـ Perez de Urbel, primeros Contactos ..., Arbor, abril, 1953, pp. 503 - 504.

ولاية اوبيدو الحالية ، واستعصى هذا المركز على كل محاولات الاخضاع التي قام بها أول الامر بعض الامراء في عصر الولاة كما انه كان بعيداً عن خطوط الاتصال الكبرى الموجودة في شبه الجزيرة منذ العصر الروماني .

تعود الاخبار المتعلقة بهذا المركز الى أيام الوالي عنبسة بن سحيم الكلبي (من صفر ١٠٣ الى شعبان من سنة ١٠٧ هـ / آب ٧٢١ـكانون الثاني ٧٢٦ م) اذ يذكر ابن حيان انه في عهد هذا الوالي « قام العلج الخبيث المدعو بلاي » والتي تدعوه الروايات المسيحية باسم Pelayo ويستفاد منها انه أحد النبلاء القوط الذين اضطهدهم غيطشة ثم أكرمه لذريق ، وكان بين الهاربين الى اشتوريش مع أخته ، ثم قام والي خيخون المسمى مونوسة بنفيه مع الرهائن الى قرطبة وذلك طمعاً بالزواج من اخته . لكن بيلايو هرب من جديد وعارض في زواج اخته واضطرته المعارضة للهرب الى الجبال حيث بدأ بالتحريض ضد المسلمين .

وتذكر رواية ابن حيان ان هذا العلج « عاب على العلوج طول الفرار وأذكى قرائحهم حتى سما بهم الى طلب الثأر ودافع عن أرضه ومن وقته أخذ نصارى الاندلس في مدافعة المسلمين عما بقي بأيديهم من أرضهم والحماية عن حريمهم « وقد كانوا لا يطمعون من قبل بذلك » فهي بهذا تشير بصورة عامة الى الاصطدام مع المسلمين لكن الروايات المسيحية تعطي تفصيلا أكثر فتسرد خبر قيام حملة برئاسة أحد القواد المسلمين ، فتمركز لمجابهتها جماعة من أنصار بلاي الاشداء في مغارة كاباادونغا Cavadonga ، التي تدعوها الرواية الاسلامية باسم صخرة بلاي وكمنت للحملة في واد مجاور ضيق ثم هاجمتها واضطرتها للانسحاب[٣] . وأثناء الانسحاب مر المسلمون بمكان تكثر فيه الانهيارات الصخرية كنتيجة لتكوين تربته فدفن بعضهم تحت هذه

---

١ ـ المقري رواية ابن حيان ، ج١ ص ١٥ .

٢ ـ انظر عن أصل بلاي : R. Dozy, Recherches ... T.I, P 100.

٣ ـ R. Menendez pidal. El Rey Rodrigo... en B.R.A.E. XI. 1924.

الانهيارات . وهـذا الاصطدام كان أول اصطدام نجح فيه المسيحيون في صد هجمة اسلامية بعد موقعة وادي لكُه ، وبذلك انتعشت الآمال في نفوس جميع المعتصمين بالمعاقل منهم بامكانية حفاظهم على الحياة خارج حدود طاعة أمراء قرطبة المسلمين . ولم يلبث هذا الاصطدام أن البس ثوب المعجزة فعزته الاخبار الى تدخل قوة الهية ، فالعذراء جعلت سهام المسلمين ترتد الى نحورهم وعنـدما هرب بعض المسـلمين الى سفح الجبـل الثاني انهار عليهم بارادة الرب[1] » .

وقوي شأن عصيان بيلايو عندما قام المسلمون بحملة أخرى وذلك في عهد عقبـة بن الحجاج (شوال ١١٦ - صفر ١٢٣ هـ / تشـرين ثاني ٧٣٤ - كانون الثاني ٧٤١ م) ، وكانوا قد أصيبوا بكارثة بواتيه وقلت الهجمات على غاليا ، فوجّه الوالي همه لتطهير مراكز العصيان في الشمال وأحرز نجاحاً في كل هذه المناطق عـدا منطقة الصخرة « فافتتح جليقية وبامبلونا وأسكنها المسلمين ، وعمّت فتوحاته جليقية كلها عدا الصخرة فانه لجأ اليها بلاي وكان بها ثلاثمائة رجل فما زالوا يضيقون عليهم حتى صاروا ثلاثين رجلاً وحتى فنيت أزودتهم ولم يتقوتوا الا بعسل يجدونه في خروق الصخرة وأعيا المسلمين أمرهم فتركوهم وقالوا : ثلاثون علجاً ما عسى أن يجيء منهم »[2] .

توسع سلطان قادة العصيان

انشغل المسلمون بعد هذه الحادثة بالصراع الداخلي فيما بينهم ولم يعيروا العصاة في اشتوريش انتباهاً ، ومن المعلوم أن الثورة البربرية التي بدأت بها سلسلة المنازعات الداخلية قد اندلعت بعد عهد عقبة بن الحجاج مباشرة . وكان للنزاع الداخلي أثر مفيد جداً للعصاة ، فعدا عن اشغاله للمسلمين عنهم ، انتهت الثورة البربرية بالفشل ونكّل بهم العرب ، ثم تعاقبت عليهم سنوات

---

١ - Primera Crónica General : Tomo II, P. 573.

٢ - ابن عذاري ، ج٢ ص ٢٩ .

جدب ، فعاد قسم كبير منهم الى مواطنهم الاولى في شمال افريقيا وتركوا مواطنهم في الاندلس شبه خالية وكانت هذه كما رأينا في الشمال أي في الاراضي المجاورة لمركز العصاة ، وهذا ما سمح لهؤلاء بالتوسع في الفترة التي تزعّمهم فيها الفونسو الكاثوليكي ٧٣٩ - ٧٥٧ / ١٢١/١٣٩ هـ • وقام هذا ببسط سلطانه على الاراضي المجاورة له في الشرق والمنطقة الساحلية من غاليسيا في الغرب ومدينة ليون في الجنوب • أما سلطان المسلمين فقد انحسر نحو الجنوب عـلى خط يبدأ في الغرب عند مدينة قلمرية ويمتد باتجاه الشرق فيمرّ على طلبيرة وطليطلة على نهر التاجو • ثم وادي هناريس Henares ثم تطيلة Tudela على وادي ابره Ebro • وبامبلونا في وادي أراغون • وبين هذا الخط وبين المدن والمواقـع التي يسيطر عليها عصـاة اشتوريش بقيت منطقة واسعة قليلة السكان اتخذها كل من الطرفين طريقاً ينفذ منه لغزو أراضي الجانب الآخر[1] •

1 Aguado Peley, Historia de España, T.I. P. 477-478.

الفصل الثالث

عبد الرحمن الداخل وتأسيس الامارة الأموية في الأندلس

١٣٨ ـ ١٧٢

نظرة واحدة على الاحداث التي جرت في الاندلس خلال عصر الولاة تكفي للدلالة على أن سيطرة الخلافة الاموية على هذه البلاد لم تكن أكثر من اسمية محضة • اذ لم يصب في بيت مال الامويين شيء من جبايتها وكثير من الولاة قتلوا أو عزلوا دون أمر منها ، وآخرون تسلموا الولاية دون استشارتها ، وجرت أحداث عديدة دون علمها ، وأخيراً جاء انتقال عرش الخلافة من الاسرة الاموية الى العباسية ليسير في هذه السبيل الى نهايته وبهذا الاتجاه الى ذروته ، اذ تخرج الاندلس ثم المغرب الاسلامي باسره رسمياً من قبضة الخلافة •

حينما كانت الدولة الاموية في المشرق تتهاوى تحت ضربات العباسيين، كانت الاندلس ـ كما رأينا قبلا ـ تخضع صورياً ليوسف الفهري واليها الاسمي وللصميل الذي يدير الفهري كما يشاء فعلياً • ومهما يكن من أمر فقد كان الاثنان ينتميان الى قيس وقبائلها التي تعتبر أقلية في الاندلس بالنسبة للقحطانية التي تؤلف قبائلها أكثرية العرب النازلين في هذه البلاد ، وقد اضطرمت نيران الحرب الاهلية بين قيس ويمن ، وكل فريق يبذل

أعز ما لديه كي يحرز النصر فيها ، ولكن لا ليهبه للخليفة وانما كي يستثمره ويجني ثمراته أبناء قومه •

لكن تطور الاحداث فيما بعد قاد الامور الى نتيجة لم يكن بامكان أحد التنبؤ بها ، وهي أن السيطرة على الاندلس لم تكن من نصيب أي فريق من المتنازعين عليها ، وانما نالها شاب غريب وبعيد كان يقطن في بلاد الشام مقر أسرته الاموية التي كانت بيدها خلافة المسلمين ومقاليد أمورهم •

هذا الشاب هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي نجا باعجوبة من سيوف جلادي بني العباس ، وحظي بالسلامة في شمال افريقيا ، ثم أحرز المجد في الاندلس حينما أسس لاسرته امارة مستقلة عن الخلافة في المشرق ، التي أصبحت بأيدي بني العباس • وبذلك دشن عهد الانقسام في الدولة الاسلامية ، لان الامارة الاموية في الاندلس ، كانت أول مقاطعة اسلامية خرجت عن سلطة الخلافة وهي الرئاسة الدينية والدنيوية للمسلمين •

عبد الرحمن وهربه من بلاد الشام

ولد عبد الرحمن بن معاوية حفيد الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك في دير حسينه قرب دمشق أو في العليا قرب تدمر عام ١١٣ هـ / ٧٣١ م[١] • مات والده معاوية وهو صغير فتولى تربيته وتربية اخوته جده الخليفة هشام بن عبد الملك • أما أمه فكانت جارية بربرية من قبيلة نفره تسمى « راح » ، ولم يكن قد بلغ بعد العشرين من العمر عندما سقطت الدولة الاموية ، واضطر كثير من أبناء الاسرة الاموية الى التواري عن الانظار ، عندما انقلب الامر على يد عبد الله بن علي العباسي ، والي أبي العباس على سورية ، من قضاء على الدولة الاموية ، الى ابادة لكل أموي •

---

١ ـ رواية ابن حيان في النفح ، ج٤ ص ٤٨ •

وتقص علينا المراجع القديمة قصة هرب عبد الرحمن من سورية بشكل يقرب من الاساطير ومؤداها أن العباسيين اكتشفوا مخبأ عائلته الأول وقتلوا أخاه يحيى ، أما هو فقد استطاع الفرار مع أختيه وأخيه الاصغر وابنه سليمان الى قرية لهم على شاطىء الفرات ، لكن الرايات السوداء لم تلبث أن داهمتهم من جديد . ومرة أخرى ولّى هارباً مع أخيه الاصغر الذي يبلغ الثالثة عشرة من العمر ، بعد أن طلب من أختيه أن تلحقا به مولاه بدراً . ولما كان العباسيون قد سدّوا عليه منافذ الهرب لم يجد مع أخيه مناصاً من القاء نفسيهما في ماء الفرات . وبعد أن شعر المطاردون بافلات طريدتهم عمدوا الى الحيلة فطلبوا منهما أن يعودا الى الشاطىء ووعدوهما الا يمسّوهما بأذى . ولم يعر عبد الرحمن ، الذي عبر نصف النهر هذا الوعد اهتماماً وتابع سباحته نحو الشاطىء الآخر ، لكن الاخ الصغير الذي عجز عن مغالبة التيار ولم يقطع من النهر الا قليلاً رجع . وتناسى الجند العباسي وعدهم له بالامان فقتلوه على مرأى من أخيه[1] . وصل عبد الرحمن سالماً الى الضفة الاخرى للفرات وبعد أن اختبأ مدة أربعة أشهر في قنسرين[2] توجه نحو فلسطين ومنها الى مصر ، حيث وافاه بدر مولاه ومعه بعض المال وكمية من الاحجار الثمينة من أختيه . وبعد ذلك وافاه مولاه الثاني سالم ، واتجه الثلاثة بعد ذلك الى افريقيا .

تعلّل بعض الروايات اتجاه عبد الرحمن نحو شمال افريقيا بقرابة الخؤولة التي تربطه مع قبيلة نفزه البربرية ، ونرى أن هذا العامل لم يكن له أهمية البتة ذلك لأنه لم يقم كل وقته لدى هذه القبيلة ولم يتوجه اليها رأساً ، ونرجح أن يكون الموجّه له نحو افريقيا كون هذا الاتجاه هو الاتجاه الوحيد له ، ذلك ان الهاربين من سطوة الدولة يبتعدون عن مركزها الى

---

١ ـ الاخبار المجموعة ص ٤٦ ـ ٥٦ .

٢ ـ علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الاندلسي ، جمهرة انساب العرب ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٣٢٨ . وسنشير اليه فيما بعد باسم « الجمهرة » .

أطرافها ولما كان طرف الدولة الشرقي منبع الثورة المعادية للامويين لذا لم يبق الا الجناح الغربي • وفي الواقع نرى أن السير في هذا الاتجاه لم يكن مقصوراً علـى عبد الرحمن وحده بل كان طريق أكثريـة الهاربين من الامويين ، الذين تبعثروا في كل مكان منه ووصلوا الى أقاصيه ، حتى شاعت فكرة مؤداها أن قسماً من هؤلاء توغلوا في افريقيا أكثر نحو الجنوب وأقاموا بين السودان عقب محنتهم[١] • اجتاز عبد الرحمن برقة وأقام أمداً في افريقيا الا انه ما لبث أن وجد الخطر يتهدده من جديد لا من العباسيين وانما من سميه أمير القيروان عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، ويعلل بعض المؤرخين القدماء ويتبعهم بعض المحدثين ان أمير افريقيا همّ بقتل عبد الرحمن نتيجة نبوءة تنبأ بها أحد اليهود[٢] مفادها أن ملك افريقيا ينتقل الى شاب اسمه عبد الرحمن له ضفيرتان • وكان عبد الرحمن بن حبيب الفهري قد أرسل ضفيرتين رجاء أن يكون هو ، ولما ظهر له عبد الرحمن همّ بقتله فهرب • ومن الواضح أن هذه القصة اسطورية ، لأن « أمـير افريقيا لـم يحاول الاعتداء على عبد الرحمن فقط بل قتل بعض الامويين وغلب البعض الآخر على أموالهم ومحارمهم واذا أخذنا بعين الاعتبار ، ماضيه في التخاصم مـع الشاميين وقيامه بدور بارز في اثارة الفتن في الاندلس خلال عصر الولاة ، لرجح لدينا انه كان يرغب في اقامة حكم مستقل له في شمال افريقيا وخشي منافسة الامويين ، اذ انهم أبناء ملوك وأقدر منه عـلى جمع الناس حـول دعوتهم[٣] • أما قضية التنبؤ لعبد الرحمن بملك المغرب فيجب النظر اليها على انها فاتحة قصص التنبؤات التي سنراها فيما بعد تحاك لكل مؤسسي الدول التي ستنشأ في المغرب ، اذ يندر ، حسب ما يورده هؤلاء المؤرخون ،

---

١ ـ أبو عبيد البكري المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب ، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك تحقيق De Slane ، الجزائر ١٨٥٧ ، ص ١١ • وسنكتفي بالاشارة اليه فيما بعد باسم المؤلف « البكري » •

٢ ـ الاخبار المجموعة ص ٥٤ ـ ٥٥ •

٣ ـ أنظر ترجمته في : الضبّي ، ت ١٠٠٦ ، والحلة السيراء ، ج٢ ص ٣٤١ ـ ٣٤٢ •

أن يؤسس واحد من هؤلاء دولة دون أن يكون لقيه قبل ذلك عرّاف أو زاهد أو متصوّف وتنبأ له بأنه سينشىء دولة كذا بعد قتل فلان وفلان ...

غادر عبد الرحمن بعد ذلك ولاية افريقيا فأقام مدة ثم نزل على قبيلة مكناسة وأخيراً حط عصا الترحال بين أفراد قبيلة نفزة ثم تركها ليعيش في مناطق العدوة في كنف قوم من مليلة[1] ، ومن هناك بدأ يرنو بأبصاره نحو الاندلس . ويمكن أن نعلّل اتجاه تفكيره نحو اقامة دولة لنفسه في هذه البلاد بحالتها في ذلك الوقت . فقد كانت غارقة في حمأة النزاع القبلي بين قيس ويمن على السلطة ومن شأن الفوضى المتولّدة عن التطاحن والنزاع ، أن تغري كل مغامر طموح بالادلاء بدلوه واختبار حظه ولا سيما اذا كان من أمثال عبد الرحمن له قوّة يمكن أن تعمل لحسابه داخل هذه البلاد ، فقد كان في الاندلس عدد كبير من موالي الامويين منهم خمسمائة أتوا في طالعة بلج وحدها ، ولا ريب أنه قد سبقهم اليها عدد ولحق بهم بعد ذلك عدد آخر . ومن الممكن أن يؤلف هؤلاء الموالي عصبية خاصة لعبد الرحمن مستعدّة للتضحية في سبيل ايصاله للحكم ، نظراً لأن رابطة الولاء في ذلك الزمن كانت قريبة من الرابطة العائلية ، وطريقة الحكم في تلك الايام لم تكن تقصر خيرات الملك وثمراته على العاهل وحده بل تجعلها تفيض على أيدي أبناء عائلته وأقربائه أيضاً . أما معرفة عبد الرحمن بشؤون الاندلس فربما كان مديناً بها أو ببعضها لمولاه سالم أبي شجاع . الذي دخل الاندلس مع موسى بن نصير أو بعده وغزا مع بعض صوائف الاندلس[2] .

دعوة عبد الرحمن في الاندلس

العصبيات في الاندلس : يمكن الاستنتاج من أحداث عصر الولاة ، أن العصبيات ذات الشأن في الاندلس خلال تلك الفترة ، كانت عصبية القيسيين

---

١ ـ ابن الخطيب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، مخطوط الاسكوريال ، ورقة ١٢٩ .

٢ ـ الأخبار المجموعة ، ص ٥٥ ـ ٥٦ .

واليمانيين ، ويلحق بكل واحـدة منهما عصبية أقل شأناً فالبربر كانوا عـلى الاغلب حلفاء لليمانيين • أما موالي الامويين فرغم كونهم جمرة الا أنهم كانـوا يقفون الى جانب القيسية في أغلب الاحيان نظراً لقرابـة الامويين وقريش للقيسية •

الاتصال بالقيسية وفشل الاتفاق معها :

اتبع عبد الرحمن طريقة منطقية في اتصالاته ، اذ اتصل بزعماء الموالي الامويين وقام هؤلاء بعد ذلك بالاتصال بزعماء باقي العصبيات • وهكـذا وصل المولى بدر يحمل رسالة من عبد الرحمن الى الاندلس أواخر عام ١٣٦ هـ / ٧٥٤ م ، واجتمع بزعيمي الموالي في جند دمشق النازل في البيرة وهما عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد فسلمهما الرسالة ، وفيها يشكو عبد الرحمن سوء حاله ويعظّم حقه عـلى موالي الامويين ويطلب منهم حمايته ، ثم يسألهم فيما اذا كان هناك سبيل لطلب سلطان الاندلس ويمنيهم بالحالة التي يصلون اليها آنذاك[١] • اتصل زعيما الموالي في جند دمشق بعد ذلك بيوسف بن بخت زعيم الموالي في جند قنسرين • وقرّ رأي الجميع على الاتصال بالقيسية ممثلة بالصميل • وكان يحدوهما أمل بقبوله لهذه الدعوة ، ذلك لأنه رغم كون الحكم في يد القيسية ، لكن الفهري كان قد حاول في هذه الفترة التخلّص من وصاية الصميل فجعله أميراً على سرقسطة وعندما حاصرته اليمانية تقاعس الفهري عن نجدته • ولكي يقدم هـؤلاء الموالي يداً للصميل انخرطوا في صفوف الجيش القيسي الذي تجمّع لنصرته ومن ثم نجح في فك الحصار عنه • وكانوا مع المولى بدر من جملة من نالوا عطاياه كمكافأة • ثم عرضوا عليه أمر عبد الرحمن مدعين أن موقفه منه سيحدّد موقفهم ، فان قبل مساعدته كانوا معه وان امتنع كفّوا عن عرض أمره • ولم يجب بشيء أول الامر وبعد زمن عادوا لسؤاله فأعلن موافقته

---

١ ــ الاخبار المجموعة ، ص ٦٧ •

معلناً انه « حقيق بنصره حقيق بالامر » . لكنه عاد فتراجع عن وعده بسرعة وعاد لابلاغهم موقفه الجديد مهدداً انه اذ جاء عبد الرحمن فان أول سيف سيشهر عليه سيكون سيفه . ويعود سبب تراجعه الى أن الصميل الزعيم القبلي كان يلائمه نوع الحكم السائد في الاندلس وهو حكم القبيلة . أما عبد الرحمن فهو من أسرة تعوّدت على الحكم وجعلت القبائل وزعماءها أدوات في خدمتها وقد عبّر عن فكرته هذه في ردّه لزعماء الموالي بقوله « لما فارقتكم رويت فيه ووجدته من قوم لو بال أحدهم في هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بوله » .

الاتصال باليمانية

فشلت جهود الموالي التي استمرت ما يقرب من سنة في ضم القيسية ممثلة بالصميل لعبد الرحمن . وكان عليهم بعد ذلك اما أن يطلبوا من عبد عبد الرحمن عدم التفكير بالسلطة أو الاتصال بالحزب الثاني البعيد عنهم وهو حزب اليمانية . واختاروا الأمر الاخير فوجدوا قبولا لانهم « ألفوا قوماً قد وغرت صدورهم يتمنون شيئاً يجدون به سبيلا الى طلب ثأرهم من القيسية ورغبوا في عقد بني أمية بالاندلس »[1] .

نزول عبد الرحمن في الاندلس

بعد تأمين دعم اليمانيـة لعبد الرحمن طلبوا منـه بواسـطة مولاه بدر واحـد كبار المنضمين لدعوتـه المجيء فنزل في مينـاء المنكب (Almunecar الحالية) وهـو ميناء صغير بين المرية في الشرق ومالقة في الغرب في اليوم الاول من ربيع الاول عام ١٣٨ هـ[2] / ١٤ آب ٧٥٥ م . ويظهر أن نزوله كان موقتاً ليستفيد مـن ظروف مناسبة ، اذ أن الفهري في هذا التاريخ كان قد اتجه لسرقسطة لأن اليمانيـة وزعماء حركتهم في

---

١ ـ الأخبار المجموعة ، ص ٧٤ .
٢ ـ الحلة السيراء ، ج ١ ص ٣٥ .

الشمال عادوا اليها مرّة ثانيـة بعد فك حصارهم الاول وخروج الصميل منها ، كما أن البشكنش من نصارى الشمال عادوا لمهاجمة الحدود الاسلامية، فكان على الفهري أن يهتم برد هجماتهم بعد الفراغ من أمر سرقسطة أي أن بقاءه في الشمال سيطول أمده •

وصول عبد الرحمن للحكم

بين نزول عبد الرحمن على شاطىء المنكب في شهر ربيع الأول من سنة ١٣٨ هـ وبين معركة المصارة التي انتصر فيها على الفهري في ذي الحجة من نفس العام انقضت حوالي تسعة شهور • كانت الستة الأولى فترة تجميع للقوى لكل من الطرفين ، بينما كانت الشهور الثلاثة الاخيرة فترة تحركات لكل من الخصمين وانتهت بالمعركة الفاصلة •

الفترة الاولى : فترة الاستعداد : من ربيع الى شوال

لم تكن ظروف أي واحد من الخصمين تمكنه من الهجوم على خصمه• فمن ناحية عبد الرحمن لم تكن دعوته قد حظيت الا بوعود التأييد ولا بد من مرور وقت يتجمع فيه أنصاره أو يجمعوا ، وعلى هذا بلغ به الضعف حداً جعله غير قادر عـلى حماية حصن طرّش (Torros الحالية) الذي انتقل اليه بعد نزوله في ميناء المنكب ، ولذا كان يبيت في الجبال في أمكنة غير معروفة خوفاً من المباغتة • كما أن مواليه ردّوا على الفهري ، عندما أرسل لهم يحذّرهم من مغبّة ايواء ومناصرة عبـد الرحمن ، يطمئنونه بقولهم ان حفيد هشام بن عبد الملك أقبل اليهم طالباً لمواريث أجداده من أخماس واقطاعات ولم يأت طالباً للسلطان كما ظن الامير وكما رفع اليه[1]•

أما بالنسبة للفهري فكان عند نزول عبد الرحمن في الشمال لتحقيق غايتين : أولاهما استخلاص سرقسطة من اليمانية الذين سيطروا عليها بقيادة

---

١ ـ ابن عذاري ، ج٢ ص ٤٢ ـ ٤٣ •

عامر بن عمرو القرشي العبدري والحباب الزهري ، والثانية صد البشكنش والجلالقة . وقد نجح في المهمة الاولى لأن أهل سرقسطة خافوا معرّة الجيش وعض الحصار فخضعوا وأسلموا زعيمي الثورة . وتجاه العقوبة التي يجب أن تفرض على الثائرين تجلى الانقسام واضحاً بين أصحاب الفهري . ويعود هذا الانقسام في جذوره الى التنافس على الزعامة بين فروع مجموعة قبائل ربيعة بن عامر بن صعصعة وكانت تكوّن على ما يظهر الكتلة الرئيسية للقيسية في الاندلس ، لأن الزمامة كانت بيد أفراد من قبائلها . ومن فروع هذه المجموعة فرعان كبيران هما كلاب واليها ينتسب الصميل ، وكعب ومنها تتفرع قبائل متعددة منها قشير التي ينتسب اليها بلج بن بشر وعقيل التي برز منها في هذه الفترة الحصين بن دجن العقيلي زعيم هذه القبائل في جيّان مقر جند قنسرين ، وسليمان بن شهاب شيخها في البيرة مقر جند دمشق . وكانت قبائل كعب تطمح لاعادة الزعامة اليها اذ كانت في يدها أيام بلج بن بشر ، ونزعها من يد كلاب التي احتكر شيخها الصميل هذه الزعامة . وتجلّت المنافسة بينهما في مناسبات متعددة كان آخرها اتخاذ كل طرف منهما موقفاً تجاه العقوبة التي يجب فرضها على زعيمي ثورة سرقسطة ، فقد رأى الصميل شيخ كلاب قتلهما ، ورأى زعيما كعب الحصين بن دجن وسليمان بن شهاب ضرورة استبقائهما أحياء . ونزل يوسف الفهري عند رأيهما .

لكنه بالنسبة للمهة الثانية ، وهي محاربة البشكنش ، أخذ برأي الصميل فأرسل حملة ضدهم بقيادة سليمان بن شهاب ، ووضع معه الحصين ابن دجن على الخيل ، وكانت المهمة خطرة نظراً لتوحش البشكنش وشدّة مراسهم في الحرب اضافة الى وعورة مناطقهم[1] .

وبعد وضع هذه الترتيبات موضع التنفيذ قفل عائداً الى قرطبة ،

---

١ ـ الروض المعطار ، ص ٥٥ ـ ٥٦ .

وعند وادي (Guadarrama حديثاً على بعد خمسين ميلا من طليطلة)، وصله خبران : أولهما هزيمة الحملة أمـــام البَشْكُنْش ومقتل قائدهـا سليمان بن شهاب وتراجع فلول الناجين بقيادة الحصين بن دجن العقيلي • والخبر الثاني نزول عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بشاطىء البيرة •

كان الوقت خريفاً والطقس فيه يمكّن من السير نحو عبد الرحمن والقضاء عليه قبل أن يصلب عود دعوته في الاندلس حسب نصيحة الصميل• لكن أوضاع الجيش لم تكن تسمح بالقيام بمثل هذه الحملة نظراً لتفرقه فقد أضناه التعب بعد السير الطويل ومزّقت الفرقة صفوفه لأن قبائل كعب اعتبرت ارسالها مع قوادها الى تلك الحملة المهلكة ، بمثابة توجيــه لها نحو المذبح وكأنها كانت فخاً ، نصبه الصميل لها ، ليتخلص من منافسة شيوخها له في زعامة القيسية ، وبدا لهم أن يوسف الفهري لا زال خاضعاً له اذ انه بعد مقتل زعيم عقيل لـم يستمر في احترام رغباته ، بل قتل زعيمي ثورة سرقسطة منفذاً بذلك ارادة الصميل أيضاً • أضف الى ذلك ان انتشـار أخبار دعوة عبد الرحمن بين صفوف الجيش كان لـه دوره في الاســرع بانحلال هذا الجيش وتفرقه •

وبعد أن وصل الى قرطبة كان بامكانه جمع جيش ، لكن الشتاء حلّ ولـــم يعد بالامكان القيـــام بحملة الى مركز عبـد الرحمن في منطقـة جبـل الثلج الذي يكفي اســمه للدلالة عـــلى طبيعته في الشتاء • ولكي لا يضيع الوقت حاول أن يستفيد منه في المفاوضة وجس النبض وتكوين فكرة واضحة عن المطالب بحكم الاندلس ، فأرسل اليه رسلا يحملون مقترحات ، وكلّف بعضهم بمهمة « التعرّف على أمره وأي جند عنده وأن يتأمّل أخباره وأخبار من معه » • أما المقترحات فهيأن يتزوج عبد الرحمن بابنة الفهري ويسكن في أي الجندين يختاره جند دمشق في البيرة ، أو جند الاردن في كورة ريّه أو يسكن بينهما على أن يصير اليه أمر الكورتين ، وفي نفس الكتاب الذي تضمّن هذه المقترحات سجّل الفهري قسماً بأن

لعبد الرحمن عهد الله وذمته بألا يغدر به ولا يمكّن منه ابن عمه صاحب افريقيا ولا غيره • واضافة لكل ذلك أرسل الفهري لعبد الرحمن كسونين ومطيتين وخمسمائة دينار[1] • ويبدو من النظر لهذه المقترحات انها مغرية ، لكن الفهري لم يكن مخلصاً في تنفيذها ، ولا تعدو أن تكون خديعة من تدبير الصميل الغاية منها ايقاع عبد الرحمن في شبك الخضوع ومن ثم يتاح له أن يصنع به وبأتباعه ما يشاء • وكان الصميل لا يشك بقبول عبد الرحمن لها فهو كما قال للفهري « حديث عهد بزوال النعمة ؟ فهو يغتنم ما ندعوه اليه ، ثم أنت بعد ذلك متحكم فيه وفي الذين سعوا له بما تحب » •

لكن المفاوضات لم تسفر عن نتيجة ، وتعلل الروايات وصولها لهذه النتيجة اما بسوء تصرف بعض الرسل أو بتبيّن من حول عبد الرحمن من أمويين وعرب مكر الصميل فيها • وبالاضافة لهذا يمكننا أن نضع سبباً آخر وهو شعور عبد الرحمن بضعف موقف الفهري والصميل وذلك بسبب تمزق قوى القيسية التي تدعمه ، بعد انفراط عقد كتلتها الكبرى وهي مجموعة قبائل ربيعة بن عامر بن صعصعة ، وانقسامها الى كتلتين متعاديتين بعد أن كانتا متنافستين • وبفشل المفاوضات أخفق الفهري في الحصول على طاعة عبد الرحمن سلماً ولذا لم يعد هناك من وسيلة أخرى غير الحرب للحصول عليه •

الفترة الثانية : من شوال الى ذي الحجة : فترة التحركات وموقعة المصارة الفاصلة

ظهرت تباشير الربيع في شوال عام ١٣٨ هـ / آذار ٨٥٦ م وبلغ عبد الرحمن بن معاوية تبريز يوسف اليه[2] بعد أن أصبحت حالة الطقس تسمح بذلك • وبما أن أنصار عبد الرحمن من اليمانية كانوا من البلديين المستقرّين في أملاكهم لذا كانوا بحاجة للتجمع ، ولم يكن معه بجواره من الانصار أكثر من ستمائة فارس • ولذا قرّر المسير من مقره للطواف

---

١ ـ ابن عذاري ، ج ٢ ص ٤٥ ـ ٤٦ •

٢ ـ المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٤ ـ ٤٥ •

من جهة على أتباعه وحشدهم ولكي يتهرب من الفهري فيأتيهمن خلاف قصده[١] .

بدأ مسيرته بدخول كورة رية مقر جند الاردن وعاصمتها أرجذونة حيث انضم اليه عربها وبايعوه في مسجدها[٢] ، كما انضمت اليه جموع من بربر المنطقة وجوارها . ومن هؤلاء بنو الخليع القاطنون في كورة تاكرنتا (منطقة رندة Ronda الحالية) وكذلك قبائل مديونة موالي يزيد بن عبد الملكوانضم اليهمنهم زهاء أربعمائةفارس[٣] . ويظهر أنأعداد من انخرطوا في صفوف عبد الرحمن في ريه كان كبيراً ، بالقياس لعدد من انضموا اليه في كور أخرى ، فقد دخل اليها في ستمائة فارس وخرج في الفين ، بينما لم يصل هذا الرقم بعد مرور عبد الرحمن بثلاث كور أخرى غير الف فارس[٤] . وبعد رية تقدم عبد الرحمن نحو شذونة ، مقر جند فلسطين فانضمت اليه اليمانية وقسم من الجند وبنو الياس من بربر مكناسة[٥] ، وبعد ذلك دخل عبد الرحمن موررور ومنها انتقل الى اشبيلية مقر جند حمص فانضمت اليه اليمانية بشاميها وبلديها برئاسة أبي الصباح ، كما وافاه فيها حيوة بن ملامسسيد عرب الغرب (أي عرب المنطقة الواقعةغرب اشبيلية). وفي هذه المدينة عقد لواء عبد الرحمن .

معركة المصارة : يوم الجمعة ١٠ ذي الحجة ١٣٨ هـ / ١٥ أيار ٨٥٦ م

تخلّى الفهري عن فكرة المسير نحو البيرة بعد أن خرج منها عبد الرحمن وتوجه نحو اشبيلية بعد نزول عبد الرحمن فيها سالكاً الضفة الشماليةلنهر الواديالكبير وعندما وصلالى المدوّر Alomodovar del Rio

---

١ ـ الأخبار المجموعة ، ص ٨٣ .

٢ ـ افتتاح الاندلس ، ص ٥٠ .

٣ ـ الجمهرة ، ص ٥٠٠ .

٤ ـ ابن عذاري ، ج ٢ ص ٤٦ . رواية للرازي يسندها الى تمام بن علقمة وهو معاصر كان له دور بارز من أحداث الفترة لجانب عبد الرحمن .

٥ ـ الجمهرة ، ص ٤٩٩ .

خرج عبد الرحمن لملاقاته وسار محاذياً للضفة الجنوبية لنفس النهر والتقى به عندما وصل الى طشانة (Tocina الحديثة) • وفي اليوم الأول من ذي الحجة الذي يقع في شهر أيار وفي الفترة التي تزداد فيها مياه النهر حصلت مناوشات بين الطرفين في اليوم الأول ، ولكن الزيادة الضخمة في مياه النهر جعلت الاتصال بينهما مستحيلا وبقيا متواجهين يفصل بينهما النهر حتى اليوم السادس من الشهر • وبعده أوقد عبد الرحمن نيرانه ليوهم الفهري انه باق في مكانه وسار نحو قرطبة التي يبعد عنها الآن مسافة خمسة وأربعين ميلا • وكان يرمي من وراء ذلك الى غايتين : أولاهما أن قرطبة أصبحت خالية من الحامية وبامكانه احتلالها بسهولة ولا تخفى أهمية احتلال العاصمة من الناحية المعنوية•وثانيتهما انه كان في قرطبة الكثيرون من اليمانية والموالي الامويين والبربر الذين سينضمون اليه حال وصوله•لم يستطع عبد الرحمن تحقيق غايته الاولى اذ اكتشف الفهري خطته ولم يكن قد قطع أكثر من ميل ، ولحق به في اتجاه قرطبة فأصبح الطرفان كفرسي رهان وكل منهما يبغي استباق صاحبه اليها • وأخيراً وصلا معاً الى جوارها فنزل الفهري في موقع المصارة ونزل عبد الرحمن بموقع آخر يواجهه في الجنوب • وفي يوم الخميس التاسع من ذي الحجة نقصت مياه النهر وأصبح بامكان أي واحد منهما أن يعبره لمحاربة الآخر • ورأى عبد الرحمن بعد تهرب طويل من المعركة أن الوقت قد حان لدخولها • فاستلم زمام المبادهة ولم تأت صبيحة اليوم التالي أي الجمعة العاشر من ذي الحجة ، حتى كان جيشه قد عبر النهر ووقعت المعركة بين الطرفين • ولكنها بعد طول الاستعداد لم تدم أكثر من ساعات قليلة انهزم بنتيجتها الفهري والصميل تاركين في ساحة المعركة أعداداً كبيرة من أتباعهما صرعى وبينها ابن لكل منهما[1] •

ساعد عبد الرحمن في احراز هذا النصر بسهولة عدة أمور لعل أهمها:

١ ـ استخدام الحيلة : لقد تكوّن جيش عبد الرحمن تدريجياً وأثناء

---

١ ـ أنظر تفاصيل المعركة في الأخبار المجموعة ص ٨٤ ـ ٩٠ •

سيره من قاعدته في طرّش حتى وصل الى قرطبة في طريق طويل ، وهذا يعني أن القسم الاعظم منه سار مسافات طويلة حتى وصل الى ميدان المعركة منهكاً وقد نفذت أقواته حتى اضطر أفراده للتقوّت بالفول الاخضر • بينما كان جيش الفهري في وضع معاكس ، اذ لم يقطع مسافات طويلة كما عاد الى قاعدته لذا كان الغذاء عنده موفوراً • وقد استخدم عبد الرحمن الحيلة كي يسد لجيشه الجائع هذا النقص في الغذاء ويعوّض الانهاك الذي لحقه بعامل المباغتة للخصم ، تظاهر بالرغبة في السلام مع الفهري وجرى التفاوض للتوصل الى ذلك عشية المعركـة حتى كاد الصلح أن يتم رسمياً فأخرج يوسف الغنم والبقر فذبحت وصنع الطعام للعسكرين وفترت همته وهمة أصحابه في مراقبة جيش الخصم ، فتسلل أفراده عبر النهر ولم يأت الصباح حتى كان الى جانبهم مستعداً لخوض المعركة •

٢ ـ ازدياد عدد أفراد جيشه زيادة مفاجئة عشية يوم المعركة بمن انضم اليه من اليمانية والموالي من قرطبة ثم عرب البيرة وعرب جيان الذين وافوه سحر يوم المعركة[١] ، وهم القسم المنشق منالقيسية من قبائل كعب•

٣ ـ استفادته من العامل النفسي في اثارة التفاؤل بالنصر لدى أصحابه والتطاير والتشاؤم لدى خصومه ، فقد أشيع في كل من المعسكرين قبل بدء المعركة بأنها تشبه معركة مرج راهط فمثلها حدثت بين أموي وفهري ، وتحت لواء الاموي تنضوي اليمانية كما تنضوي أكثرية القيسية تحت لواء الفهري ، ومثلها أيضاً حدثت يوم جمعة •

بيعة عبد الرحمن واستسلام الفهري والصميل

دخل عبد الرحمن قرطبة بعد نصره فصـلى بالناس صلاة الجمعة ووعدهم في خطبته خـيراً ، وتلقى البيعة كأمـير للأندلس ، ولكن الدعاء للخليفة في الخطبة بقي عشرة أشهر بعد ذلك باسم أبي جعفر المنصور ،

---

١ ـ افتتاح الاندلس ، ص ٥٣ •

ولم يلغها عبد الرحمن الا بعد أن هدده أحد أعضاء العائلة الاموية الاثير لديه بالانتحار اذا لم يقطعها[1] • ومع كل ذلك فان دخول عبد الرحمن قرطبة وتقبله للبيعة من الناس لم تكن تعني خضوع الاندلس كلها له ، ذلك أن زعيمي الحكم السابق لم يستسلما بل هرب كل منهما الى مقر عصبيته الفهري الى طليطلة دار الفهريين ، والصميل الى جيان مقر عصبيته ، وجمع الاثنان ما قدرا على جمعه وتحصنا في الجنوب في غرناطة بينما تركا بصورة سرية قوة في شمال قرطبة على رأسها أبو زيد بن يوسف الفهري • وعندما غادر عبد الرحمن قرطبة نحو الجنوب لاخضاعهما في غرناطة • استغل أبو زيد فراغ قرطبة من الحامية فتقدم واحتلها ، الا أن حركة عبد الرحمن السريعة في العودة الى العاصمة أفسدت الخطة واضطر أبو زيد لمغادرتها والانضمام لوالده في غرناطة حيث حاصرهم عبد الرحمن جميعاً • وبعد أمد من الحصار نزلوا على الصلح شريطة أن يحتفظا بأموالهما ومنازلهما وأن يأمن جميع الناس ، وقبل الفهري مقابل ذلك أن يسلم ابنيه أبا زيد عبد الرحمن وأبا الاسود محمد كرهائن لعبد الرحمن يحتفظ بهما في قصره ريثما تهدأ الامور ، وضمنت شروط الصلح في كتاب ثم توقيعه بمحضر من زعماء الامويين وقاضي قرطبة وزعماء الجند من قيسيين ويمانيين • يوم الاربعاء في ٢ ربيع الاول سنة ١٣٩[2] هـ / ٤ آب ٧٥٦ • وأقام الاثنان معه في قرطبة بعد ذلك وكانا يركبان الى القصر كل أسبوع مرة •

---

١ ـ النفح ، ج ٢ ، ص ٥٩ •

٢ ـ ابن الخطيب ، الاحاطة ، مخطوط الاسكوريال ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ وتحتوي على أسماء الشهود •

سياسة عبد الرحمن نحو العصبيات

كان توقع الصميل ، بأن وصول عبد الرحمن للحكم لن يبقي لأحد من الزعماء ولا لأيـة قبيلة من القبائل دوراً في السـيادة ، صائباً • فعبد الرحمن وريث تقاليد أسرة مالكة حاكمة ، ولذا كان يهمه امتلاك السلطة دون اعتبار للسابقين في السلطة أعداء شخصيين ينكل بهم وبقبائلهم كما كان يفعل الزعماء السابقون في عصر الولاة • كمـا انه لم ينظر الى من تبعوه وكوّنوا جنده في الحرب الظافرة التي ارتفع بنتيجتها الى سـدة الحكم ، كشركاء بل كأتباع عليهم أن يخضعوا له خضوع غيرهم • وهذا المفهوم الجديد سبّب انتفاض العصبيات كلها عليه •

العصبية القيسية

دخل عبد الرحمن قرطبة بعد انتصاره في البيرة وعن يمينه ويساره كـل من الفهري والصميل ، وجرياً عـلى سياسته في تأمين طاعة القبائل وسيادتها لا التشفي منها بالغ في اكرام زعيميها ، لدرجة جعلته يسعى لدى قاضيه بالتغاضي عن تجاوزات الفهري السابقة ورد الدعاوى التي أقامها بعض الناس ضد اغتصابه لأملاك لهم[1] • وقد أجدت هذه السياسة مع الصميل لكنها لم تعط أكلها مع الفهري • وربما كان مردّ ذلك الى ترجيح عبـد الرحمن للصميل واطرائه عليه حتى من ناحية الدماثة وأدب المجالسة وهكذا نزل الفهري الى المرتبة الثانية في زعامة هذه العصبية • أضف الى ذلك ان تكاثر الأمويين في الاندلس ، حرم البيوتات الكثيرة الموجودة في قرطبة من موالي بني هاشم وقبائل فهر وقريش من الرفعة التي كانت لهم والمنازل التي كانوا يصيبونها زمن ولاية الفهري ، فصاروا يترددون على الفهري يندّمونه على ما كان عليه • وجرياً على عادته في الانصياع لما يوحيه اليه الآخرون ،

---

١ ـ الأخبار المجموعة ، ص ٩٤ ـ ٩٥ •

هرب من قرطبة وأعلن ثورته في سنة ١٤١ هـ / ٧٥٨ ـ ٥٩ م أي بعد سنتين من خضوعه • الا أن قوته الآن كانت أضعف بكثير عما كانت عليه في السابق ، فقد رفض الجند الذين لم تمس مصالحهم أتباعه ، كما كره الصميل ذلك •

تنقل الفهري بين طليلة وماردة واشبيلية لجمع الاتباع ، واستطاع أن يضم اليه عدا الاطراف التي حرّضته على الثورة بعض القبائل العربية والبربرية الأخرى ممن ألف أفرادها الفوضى وعدم الخضوع للدولة • وتمكن بذلك من حشد جيش تقول الروايات أن عدده بلغ ٢٠ الف محارب، سار بهم باتجاه قرطبة •

كان رد فعل عبد الرحمن قوياً وسريعاً ، فقد سار ضد الثائر جيشان أحدهما من اشبيلية ومورور بقيادة الحاكم الأموي هناك[١] والثاني من قرطبة بقيادة عبد الرحمن ، وحتى لايقع الفهري بين شقي الرحا نتيجة لهجوم الجيشين عليه ، حاول الاجهاز عليها كل واحد على انفراد مبتدئاً بالهجوم على الاضعف وهو جيش المرواني في اشبيلية ، لكنه هزم أمامه واضطر للفرار نحو الشمال ،وعلى بعد أربعة أميال من طليطلة قتل في العام الذي تلا ثورته[٢]•

استغل عبد الرحمن ثورة الفهري لاستئصال شأفة زعماء العصبية القيسية • فعندما بلغه نبأ الثورة سجن ولدي الفهري والصميل الذي حاول اثبات براءته ، بأنه لو كان مذنباً أو مشاركاً ليوسف في الرأي لهرب معه ، أما عبد الرحمن فكان يتعلل بأن الفهري لم يهرب حتى استطلع رأيه ومن حق الامير عليه أن يعلمه • وبعد الانتصار مباشرة قتل عبد الرحمن ابن الفهري أبا زيد واستصغر الآخر أبا الاسود فأبقاه في السجن ، ووجد

---

١ ـ الحلة السيراء ، ج ١ ص ٥٧ •

٢ ـ أنظر الروايات المختلفة عن مقتل يوسف الفهري في ابن عذاري ج٢ ص ٤٩ • وتفاصيل ثورته في الاخبار المجموعة ، ص ٩٥ ـ ٩٩ •

الصميل مخنوقاً في سجنه ، وليس ببعيد عن الحقيقة ما تذكره الروايات بأن الخنق كان بأمر وبتدبير من عبد الرحمن .

استنامت العصبيةالقيسية لعبد الرحمن ، ولم تبدر منقبائلها ضد الداخل سوى ثورتين ،انما كانت للفهريين فقط ، وأخذتا شكلثأر لقتلاهم.قامتالأولى منهما في طليطلة بعد ثلاث سنوات من مقتل يوسف بزعامة هشام بن عروة . وقامت الثانية بعد سبع عشرة سنة بقيادة أبي الاسـود بن يوسف الفهري الذي ادعى العمى ليهرب من السجن ويقوم بالثورة[1] .

العصبية اليمانية

تجلّى نشاط اليمانية في الاندلس خلال عصر الولاة وفي فترة تأسيس الدولة الأموية في الاندلس في منطقتين أولاهما في الجنوب الغربي حيث تقطن قبائل الحضارمة ، وثانيتهما في الشمال الشرقي في سرقسطة حيث برز الانصاريون في المقدمة . ويعود السبب الرئيسي للاصطدام بينهم وبين عبد الرحمن الى أن كلا منهما كان ينظر للتحالف الذي قام بينهما نظرة مناقضة لنظرة الطرف الآخر . فمن ناحيتهم كانوا بعد شقنده يبحثون عن وسيلة لاعلان الثورة على القيسية ثأراً لقتلاهم في شقندة ، ويظهر انهم وجدوا في الوية أسماء مشهورة بحسبها ونسبها واجهات مناسبة للثورة . ففي الشمال حيث اشتد أوار النزاع القبلي مع انتقال الصميل اليها ثاروا تحت لواء أحد القرشيين . وفي الجنوب عندما عرضت عليهم دعـوة عبد الرحمن انضموا اليها أيضاً لأنهم كانوا يريدون شيئاً يدركون به ثأرهم من القيسية . وعبد الرحمن لم يكن بالنسبة لهم أكثر من شيء أو أداة لتحقيق هذه الغاية . أما عبد الرحمن فكان يعتبرهم أداة لايصاله للحكم وبعد وصوله لم يكونوا بالنسبة له أكثر من أتباع له عليهم أن يأتمروا بأمره .

---

١ ـ الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٣٥١ ـ ٣٥٣ .

بدء النزاع مع اليمانية

بدأت بوادر النزاع مع اليمانية منذ الساعات الاولى لخوض المعركة المشتركة ، اذ تجلّت نظرة شيوخ اليمانية اليه على أساس انه ليس الا اسماً لامعاً وما عدا ذلك كان يبدو لشيوخ القبائل الذين يولون السن مكانة عليا شاباً صغيراً لا يستبعد هروبه عند احتدام المعركة ، فتناقلوا فيما بينهم كلاماً هازئاً بهذا المعنى وبلغ ذلك عبد الرحمن فتغاضى عنه .

وبعد الانتصار في المصارة سارع اليمانيون لتحقيق أهدافهم ، وهي الثأر لقتلاهم في شقندة . لكن عبد الرحمن منعهم من ذلك ورد ما نهبوا فرفعوا عقيرتهم بالاحتجاج وادعوا أن ما أملى عليه موقفه هذا عصبيته لقيسيته ، وقال بعضهم لبعض قد فرغنا من أعدائنا من مضر وهذا ومواليه منهم فلنضع فيهم السيف ليصير لنا فتحان في يوم واحد »[1] ، لكن بعضهم رفض ، وهم من أبناء قبائل قضاعة وقد عرفت هــــذه القبائل التي تتزعمها كلب بموالاتها للأمويين منذ فجر دولتهم في المشرق . كما رفض هذه الدعوة قسم منجذام وقد عرفت هذه القبيلة بانفصالها عن المجموعة اليمانية في كثير من أحداث المشرق والمغرب على السواء . ومن هذه القبيلة كان الشريف الذي أحاط عبد الرحمن علماً بأسرار الموقف داخل اليمانية . ومع أن هذا النداء بقي في مجال الدعوة ولم يأخذ طريقه الى التنفيذ ، الا أن عبد الرحمن احتاط للأمر لاتقاء شر حلفائه ، وذلك بتجميع أفراد عصبيته والتعاون عـلى نطاق واسع مع ذلك القسم من اليمانية الذي بقي على ولائه له . فمن ناحيةأفراد عصبيته لم يكتف بذلك السيل الوارد من بني أمية ومواليهم الذين كانوا يفدون على الاندلس منجميع الامكنة التي لجؤوا اليها ، حيث يجدون الأمن لارواحهم والجاه والثروة في ظل قريبهم ، بل أرسل الوفود لاستقدامهم[2].

---

١ ـ الأخبار المجموعة . ص ٨٥ و ٩٠ ـ ٩١ .

٢ ـ الخشني قضاة قرطبة وعلماءافريقية ، تحقيق عزت العطار الحسيني ، القاهرة ١٣٧٣ هـ ، ص ٣١ .

مركز الثورة وقرطبة • وهناك وقعت المعركة الفاصلةالتي هزم فيها الثائرون وقطف الامير عبد الرحمن من رؤوسهم سبعة آلاف رأس كان بينها رأس المغيث ذاته • وقد حمل بعضها الى قرطبة حيث حنّطت ، وكلّف تاجر من القيروان بحملها مع الراية ومع رسالة مفصلة عن المعركة وطرح كل ذلك في سوق القيروان • ويمكن للمرء أن يتخيل آثر فشل هذه الثورة ومنظر رؤوس الجثث على أبي جعفر المنصور من قولــه « الحمد لله الذي وضع البحر حاجزاً بيننا وبين هذا الشيطان »[1] • وبعد أقل من ثلاث سنوات على فشل هذه الثورة قامت ثورة أخرى للانتقام لقتلاها قادها سعيد اليحصبي المعروف بالمطري في لبلة (Huelva حديثاً) وقضى عليهــا الامير عبد الرحمن بسرعة •

قتل أبي الصباح وأثره على اليمانية

كان لأبي الصباح تاريخ حافل مع عبد الرحمن الداخل ، فقد كان على رأس اليمانية الذين بايعوه عندما قدم الى اشبيلية • لكنه بعد ذلك كان المستخفّ الرئيسي به قبيل معركة المصارة • وكان بين اليمانية صاحب الشعار الذي يقول بالقضاء على عبد الرحمن لاحراز فتحين في يوم واحد • وذلك بعد منع عبد الرحمن لليمانيــة من التشفي من أعدائهم القيسيين بعد الانتصار في المصارة • ومع كل ذلك لم يحرّك له عبد الرحمن ساكناً بل حاول على ما يظهر تأليف قلبه فعينه أميراً على اشبيلية • لكنه أثر الثورة الثانية لبني يحصب قبيلة أبي الصباح لم يعد بامكانه الركون اليه ما دام العداء مع هذه القبيلة قد استفحل • فعزله عن ولاية اشبيلية وعندما علم بمكاتبته للأجناد وتهيئته للثورة ، استدرجه الى قصره في قرطبة حيث قتله في نفس العام الذي ثار فيه المطري •

وكان لمقتل أبي الصباح أثر بالغ على موقف اليمانية في هذه المنطقة ،

---

١ ــ انظر تفاصيل المعركة في افتتاح الاندلس ، ٥٧ ــ ٥٨ ، والاخبارالمجموعة ص ١٠١ ــ ١٠٣ •

أما من ناحية الموالي الامويين فقد جعلهم حراسه وأرضاهم باعطائهم الاقطاعات الواسعة حتى كوّنوا في بعض الاماكن نواة مدينة البيرة[1] • ومن ناحية قضاعة قدم لزعمائها الوظائف العليا مثل شرطة قرطبة العاصمة التي عين لها عبد الرحمن بن نعيم الكلبي • كذلك أنزل بني سراج القضاعيين في اقليم بجاية (منطقة المرية) وعهد اليهم بحراسة سواحل اقليمهم هذا ، وأطلق على الاقليم فيما بعد اسم أرْشَ اليمن أي عطيتهم ونحلتهم[2] • وأما زعماء القيسية الذين انضموا اليه قبل معركة المصارة فقد عيّنهم أمراء على أجنادهم وكورها •

الصراع بين اليمانية وعبد الرحمن

جرت أحداث الصراع في منطقتين : في الجنوب الغربي من الاندلس وفي سرقسطة الكائنة في الشمال الشرقي حيث لجأت اليمانية هنا للاتفاق مع الملك الكارولنجي شارلمان ، ولذا سنبحثها مع علاقات دولة عبد الرحمن الخارجية • ونذكر هنا أهم ثورات اليمانية في منطقة الجنوب الغربي •

ثورة العلاء بن مغيث • ـ بعد ثماني سنوات من بيعة عبد الرحمن أي في سنة ١٤٦ هـ / ٧٦٣ م رفع العلاء بن مغيث راية العصيان على عبد الرحمن في مدينة باجة (جنوب البرتغال حالياً) وهي من مراكز جند مصر • ويرد في الروايات أن أبا جعفر المنصور بعث له بالراية السوداء ، فانضم الى الثورة ناس كثيرون من حضرموت ولخم وطيء وكان بعض الزعماء المنضمين اليها ممن لعبوا في السابق دوراً بارزاً في تأمين بيعة كورهم لعبد الرحمن • ولم يقتصر الثائرون على الموجودين في منطقة الثورة بل جاءها المدد من كور أخرى • وقد سارع عبد الرحمن على عادته لاخمادها ، فأرسل مولاه بدراً للقضاء على القادمين من كور أخرى قبل انضمامهم لزعيمها وذلك حتى لا تتضخم ، كما سارع لاحتلال قرمونه ، وهي موقع حصين على الطريق بين

---

١ ـ الروض المعطار ، ص ٢٩ •

٢ ـ الأخبار المجموعة ، ص ٩١ • والروض المعطار ، ص ٣٧ •

فهو سيد عرب الغرب وكان أبناء عمه أسياداً لكور متعددة فيها ، لذا ازدادت كراهيتهم لعبد الرحمن وانتظروا فرصة سانحة للانتقاض عليه ووجدوها عندما كان في سنة ١٥٦ هـ / ٧٧٢ م في أواسط شبه الجزيرة للقضاء على ثورة • وكانت انتفاضتهم عامة في المنطقة لم يتخل منهم عنها حتى أولئك الذين تربطهم صداقة حميمة بعبد الرحمن الداخل مثل حيوة بن ملامس[١] الذي يقول فيه عبد الرحمن •

فلا خير في الدنيا ولا في نعيمها اذا غاب عنها حيوة بن ملامس

ومما زاد في خطرها انضمام بربر المنطقة اليها • سارع عبد الرحمن لاخمادها ولجأ أولا الى التفريق بين البربر واليمانية وذلك بمداخلة القبائل البربرية عن طريق مواليه منها ، الذين استخدموا لاقناع بني جلدتهم بحجة عبد الرحمن القائلة بأن انتصار هؤلاء العرب لن يعني فقط القضاء عليه وحده وانما استحالة بقاء البربر في الاندلس ، وكذلك ابلاغهم ترغيب عبد الرحمن لهم واستلحاقهم وتسجيلهم في الديوان وبذلك ينالون العطاء • وكان هذا آملا يراود البربر منذ أيام الفتح • وفي المعركة الفاصلة التي جرت في وادي قيس (Bembezar حالياً) ، خان البربر حلفاءهم وانضموا الى عبد الرحمن مع أعداد كبيرة من خيول اليمانية[٢] •

العصبية البربرية وعبد الرحمن

كان البربر منذ عصر الولاة متبرمين بأوضاعهم ميالين للشغب وللثورة، وهكذا رأيناهم يقومون أولا بثورتهم العامة في المغرب والاندلس المتسربلة بثوب الدين على شكل مذهب خارجي ، ثم ينخرطون بعد ذلك في صفوف كل الثورات التي جرت في الاندلس تقريباً •

وفي زمن عبد الرحمن ، وبعد ثورة العصبيتين العربيتين عليه ، رفع

---

١ ـ اشترك في هذه الثورة كل من حيوه بن ملامس الحضرمي من اشبيلية وعبد الغفار اليحصبي ابن عم ابي الصباح من لبلة وعمرو بن طالوت وكلثم بن يحصب ابني عم أبي الصباح أيضا من مدينة باجة • (أنظر تفاصيلها في : افتتاح الاندلس ص ٥٤ ـ ٥٦) •

٢ ـ افتتاح الاندلس : ص ٥٦ •

البربر راية العصيان أيضاً ضده ملونة بمذهب ديني هو المذهب الشيعي قاد الثورة شاقية[1] بن عبد الواحد المكناسي ، معلم صبية وابن امرأة تدعى فاطمة ، فادعى انه فاطمي من نسل الحسن أو الحسين واتخذ اسماً عربياً ذا طابع ديني أيضاً هو عبد الله بن محمد . وصار يطوف بين أتباعه على عادة عدد من الثوار باسم الشيعة على دابة أطلق عليها اسم الخلاصة .

بدأت الثورة في شنت بريـة (Santaver الاسبانية وقد بادت الآن وتقع في اقليم عاصمته الحالية أقْلِيش العربية و Uclés حالياً) حيث قتل شاقية سنة ١٥١ أو ١٥٣ هـ .

صار عبد الرحمن يرسل اليها الحملة تلو الحملة ، حيناً بقيادته وأحياناً أخرى بقيادة قواده أو وزرائه وحجابه . واتبع الفاطمي لمواجهتها الطريقة التقليدية للثوار في المناطق الجبلية : فعندما تهاجمه حملة قوية لا قبل له بمقاومتها يتراجع أمامها مرتفعاً الى الشواهق الجبلية ، وعندما تعود يرجع لاعادة بسط نفوذه على منطقته ويقوم بتوسيعها . حتى استطاع بسط سلطانه على جميع المنطقة الممتدة بين حوضي التاجو وعانة ، من شنتبرية في الشرق الى ماردة في الغرب ، ودخل المدن الكبرى فيها وقتل قوادها ،كما حدث عندما وثب على أبي زعبل عامل ماردة ليلا فقتله . أخيراً ، وبعد أن أعيا عبد الرحمن أمر هذه الثورة ، لجأ كعادته الى الايقاع بين الثائرين البربر فعهد لهلال المديوني[2] منهم بامرة شنتبرية وأوكل اليه مهمة القضاء على شاقية . ونجحت الوسيلة اذ قام ابن لهذا الوالي وشخص بربري آخر باغتيال الثائر شاقية عام ١٦٠ هـ[3] .

---

١ ــ يرد اسمه عند ابن الاثير شقنا .

٢ ــ يجعل ليفي بروفنسال في الجزء الاول من تاريخ اسبانيا الاسلامية ص ١١٤ ابازعبل هو البربري الذي استعان به عبد الرحمن للاجهاز على شاقية ولتزعم البربر ، وذلك لاتباعه نصا في ابن عذاري ج ٢ ص ٥٥ واضح التصحيف من قبل النساخ ، ويمكن تصحيحه مع تكملته من نفس الكتاب وبمقارنته مع نص يرد في الأخبار المجموعة ص ١٠٧ .

٣ ــ أنظر عن الثورة ابن الاثير ، ج ٥ ص ٦٠٥ ــ ٦٠٦ ج ٦ ص ٣٥ و ٤٢ و ٤٩ ــ ٥٠ . ابن عذاري ج ٢ ص ٥٤ ــ ٥٥ والأخبار المجموعة ، ص ١٠٧ .

عبد الرحمن وعصبيته

طبّق عبد الرحمن في التعيين للمناصب وللاثبات في ديوان العطاء سياسة التسوية بين جميع القبائل والعناصر في المجتمع الاندلسي ، ولم يستثن من قاعدة التسوية هذه سوى أقرباءه ومواليه الذين جعل منهم عصبية خاصة له ، اعتمد عليها منذ أن بدت في الافق ملامح تمرّد أنصاره من اليمانية عليه . فأقطعهم الاقطاعات وميزهم بالرتب والمناصب العالية ، وأثبت هؤلاء في أول الامر انهم جديرون بما نالوه وأهل للاعتماد عليهم فحاربوا الثائرين عليه باقدام من يشعر بأن نتيجة المعركة لن تقرر مصير سلطان قريبه وانما خبزه هو وحياته. الا أن عبد الرحمن رغم كل ما قدم لاقربائه وما فعلوه من أجل الدفاع عنه ، كان ينظر اليهم كأتباع لا كشركاء في هذه الدولة التي شادها بنفسه . وكان يصرّح بأنه لا منة عليه في انشائها لأحد بعد الله عز وجلّ وان مافعله بالنسبة لاقربائه شيء عظيم ، اذ أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ولذا فحقّه عليهم أعظم من حق المنعم على المولى[1] ، ومن الطبيعي أن تجرّ نظرة عبد الرحمن هذه عليه نقمة هؤلاء الاقارب ، وقيامهم بمحاولات للاطاحة بحياته وحكمه ، وكان يردّ على هذه المحاولات بعنف شديد فيقتل أصحابها وينفي ذويهم بالغة ما بلغت قرابتهم له خشية انتقامهم . حاك أول المؤامرات عليه بعض الأمويين عام ١٦٣/٧٧٩ – ٨٠ م ، وبينهم ابن أخيه عبيد الله بن ابان الذي قتل العباسيون أباه وأخويه في المشرق ، ونجا وحده لتكون نهايته على يد عمه عبد الرحمن[2] . وبعد أربع سنوات حيكت مؤامرة أخرى على رأسها ابن أخ ثان لعبد الرحمن يدعى المغيرة بن الوليد ، فلقي نفس المصير ونفى عبد الرحمن أباه وذويه بعد أن أعطاه خمسة آلاف دينار[3].

وأخيراً يظهر أن غيرة عبد الرحمن على سلطته وكثرة المؤامرات

---

١ – أنظر الاشعار التي تنسب لعبد الرحمن في الحلة السيراء لابن الابار ج ١ ص ٣٩ – ٤٠ .
٢ – الجمهرة ، ص ٩٤ .
٣ – رواية المسهب في النفح ، ج ، ص ٤٧ – ٤٨ .

عليه جعلته يشك حتى بأقرب الناس اليه ، وهكذا بدأت في عام ١٥٦ هـ / ٧٧٢ م طيوف الشك والريبة تملأ قلبه وتحوم حول مولاه بدر ، ساعده الايمن في وضع أول اللبنات في بناء دولته وقائده الذي أخمد له عدداً من الثورات وأحرز باسمه أكثر من انتصار • فنفاه الى الثغر بعد أن سلب نعمته وانتزع دوره وأملاكه ، وأغرمه عدا ذلك كله أربعين ألفاً من الدنانير[1] •

العلاقات الخارجية لدولة عبد الرحمن

اقتصرت علاقات دولة عبد الرحمن على دولتين مجاورتين أولاهما دولة شارلمان القوية التي اختلطت بالحركات الداخلية وثانيتهما الدويلة الاسبانية الصغيرة في شمال شبه الجزيرة •

علاقات عبد الرحمن مع الكارولنجيين

اختلطت العلاقات بين عبد الرحمن والكارولنجيين ، بنقمة العصبية اليمانية على عبد الرحمن التي يمثلها الانصاريون في منطقة الشمال الشرقي من شبه الجزيرة ، كما كان الحضارمة يمثلونها في الجنوب الغربي • وقد تمركزت حركة هؤلاء في سرقسطة منذ عصر الولاة وكانت مدينة ملائمة للثورة اذ تقع في منطقة شديدة الخصب ، وقد حصنت تحصيناً قوياً نظراً لمجاورتها لمواطن الباسكون (البشكنش) المعروفين آنذاك بتوحشهم وايذائهم للمسلمين ، وكذلك لقربها من سبتمانيا التابعة للكارولنجيين • أضف الى كل ذلك انها كانت بعيدة عن قرطبة مركز الادارة • وهذه الاسباب كلها ستجعل هذه المدينة تقدم كل المغريات للثورة لأغلب الولاة الذين سيتولون حكمها خلال العصور المقبلة • في النصف الثاني من فترة حكم عبد الرحمن كان يحكمها الوالي سليمان بن يقظان العربي ، ويظهر انه كان يفتش عن حلفاء يشدّون أزره ويتعاونون معه في الثورة على أمير قرطبة وقد وجدهم في الانصاريين ممثلين بحسين بن يحي الانصاري • فرفع الاثنان راية

---

١ ـ الاحاطة ، تحقيق عنان ، ص ٤٥٣ •

الثورة سنة ١٦٣ هـ / ٧٧٩ م واستطاعا أن يصمدا أمام الجيش الذي أرسله الامير ثم أن يأسّرا بالحيلة قائده ثعلبة بن عبيد الجذامي •

وربما خشيا عاقبة غضب الامير ومحاولته للثأر لتلك الهزيمة التي لحقت بجيشه فترك الوالي حليفه الحسين بن يحيى الانصاري في سرقسطة وتوجّه الى بادن بادن ، حيث كان يقيم الملك الكارولنجي شارلمان ، وربما رافقه في هذه الرحلة أبو ثورسيد وشقه •

كان شارلمان قد وسّع حدود مملكته كثيراً ، فقد استولى على لومبارديا في ايطاليا ووصلت فتوحاته في أراضي الجرمن حتى نهر الدانوب ، ولا شك أن خيالات كانت تطوف برأسه ، وتتركز حول ضم شبه الجزيرة الايبيرية الى مملكته الواسعة وطرد المسلمين منها واعادتها الىحظيرة المسيحية • فيكون بذلك قد قام بمأثرة كبرى ثانية للكنيسة بعد المأثرة الاولى التي كانت نشر المسيحية بين الجرمن الوثنيين •

لذلك قبل الهدايـا من الواليين العربيين وكان بينها ثعلبة بن عبيـد الجذامي قائد الحملة الفاشلة عـلى سرقسطة ، واستلم منهما رهائن ليقوم بالحملة في ربيع نفس العام •

توجه شارلمان على رأس جيش كبير نحو شبه الجزيرة الايبيرية ، فاجتاز البيرينة من ممرات رونسيسفال (يسميها العرب باب شزروا)•وحلّ بامبلونا حيث أعلنت قبائل الباسكون التي تقطنها خضوعها لـه ، وتوجه بعد ذلك الى سرقسطة ، وهو على يقين بأنها ستفتح له أبوابها حال وصوله اليها حسبما وعده ابن العربي • لكن حدث مالم يكن بالحسبان ، اذ أن الحسين بن يحيى الانصاري قلب ظهر المجنّ لحليفه السابق المرافق للملك الكارولنجي وأغلق أبواب المدينة في وجـه الجيش الغازي • ممـا اضطر شارلمان لضرب الحصار على المدينة وهو يأمل بفتحها سريعاً ، لان المؤن داخلها ضئيلة ولا تستطيع تحمل الحصار لأمد طويل ، كما أكّد له ابن

العربي • وطال الحصار أكثر مما كان منتظراً وظل شارلمان مثابراً عليه • حتى بلغه نبأ قيام بعض الاقوام الجرمانية بثورة عليه ففكّ الحصار واتجه نحو غاليا حاملاً معه سليمان بن يقظان العربي كأسير متهماً اياه بالتغرير به•

عند عبور شارلمان لممرات رونسيسفال كان على جيشه أن يسير في صفوف رقيقة وطويلة عبر الوديان الضيّقة والسحيقة التي تطلّ عليها جبال تكسوها الغابات الكثيفة ، وفيها كانت تكمن له عصابات من الباسكون وأخرى من العرب على رأسها ابنان لأسير شارلمان سليمان بن يقظان العربي• وقد انهالت هذه العصابات على مؤخرة الجيش فقضت عليها قضاء مبرماً وكان بين القتلى دوق اكيتانيا رولاند الذي خلّدت موته وأعماله البطولية في تلك الموقعة أنشودة رولاند المعروفة • وبنتيجة هذا الهجوم استطاع ابنا العربي استخلاص والدهم الاسير وعادا معه الى سرقسطة حيث اغتيل بتدبير من الحسين بن يحيى الانصاري •

بعد الخلاص من هذه الحملة ركّز عبد الرحمن اهتمامه على اعادة سرقسطة الى حظيرة طاعته فخضع لـه زعيمها الباقي الحسين بن يحيى الانصاري وقدّم الرهائن ثم لم يلبث أن نكث فعاد اليها الامير وقسا في معاقبته ومعاقبة ذويه بعد احتلال المدينة عنوة عام ١٦٦ هـ / ٧٨٢ م[١] •

كان لخيبة شارلمان في حملته على سرقسطة أثر في تغيير سياسته نحو شبه الجزيرة ، اذ يظهر انه تخلى عن السياسة الهجومية ، ولجأ الى سياسة تغلب عليها صفة الدفاع ، وهكذا أنشأ ضمن امبراطوريته عام ٧٨١/١٦٥هـ مملكة اكيتانيا وأعطاها لابنه لويس الذي سيصبح امبراطوراً يشتهر باسم لويس التقي ، ويظهر أن مهمة هذه المملكة مراقبة الاراضي الاسلامية المجاورة الواقعة بين البيرينة ونهر ابره لتأمين الدفاع عن الممتلكات الكارولنجية والغرب المسيحي ، والاستيلاء عندما تسنح فرصة على أية

---

١ ـ ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٥٦ ـ ٥٧ •

أرض اسلامية تبدو لهم فريسة سهلة • واستطاعت هذه الدولة أن تحقق أول توسع كاروانجي على حساب ديار الاسلام باحتلال خيرونا قبل موت عبد الرحمن بثلاث سنوات ، فخطت بذلك أول خطوة في الطريق الذي أدى فيما بعد الى تأسيس ما سمي بالثغر الاسباني للكارولنجيين والذي يضم مناطق متعددة من شمال شرق اسبانيا[1] •

علاقات عبد الرحمن مع دولة اشتوريش

انعكست آثار سياسة عبد الرحمن الداخلية على علاقاته الخارجية مع دولة اشتوريش الدويلة الاسبانية الشمالية ، اذ كان من شأن قضائه على العصبيات وعلى حكم زعمائها القبليين ان مالت نحوه عواطف المسيحيين الذين يعيشون في دولته • لأن الفوضى والحروب التي أثارها أولئك الزعماء كانت تنالهم بالأذى ، كما أن أغنياءهم كانوا عرضة لاطماعهم ، ولا تخلو المصادر العربية من شواهد تدل على محاولة بعض هؤلاء الاغنياء استرضاء أولئك الزعماء بتقديم الضياع لهم[2] •

ومما لا ريب فيه أن يساعد هذا الامر على فتور الحماس المعادي للمسلمين عند الكثيرين من رعايا ملوك اشتوريش • وقد حدث هذا الفتور في وقت وحدت فيه قوى الاندلس الاسلامية تحت راية عبد الرحمن وتجلت قوتها بأجلى مظاهرها في عبور جيش الامير ووصوله حتى منابع نهر ابرة وفرضه الجزية على مسيحيي الشمال • استغل عبد الرحمن الامرين السابقين : فتور الحماس المعادي له والخوف من قوته ، في تطبيق سياسته المعروفة ضد الثوار ، سياسة نسف الثورات من الداخل ، على دولة اشتوريش ونجح في تقويض سيادتها من الداخل • وهكذا وجد داخلها ما يشبه الحزب يدعو للخضوع لرغبات الامير الاموي وعدم جدوى

---

١ ـ E. Levi Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane. T.I. P. 124

٢ ـ أنظر قصة ارطباس مع بعض زعماء القبائل في افتتاح الاندلس ، ص ٦١ ـ ٦٣ •

وضرورة الوقوف في وجهه واغتيل خليفة الفونسو الكاثوليكي السائر على سياسة معاداة المسلمين ، وتتابع بعده خلال خمس وعشرين سنة ثلاثة من الملوك بدعم وتأييد من عبد الرحمن ، فكانوا له بمثابة الاتباع يقضون سنوات حكمهم يخضعون من سُمّوا بالخلعاء « Libertinos » • وهم أفراد الجماعات المناوئة لسياسة التبعية لعبد الرحمن ، كما كان هؤلاء الملوك يدفعون الجزية المالية التي وصلت أخيراً الى حد الاذلال اذ تضمّنت فيما تضمنته تقديم مائة عذراء • ويسمي البعض فترة حكم هؤلاء في اشتوريش فترة التعرّب لأنها كانت لا تدور في فلك قرطبة سياسياً فقط بل حضارياً أيضاً • وأكبر دليل على ذلك أن ملوك هذه الفترة ، كان جلّهم أبناء أندلسيات وصلن الى المنطقة عن طريق الأسر في الحروب التي سبقت هذه الفترة • ويرجح البعض أن يكون اسم الاخير منهم موريغاتو ، وهو اسم فريد بين جميع أسماء ملوك اسبانيا المسيحية ، عبارة عن صفة لأمه Maure Captae أي الاسيرة المسلمة ، أطلقت عليه كلقب[1] •

نهاية عبد الرحمن واهمية عمله

في ٢٥ ربيع الآخر من سنة ١٧٢ هـ / ٣٠ ايلول من عام ٧٨٨ توفي عبد الرحمن عن عمر يقل قليلاً عن الستين عاماً بعد أن حكم الاندلس حوالي ثلاثة وثلاثين عاماً • ويروي لنا المؤرخون عن صفاته الجسمانية انه كان مديد القامة ، نحيف القوام ، أعور أخشم (أي فقد حاسة الشم) له ضفيرتان • أصهب (أحمر الشعر) خفيف العارضين له خال في وجهه •

استرعت عظمة عمل عبد الرحمن أنظار القدماء المعاصرين له • والباحثين المحدثين واستأثرت باعجاب الجميع على اختلاف مدارسهم التاريخية ومذاهبهم الفكرية ، وربما كانت الشهادة التي تنسب للمنصور العباسي فيه ، وهو عدو الأمويين بصورة عامة وعدو عبد الرحمن بصورة

---

١ ـ Perez de Urbel Primeros Contactos .. Arbor, abril T.XXIV. 1953. p. 508 - 510.

خاصة ، أوضح ما يعكس لنا تفكير لقدماء فيه ، فهو يعتبره أحق بلقب صقر قريش منه ذاته وكذلك من معاوية وعبد الملك لأنه «عبر البحر وقطع القفر ودخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه فمصّر الامصار وجنّد الاجناد ودوّن الدواوين وأقام ملكاً عظيماً بحسن تدبيره وشدة شكيمته ، كما انه قام وهو منفرد بنفسه مؤيد برأيه مستصحب لعزمه بتوطيد الخلافة بالاندلس ، وافتتح الثغور وقتل المارقين وأذل الجبابرة الثائرين »[1] •

أما نحن فلا نشك في عظمة العمل الذي تم في عهد عبد الرحمن ، لكن من الصعب الجزم بأنه كان بكامله من خَلْـقه الشخصي ، فقد كان من جهة حاملا لتقاليد الاسرة الاموية في الحكم والتنظيم التي اكتسبتها خلال حكمها لامبراطورية واسعة مترامية الأطراف متباينة الاجناس مدة تقرب من قرن كامل ،كما انه كان محاطاً بجماعات ومساعدين من الموالي والانصار كان بعضهم ذا تجربة بالاعمال التنظيمية ، وبعضهم كان في الأندلس يعرف أوضاعها ونواحي ضعف الحكم فيها ووسائل الاصلاح أمثال موالي الامويين وأرطباس الذمي ابن الأسرة القوطية الحاكمة ، ولدينا شواهد على أن بعض التنظيمات تمت عملا بنصيحة بعض هؤلاء[2] • لكنه من المستحيل تحديد دور كل واحد من هؤلاء في هذا العمل العظيم ، لذا نعزو العمل كله الى عبد الرحمن لا على أساس انه مبتكره وحده وانما على أساس ان كل ما جرى ، انما جرى باسمه وتحت اشرافه •

نواحي عظمة عبد الرحمن

تكمن أهمية العمل الذي تمّ في عهد عبد الرحمن الداخل بنقطتين أولاهما الوصول الى الحكم وثانيتهما تأمين وسائل الحفاظ عليه وترسيخ بنيانه ، اذ لايخفى أن الدولة الاموية في الاندلس استطاعت أن تعيش مدة تقرب من ثلاثة أمثال المدة التي عاشتها في المشرق •

---

١ ـ ابن عذاري ، ج ٢ ص ٥٩ ـ ٦٠ •

٢ ـ ابن الخطيب ، الاحاطة ، تحقيق عنان ، ص ١٠٩ •

الوصول الى الحكم

تلاحظ العظمة هنـا في تحليل ظروف الواقـع الاندلسي ، وسرعة الحركة في استغلال كل فرصة مناسبة يهيئها تطور هذه الظروف • فاختيار الاندلس بالذات في تلك الفترة كمكان لاقامة الدولة ، ومباشرة بث الدعوة في الوقت الذي بدأت فيـه ، ونزول عبـد الرحمن ثم تحركاته للمعركة وسلوكه أثناءها • كل ذلك جرى في أحسن وقت ونفـّذ بأفضل طريقة ، مما أدى الى تمكين فرد مع قلـّة قليلة من السيطرة والتحكم في الاغلبيـة والاكثرية الساحقة • ومع ذلك يبقى الوصول للحكم أقل النواحي مـن نواحي عظمة عمل عبد الرحمن جدّة ، ذلك أن أرض الاندلس بالذات شهدت قبل وصول عبد الرحمن بعدة سنوات ، تجربة سابقة في هذا المضمار ، وهي العملية المعقدة التي نفـّذها الصميل وحكـّم بها الاقلية القيسية بالاكثريـة اليمانية • ويبقى الجانب الاعظم في عمل عبد الرحمن تغييره لمفهوم الحكم •

تغيير مفهوم الحكم

كانت السلطة قبل عبد الرحمن قبلية لم فرغم وجود وال كانت كل قبيلة تخضع لزعيمها وكمثل على ذلك نرى يوسف الفهري لا يستطيع أثناء حصار اليمانية للصميل في سرقسطة جمع أكثر من خمسين شخصاً ، بينما يخرج آلاف القيسيين الى سرقسطة لانقاذ زعيمهم المحاصر • كما يتجلى المفهوم القبلي للسلطة بأن القبائل عند تنازعها على امارة الاندلس وانتصار بعضها على البعض الآخر ، تقوم المنتصرة بالتنكيل بخصومها بشكل شنيع جرياً على العادات البدوية القديمة ولا تكتفي بنيل الامارة • ومثل هـذا النظام كان متأخراً جداً بالنسبة للعصر ، كما انه ـ نظراً للتمزق الداخلي الرهيب الذي نتج عنه ـ كان خطراً على قضية العرب والاســلام في أرض شبه الجزيرة الايبيرية • ويجب الا يغرب عن البال أن الدويلة المسيحية الاسبانية ، نشأت وترعرعت وأصبحت لها كل مقومات الدولة في تلك الفترة ، وأخيراً كان مثل هذا النظام يحمل في ذاته بذور انهياره وتداعي الاسس التي يقوم

عليها، فقد رأيناه في مرحلته الاخيرة يعتمد أولا على دعامة تحالف قبلي بين القيسية وجذام اليمانية ، ثم تصبح دعامته قيسية فقط ، وأخيراً تضيق قاعدته جداً ، وذلك عندما تقتصر على بطن واحد من بطون القبيلة القيسية عامر بن صعصعة ، فيسود بطن كلاب دون أبناء عمومته قشير وعقيل ٠

أما التغيير الذي أدخله عبد الرحمن فهو احلال سلطة الدولة ممثلة بالامير محل سلطة القبيلة وسلطة الدولة هذه كانت فوق القبائل ومنازعاتها ، لذا نرى عبد الرحمن عندما ينتصر على القيسية ويدخل قرطبة مع أتباعه اليمانية ، لا ينكل بالعصبية المهزومة كما كان يفعل زعماء القبائل عند انتصارهم على خصومهم في عصر الولاة ، وانما اكتفى بنيل السلطة واخضاع العصبية القيسية لسلطانه ٠ كما أن هذه السلطة ممثلة بشخصية الامير كانت تفرض على أتباعها الخضوع لاوامرها ونواهيها ، وهكذا بينما نجد بلج بن بشر الوالي ينهي جنده عن الفتك بابن قطن الشيخ الطاعن في السن ، لكن أوامره لم تلق اذناً صاغية نرى عبد الرحمن عندما يدخل قرطبة يأمر اليمانية بعدم القيام بنهب ممتلكات القيسيين وسبى نسائهم كما كانت تفعل القبائل في حروبها في السابق ، ويفرض رأيه عليها ٠

ومن الطبيعي أن يقوم عبد الرحمن بعد اخضاع القبائل لسلطانه ، بالاشراف والهيمنة على كل شؤون الاندلس ، وهو أمر لا يمكن تحقيقه الا بانشاء جهاز حكومي ٠

تنظيم الجهاز الحكومي

بدأت ملامح تنظيم حكومي واسع بالظهور منذ أيام عبد الرحمن الداخل وبما أن المصادر شحيحة في تبيان أبعاده وحدوده بصورة دقيقة ، لذا سنكتفي بذكر النواحي التي نجد لها ذكراً في هذه المراجع ٠

آ ــ الجيش

بدأت بالظهور في أول عهد عبد الرحمن أول الملامح التي ستبقى أمداً

طويلا في جيش الاندلس ، فقد ورث عن العهد السابق الجيش من الجند العرب ويتكون من جماعات عشائرية على رأس كل جماعة منها شخص عقد له الخلفاء أو الامراء ، وقد كون هؤلاء فيما بعد طبقة ارستقراطية دعي أصحابها أهل المعاقد . وينقسم هذا الجيش الى فئتين رئيسيتين شاميين وبلديين ولكل منهما نظام دقيق في العطاء ، لا نعلم تاريخ وصوله الى هذه الدقه . فقد كان للشاميين لواء غاز ولواء مقيم يقوم اللواء الغازي بالغزو مدة ثلاثة أشهر يدال بنظيره اللواء المقيم بعد انقضائها . وبعد الغزو يقوم المعقود لـه بتقديم أسماء من غزوا معه تحت لوائه ممن يستحقون العطاء ، فيعطونهم على قوله تكرمة له . أما مقدار العطاء فكان يختلف بحسب المراتب والقرابة للمعقود له . فأصحاب المعاقد يعطى الواحد منهم مائتي دينار وأقرباؤه مثل اخوته أو بنيه أو بني عمه فكانوا يرزقون عشرة دنانير ومن كان من غير بيوتات العقد رزق خمسة دنانير . أما البلديون فكانت مدة عقد لوائهم الغازي ستة أشهر يدال بعدها باللواء المقيم ، والغازي بعقد كان يرتزق عند انقضاء الغزو مائة دينار أما غير المعقود لهم فلا يعطون شيئاً[١] .

كانت سياسة عبدالرحمن تجاه هذه التركة انه أبقى من الجند من ثبت على الولاء له بينما أسقط الوية من ثاروا ضده ، وهكذا نراه يعين في جندي قنسرين المقيم بجيان ودمشق النازل في البيرة زعماء لهما من أولئك الذين تخلوا عن القيسية وانضموا اليه في المصارة . أما جند باجة الذي ثار عليه مع العلاء فقد أسقطه من الديوان وأخمل ذكره وحل هو لواءه[٢] . رغب عبد الرحمن بأن يعوض عن هؤلاء الجند من جهة ولا يترك نفسه تحت رحمة عنصر واحد هو عنصر العرب من أبناء القبائل الذي كان يخشاه . بدليل تحذيره للبربر مرة من الانضمام الى القبائل العربية اليمانية ضده ، منذراً اياهم من انه اذا انتصر العرب فلن يبقى له ولهم (أي للبربر) بقاء في الاندلس[٣] . وهكذا

١ ـ ابن الخطيب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، المطبوع بتحقيق عنان ص ١١٠ ـ ١١١ .
٢ ـ الروض المعطار ، ص ٣٦ .
٣ ـ رواية ابن حيان في النفح ، ج ٢ ص ٣٦ .

اعتضد أولا بالبربر وأدخل الكثيرين ممن كانوا بالاندلس في الديوان « كما وجه عنهم الى بر العُدْوَة ، فأحسن لمن وفد عليه احساناً رغّب من خلفه بالمتابعة »[1] كما اشترى بالاضافة لهؤلاء كثيراً من العبيد ،حتى وصل رقم جنده من هذين العنصرين حسب قول ابن حيّان أربعين ألفاً ، وهو رقم فيه ما يدعو الى الشك . وهناك شواهد تدل على انه كان بين العبيد سودانيون . أما تنظيم فرق الجيش فظل على عهد عبد الرحمن بسيطاً كما كان قبلا منقسما الى فرقتين رجالة وخيّالة .

ب ـ الولايات

لدينا العديد من الشواهد على ان الحكم خارج قرطبة في عصر الولاة، ساد فيه مبدأ استقلال القبيلة ، وكان حكم المنطقة لرئيس القبيلة الغالبة عليها ، وان عبد الرحمن في اول امره سار على نفس الخط ، لكن ثورة العصبيات عليه جعلته يخلع هؤلاء الزعماء القبليين ، ويضع بدلاً منهم امراءً من الامويين او من مواليه كما حدث في ولاية طليطلة التي كانت للفهريين وفي اشبيلية التي كانت للحضارمة .

اما اهل الذمة فكانوا يخضعون لرؤساء منهم . وقد عيّن عبد الرحمن لأول مرة في الاندلس رئيساً عاماً لهم باسم القمص (القومس) يقيم الى جواره في قرطبة ويستشيره كأحد عليّة القوم وقد تسلّم هذا المنصب ارطباس[2] أحد زعماء حزب اخيلا القوطي الذي انضم الى العرب المسلمين وساعدهم في فتح الاندلس .

ج ـ القضاء

وفي ميدان القضاء كان الشائع في الاندلس ان استحداث منصب قاضي

---

١ ـ الأخبار المجموعة ، ص ١٠٩ .

٢ ـ ابن القوطية ، افتتاح الاندلس ، ص ٦١ .

الجماعة ، الذي ظل طيلة تاريخ الاندلس تقريباً ، لقباً لقاضي الحضرة او العاصمة ولكبير قضاة الدولة الاندلسية ، وهـو ما يعادل قاضي القضـــاة في المشرق ، يعود الى زمن عبد الرحمن وان القاضي يحيى بن يزيد كان يسمى قبل تسلّم عبد الرحمن بقاضي الجند ، فاصبح بعـد ذلك يسمى قاضي الجماعة[1] .

---

١ ـ الخشني ، قضاة قرطبة ، ص ٢٨ .

الفصل الرابع

عصر الامارة

فترة التوطيد

قبل الخوض في بحث احداث هذا العصر ، لابد لنا من القاء نظرة على تركيب المجتمع الاندلسي ، كي يصبح بالامكان معرفة القوى التي لعبت الادوار الأولى في حوادث هذا العصر .

المجتمع الاندلسي في اول عصر الامارة

تكون هذا المجتمع من عنصرين رئيسيين : أولهما الفاتحون أو الغالبون ، وثانيهما المغلوبون أو سكان البلاد . وقد تألف كل عنصر منهما من فئات مختلفة من حيث الأصل والدين ، فكان الغالبون يتألفون من عرب وبربر ، والمغلوبون من مولدين ومستعربين .

العرب . ـ وصل هؤلاء الى الاندلس على دفعات ، كما مر معنا سابقاً . وقد تحدث عن انسابهم واماكن نزولهم ابن حزم في كتابه الجمهرة[1] .

كان ابناء القبائل يعتبرون انفسهم أرفع من كل ما عداهم ، لكنهم فيما بينهم كانوا متساوين ، الى أن أسس عبد الرحمن الداخل دولته ، وكان

---

١ ـ انظر :

Elias Teres, Linajes Arabes en al-Andalus, segun la, « Jamhara » de Ibn - Hazm, Al - Andalus, vol XXII, Fasc. 1-2.

بحاجة لعصبية تدعمه فاستقدم اقرباءه ، كما أن الكثيرين منهم توافدوا على الاندلس من تلقاء انفسهم منذ أن علموا بانتصاراته ووجدوا في كنفه ملجأ أمينا من مطاردة العباسيين • ولم يلبثوا أن كونوا في المجتمع الاندلسي طبقة خاصة من نبلاء الدم عرفت بطبقة القرشيين كانت تحيط بالأمير في بلاطه ولها حق التقدم على غيرها في الاحتفالات الرسمية،كما كانت تتمتع بامتيازات كثيرة منها الاعفاء من الضرائب ، أضف الى ذلك ان بعض افرادها كانوا يتناولون مرتبات كبيرة ، ويظهر انه أنشيء لهذه الغاية الديوان المعروف بديوان قريش ، وقد نظمت هذه الطبقة في المستقبل فأصبح للقرشيين نقيب خاص على شاكلة نقيب طبقة الهاشميين في المشرق[1] • والى جانب الأمويين، برزت جماعات موالي الأمويين ، الذين خُصّوا منذ ايام عبد الرحمن بالاقطاعات والوظائف ، ولم يلبثوا في خلال عصر الامارة ان اشتهر منهم كبار الموظفين في البلاط فكونوا نواة تلك الطبقة النبيلة التي قامت نبالتها على الوظيفة ، ولعبت دوراً بارزاً في الأحداث خلال عصر الخلافة[2] •

البربر

وصلت كتلة البربر الى الاندلس في حملة طارق بن زياد ، وقد استقرت في المنطقة الشمالية الجبلية ، وعندما قامت ثورتهم ونكل العرب بهم غادر قسم منهم الاندلس عائدا الى افريقيا ، وعندما حدث القحط عام ١٣٢ هـ تأثرت مناطق الهضاب غير المروية حيث يقطن البربر مما أدى بقسم آخر الى العودة لبلادهم ، والقليل الذي بقى منهم هناك لم يستطع الدفاع عنها ضد هجمات الدويلة الاسبانية ، كما انه لم يستطع البقاء تحت حكمهم عندما استولوا على أرضه فتوزع في اراضي الاندلس الاخرى • والى هؤلاء البربر الأول ، صارت تفد على الاندلس جماعات باعداد متفاوتة

---

١ ـ الجمهرة ، ص ٩٣ •

٢ ـ أنظر : الحلة السيراء ، ج ١ ، ص ١٤٥ ـ ١٤٧ ، الروض المعطار ، ص ٢٩ •

لكنها لاتصل الى عدد الموجة الاولى ، فمن هذه الجماعات ما أتى بدافع رابطة الولاء التي تربطه بالولاة أو الامراء الامويين، ومنها ما كانت جماعات من المحاربين المرتزقة •

ورغم أن العرب كانوا يعتبرون أنفسهم أعلى مقاماً من البربر ، الا أنه بدأت بالبروز في هذه الفترة ، وخاصة اعتبارا من أيام سيطرة المذهب المالكي على الاندلس ، طبقة من الفقهاء المالكيين كان بينهم العرب والبربر اصبحت ذات نفوذ كبير في البلاط • وحينما حرمت منه تحصنت بنفوذها على أهل الاسواق والعامة الذين اصبحوا اسلحة قوية في يدها ، حاربت بهم الامراء وتقوت بهم لمنع تسرب المذاهب الاسلامية الاخرى ، سواء كانت فقهية لا تخرج عن جماعة السنة ، أو مارقة في نظر الفقهاء كالمعتزلية والخارجية والشيعة •

المسالمة او المولدون

وهم الذين دخلوا في الدين الاسلامي من سكان البلاد ، وكان يشار اليهم بهذين الاسمين ، وقد برز من بين هؤلاء في المجتمع اناس كثيرون ، اندمج بعضهم بالفاتحين ونسي أصله الاسباني بعد ان قام آباؤه بدفع الاموال الطائلة كي يلفق له النسابون نسبا عربيا • وآخرون احتفظوا باسماء عائلاتهم • لأن فيها مجالاً للفخر ، كأن تكون رومانية فتدل بذلك على نبالة قديمة كبني انخيلينو وبني ساباريكو (انجلين وشبرقة ، في التسمية العربية)[1] ، أو تكون قوطية ترجع الى الاسرة المالكة السابقة ، وقد اشتهر أحد النحاة المؤرخين باسم ابن القوطية ، وكان يفتخر بنسبه هذا •

المستعربون واليهود

المستعربون هم المسيحيون الاسبان الذين بقوا على دينهم ، وهذا الاسم

---

١ ـ انظر : ابو مروان حيان بن خلف المعروف بابن حيّان ، المقتبس في تاريخ رجال الاندلس، تحقيق الأب ملشور • م • انطونية ، ص ٧٤ • وسنشير اليه فيما بعد « المقتبس تحقيق ملشور » تمييزاً له عن القطع الأخرى من الكتاب التي حققها آخرون •

اعطاهم اياه الاسبان الشماليون ، على الأرجح ، ممن لم يخضعوا للعرب المسلمين • اما الكتاب العرب فيطلقون عليهم « العجم او النصارى » ،وكانت مراكزهم في طليطلة واشبيلية وقرطبة ومـاردة ، وتعتبر طليطلـة مركزهم الاساسي ، لانها مقر مطران الكنيسة الاسبانية ، وكان تعيينه وتعيين اساقفة المراكز الثلاثة الاخرى يخضع لتصديق الأمير او الخليفة •

اما اليهود فنظرا للاضطهاد الذي حل بهم اواخر ايام القوط ، وقفوا الى جانب الفاتحين المسلمين موقف المؤيـد ، فاستخدمهـم الجيش الفـاتح كحاميات للمدن التي يحتلها[1] ، كي يحتفظ بكتلته أثنـاء توجهه لفتح الاماكن الاخرى ، لذلك عاملهم العرب الفاتحون برفق كبير ، وازدهرت جماعاتهم ماليا وفكريا في ظل الحكم العربي الاسلامي • ورغم انتشارهم في جميع المدن ، الا ان منطقة غرناطة أو كورة البيرة كانت تعج بهم حتى شاع تعبير « غرناطة اليهود »[2] على كل الألسن في ذلك الزمن •

---

١ ـ أنظر : الاحاطة تحقيق عنان ، ص ١٠٧ •

٢ ـ أنظر : الروض المعطار ، ص ٢٣ •

السمات العامة للعصر

امتد هذا العصر حتى سنة ٣١٦ هـ/٩٢٨ م وقد ميزناه باسم عصر ، لأن الملامح العامة فيه تختلف اختلافاً كلياً عن الفترة السابقة . فبينما اتسم عصر الولاة كله بطابع الصراع بين القبائل والعناصر على السلطة ، رأينا ان عصر عبد الرحمن اتسم بطابع النزاع بين عبد الرحمن الداخل ، الذي يمثل سلطة الدولة ، وبين القبائل التي اعتادت على العيش حرّة من الخضوع . اما في عصر الامارة فيلاحظ ، ان سمتي العصرين الماضيين لم تزولا نهائياً . بل بقيت فيه بقايا نزاعات عنصرية ، تمثلت في قيام البربر القاطنين في الجبال الجنوبية ، في منطقتي غرناطة وتاكرنا ، بالثورة عدة مرّات وبالاغارة على من يجاورهم[1] . كما نرى بقايا منازعات قبلية بين المضرية واليمانيه ، متسترة حيناً خلف راية احد الطامحين كما حصل في سرقسطه[2] ، او سافرة على شكل نزاع دموي بين قيس ويمن ، كما حدث في فتنة تدمير التي استمرت ست سنوات واحلت فيها الخراب ، وكان من نتائجها نقل مركز الولاية منها الى مرسية[3] .

على الرغم من ذلك تعتبر هذه الفتن محدودة على مدى العصر ، لا تكوّن الا جزءاً يسيراً جداً من احداثه ، ولا تعدو ان تكون من بقايا الماضي . اما اغلب الأحداث ، فكان يسيّرها محرك جديد لم يكن معروفاً في العصر السابق : وهو النزاع بين الغالبين ممثلين بسلطة الأمير ، والعرب

---

١ ـ ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٤٤ و ٣١٨ ـ ٣١٩ ؛ ج ٧ ، ص ٥١ .
٢ ـ المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١١٧ ـ ١١٨ .
٣ ـ المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٨٤ و ٤٠٠ .

المسلمين من جهة ، وبين المغلوبين من سكان البـلاد بقسميهم : المولـدين والمستعربين من جهة ثانية •

والى جانب هذا النزاع العام ، ظهر على مسرح الاحداث في الاندلس نزاع أقل شأنا بين الفئات ، لكن الرابطة في هذه الفئات أو المجموعات لم تكن قائمة على الدم كما كان الحال في العصر السابق بل على المذهب داخل الدين الاسلامي •

والسمة الثانية التي تطبع هذا العصر كله بطابعها هي التقدم الحضاري وبداية الازدهار الفكري بالاندلس • فرغم الصراع بين الغالبين والمغلوبين وبين المجموعات ذات المذاهب المختلفة الا ّ أن العصر كان عصر سلام نسبي• وقد انصرفت اقسام كبرى من المجتمع الى بذل الجهد في الميدان الاقتصادي، بعد ان اغلق الباب امامها في المجال السياسي ، كما ان الارض اصبحت ثابتة تقريبا في ايدي ملا ّكيها ، والاجهزة الادارية التي أنشأها عبد الرحمن صارت تتكامل يوما بعد يوم • كل هذا جعل الزراعـة تزدهـر والثروات تتكون والحاجة الى بضائع الترف توجد ، فنشطت التجارة ايضا وخاصـة مع المشرق ، والتجارة تحمل مع البضائع دائما كتبا وافكارا • وهكذا بدأت بالتكون خلال هذه الفترة الثقافية الاندلسية التي كانت فرعا من الثقافـة العربية الاسلامية في المشرق ، وامتداداً لها الى أرض أوروبية هي شـبه الجزيرة الايبيرية التي كانت مصطبغة قبلا بالثقافة اللاتينية ، وقد تم التصادم على هذه الارض فانتصرت الثقافة العربية الاسلامية انتصارا ساحقا وصبغت لا المسلمين فقط بل جميع اتبـاع الديانات الموجودة بمـا فيهـم المسيحيين •

وبالاضافة الى هذه السمات التي تطبع العصر بطابعها ، توجد سمات خاصة تظهر في فترة وتنقطع في فترة ، أو ان احدى هذه السمات العامـة تظهر في فترة ما اكثر وضوحا من الفترات الأخرى ، لذا سندرس عصر الامارة مقسّماً الى ثلاث فترات •

فترة التوطيد

(١٧٢ ـ ٢٠٦ هـ/٧٨٨ ـ ٨٢٢ م)

تعتبر هذه السنوات من تاريخ الاندلس فترة توطيد الامارة الاموية في الاندلس ، بدأت فيها بالتجمع عناصر الطابع الذي ستتسم به الاندلس الاسلامية طيلة ايام بقائها ، إذ بدأت معالم الثقافة الاندلسية بالظهور حين تبنّت الاندلس المذهب المالكي كمذهب فقهي سادها حتى سقوط غرناطة وكأنه المذهب الأوحد . كما أن الامراء قاموا بعملية توطيد لسلطاتهم تجاه الفقهاء وكذلك توطيدها فيما يتعلق بانتقال العرش .

أمراء الفترة

هشام الرضا (١٧٢ ـ ١٨٠ هـ / ٧٨٨ ـ ٧٩٦ م)

ابن عبد الرحمن الداخل من ام ولد تدعى جمال ولد عام ١٣٩ هـ وارتقى العرش في ١ جمادى الاولى عام ١٧٢ هـ[١]/٧ تشرين الأول ٧٨٨ م ، وامتد حكمه مدة تزيد عن السبع سنوات ، اذ انه توفي في ٣ صفر ١٨٠ هـ /١٧ نيسان ٧٩٦ م ، واشتهر بعلو كعبه في الثقافة والعلم وبتقاه الذي اهلّه لنيل لقب الرضا . في عهده بدأ المذهب المالكي بالانتشار ، وبدأ الفقهاء يلعبون دوراً بارزاً في السيطرة على الامراء وفي توجيه شؤون الدولة. وربما كوّن هذا التقى وذلك التقريب للفقهاء ، عاملاً من العوامل التي

---

١ ـ يرد ذكر ارتقائه عرش الامارة في روايات اخرى قبل سنة ومن الصعب تفضيل تاريخ على آخر .

ساهمت في مبالغة الرواة في المغرب الاسلامي بنسبة جلائل الاعمال اليه وخلع ابهى الصفات عليه • فاذا جمعنا من عدّة مصادر اجزاء الصورة التي رسموها له[1] ، خرجت لنا وكأنها مزيج من الصورتين المعروفتين لعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز • نرى فيها : انه بلغ من اهتمامه بالرعية ، ارساله للعمال يطوفون بالولايات ويسألون الناس عن اعمال ولاتهم ، فاذا ما بلغه عن وال ارتكاب ظلم عزله وعاقبه • واذا ما اشتكى احد الرعايا من حيف اصابه على يد واليه وثبت ذلك ، امر بأن يقتص المظلوم من الظالم على قاعدة العين بالعين والسن بالسن • اما حفاظه على ثغور المسلمين ومجاهدته للكفرة فقد وصل في هـذا المجال حدّ الكمال ، اذ أن أحد الاتقياء أوصى بماله لفداء اسرى المسلمين وعندما اريد تنفيذ الوصية لم يجد المسلمون عند الكفرة اسيراً واحداً لضعف الكفار وقوّة المسلمين •

واخيراً كان تقاه مضرب المثل فقد اخرج مصدّقاً يأخذ الصدقة على كتاب الله وسنّة نبيّه كما انه اكمل بناء المسجد الجامع بمدينة قرطبة وبنى عدة مساجد معه • وحتى تعمر المساجد بالناس « كان يصرّ الصرر بالاموال ويبعث بها في ليالي المطر والظلمة الى المساجد فتعطى الى من وجد فيها » كذلك كان جم التواضع « يحضر الجنائز ويزاحم فيها كأنه احد الناس المغمورين » •

وقد رأى بعض المؤرخين المشارقة في نسبة كل هذه الأمور اليه مبالغة واضحة[2] •

الحكم الربضي (١٨٠ ـ ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ ـ ٨٢٢ م)

لم يعهد هشام الرضا بالحكم من بعده لابنه الاكبر عبد الملك بل للذي

---

١ ـ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٦٥ ـ ٦٨ • الاخبار المجموعة ، ص ٢١١ ـ ١٢٤ •

٢ ـ أنظر عز الدين الشيباني المعروف بابن الأثير ، ١٩٦٥ ، ج ٦ ، ص ١٤٨ • وسنشير اليه فيما بعد باسمه الكامل •

يليه سناً ابي العاص الحكم • وامه ام ولد تدعى زخرف • ارتقى العرش وهو في السادسة والعشرين من عمره واستمرت امارته مدة تقرب من سبع وعشرين سنة • ومن الثابت انه كان غيوراً على سلطته لا يسمح لأحد بمشاركته فيها شأنه في ذلك شأن جده عبد الرحمن الداخل • كما انه كان قاسياً مع اعدائه والخارجين على سلطانه حتى ان لقبه « الربضي » جاءه من فتكته الذريعة بالثائرين عليه في ربض قرطبة اي ضاحيتها • اما الصفة التي يوردها له المؤرخون الاندلسيون فتختلف بحسب قربهم للبلاط او بعدهم عنه ، فالمقرّبون من الخلفاء لم يستطيعوا ذكر مساوئه لأنه جد اولياء نعمتهم لذا اعتبروا قسوته على الثائرين حزماً • وفي مجال التقى لم يكن بامكانهم ان يخفوا المشهور عنه من الانصراف للملاهي والصيد لكنهم ركزوا على توبته في آخر حياته واوردوا القصص التي تظهره غاية في التقى والعدل • اما البعيدون عن البلاط ، كالفقيه القرطبي المعروف ابن حزم ، فانه رغم تعصبه للأمويين وانحيازه للسلالة ككل[1] ينعت الحكم الربضي بأنه « من المجاهرين بالمعاصي السافكين للدماء »[2] •

أحداث فترة توطيد الامارة

تمّ توطيد سلطة الامراء في هذه الفترة من عصر الامارة بتخليصها من تسلّط الفقهاء ثم بتأمين انتقالها من امير الى آخر بصورة سلمية •

١ ـ الصراع حول العرش وفتنة الاخوين

تتكرر في هذه الفتنة مأساة ابناء الخلفاء المشارقة الذين يتنازعون على العرش بسبب عدم وجود قاعدة ثابتة أو قانون دقيق لتورثيه ، وكل ما هنالك

---

١ ـ أنظر مقارنة ابن حزم للدولة الأموية مع العباسية فيما يقتبسه عنه ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٣٩ ـ ٤٠ •

٢ ـ النفح ، ج ١ ، ص ٣٢٠ •

تقليد اتبعه الأمويون بعد معاوية ، جروا فيه على الاحتفاظ بالعرش في نطاق الأسرة الحاكمة ، اما الامور الأخرى المتعلقة بانتقاله مثل : من هو المحقّ من افراد هذه الأسرة ؟ هل هو اكبر افرادها سناً ؟ او هو الابن الاكبر ؟ او احد اخوة الخليفة المتوفي ؟ كل هذه الامور تركت للعاهل الحاكم يتصرف في تحديدها حسب مشيئته ووفق هواه ٠

في الاندلس سار عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية على هذا التقليد وقد اشتهر من اولاده ثلاثة اكبرهم سليمان ويليه هشام ويأتي بعدهما عبد الله ٠ وقد عيّن عبد الرحمن لولاية عهده ابنه هشام واعطاه حكم ماردة ، واعطى لابنه الاكبر سليمان حكم طليطلة ، بينما بقي الاصغر عبد الله الى جانبه في قرطبة ٠

عندما لفظ الأب انفاسه الأخيره قام ابنه عبد الله الموجـود في قرطبـة يأخذ البيعة لأخيه هشام الذي وصل بعد ستة ايام وارتقى عرش الامارة ٠ اما سليمان فلم يرض بامارة اخيه بل دعا لنفسه في طليطلة مقر حكمه ٠ وقوي موقفه في العام التالي لأن الأخ الاصغر عبد الله لم يكتف على ما يظهر بما ناله من برّ اخيه الامير واحسانه بل كان يطمع بأكثر من ذلك اي بحصة أكبر في الحكم ٠ ولما لم يتحقّق له ما يريد خرج من قرطبة مقرّ دار الامارة ووصل الى طليطلة مقرّ الثورة ٠

وفي العام التالي اي عام ١٧٣ هـ/٧٨٩ م حاول الامير هشام القضاء على فتنة أخويه بالتوجه لحصار طليطلة مركز الثورة مصمماً عـلى اخضاعها ، والدليل على ذلك ان سليمان خرج من المدينة متستراً بعد حصارها وحاول احتلال قرطبة مع انصار تجمعوا له ٠ ومع ذلك بقي هشام ثابتاً على حصار المدينة اكثر من شهرين ولكن المدينة لم تخضع ، وظلّت صامدة امام جيوشه التي كان يرسلها بعد فك الحصار بين الفينة والاخرى مدة تزيد على سنتين ، رغم انه استسلم خلالها عبد الله الى اخيه هشام دون عهد ولا امان وتوجه الى

شمال افريقيا حيث اقام مدّة في بلاط الاغالبة وانتقل بعد ذلك الى بلاط الرستميين في تاهرت .

اما سليمان فانه بعد توجهه الى قرطبة فشل في احتلالها وتنقّل بين عدة مدن كان عمال أخيه الامير يطردونه منها . وأخيراً حلّ في بعض مناطق تدمير فأخضعه ، جيش للأمير في نفس السنة وهي سنة ١٧٤ هـ ، واستسلم شريطة الامان لنفسه وان يعطى ٦٠ الف دينار مصالحة عن تركة ابيه عبد الرحمن[١].

ظلّ الأخوان هادئين طيلة ايام هشام الرضا . وعندما مات عام ١٨٠ هـ، عادا الى الاندلس ليقوما بالثورة على ابن اخيهما ولم يكونا مجتمعين في هذه المرة بل قام كل منهما بثورة خاصة به وفي اوقات متفاوتة . سارع عبد الله اولاً الى الاندلس ليسبق اخاه ، وحلّ اولاً في سرقسطة ، لعلمه بنقمة اهلها واستعدادهم الدائم للثورة على الامير الحاكم في قرطبة ، لكن زعماء المنطقة وقفوا ضده ، وعندما تأكد من فشل محاولاته ذهب برفقة ابنيه الى بلاط شارلمان الكارولنجي .

في العام التالي اي في عام ١٨١ هـ ، وصل الى الاندلس سليمان ، العم الاكبر للامير الحكم ، وعلى طول الطريق التي كان يسلكها في الاندلس ، كان يجمع حوله قوات من عناصر مختلفة ليهاجم بها العاصمة قرطبة . وقد حدثت بينه وبين الامير ابن اخيه خمس او ست معارك كانت فيها الهزيمة دائماً من نصيب العم الثائر ، وكانت الاخيرة فاصلة اضطر سليمان على اثرها للهرب بعدها الى ماردة ليحاول اثارة الاضطرابات هناك ، الا ان زعيم المدينة البربري اشتبك معه في معركة فأسره ثم قتله وبعث برأسه الى قرطبة . لم تكد تمضي ثلاث سنوات على خلاص الحكم من عمه الأكبر سليمان ، حتى عاد في عام ١٨٤ هـ عمه الاصغر عبد الله من بلاط الملك الكارولنجي ،

---

١ - ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٦١ - ٦٣ ؛ كامل ، ج ٦ ، ص ١١٦ - ١١٧ .

واستطاع احتلال وشقة في كورة سرقسطة ، ولكن لأمد قصير لأن حاكم المنطقة المولد اخرجه منها •

سار عبد الله بعد ذلك الى فالنسية ليهيء فيها انتفاضة اخرى ، ولكن محاولاته باءت بالفشل واصيب بالفالج قبل ان يتحرك مع أنصاره لمهاجمة اراضي الأمير ، فدخل في مفاوضات مع ابن اخيه واقترح عليه الصلح • ودامت المفاوضات امداً طويلاً وانتهت بارسال الأمير الامان لعمه مع احـد الفقهاء المشهورين ورضاه عنه شريطة ان يبقى في فالنسبة لايغادرها مقابل ان يحكمها كأمير مستقل وان يعطى رزقاً شهرياً قدره الف دينار ومعارف تقدر بألف دينار كل عام • بقي العم هادئاً في مدينته التي لقّب (بالبلنسي) نسبة اليها الى وفاته سنة ٢٠٨ هـ[1] ، اما من جهة الأمير ، فقد دعا رغبة في رأب الصدع داخل الاسرة الاموية ابني عمه الى بلاطه وزوجهما من اختيه • وقد اخلص هذان له واشتهر منهما عبد الله كقائدلا نظير لهفي قيادة الصوائف ضد دويلة اشتوريش المسيحية ، حتى أطلق عليه اسم صاحب الصوائف ، ولعب دوراً بارزاً ايضاً في رد الخطر عن الامير اثناء هجوم الربضيين عـلى القصر •

٢ ـ هيجة الربض والنزاع مع الفقهاء

لاتعود اهمية هذه الهيجة الى كونها ثورة عارمة قامت في العاصمة مقر الامارة وبلغت حداً من القوّة اوشكت معه ان تقضي على حياة الحكم بالذات بل الى كونها تعبيراً عن الصراع بين الفقهاء ، المسيطرين على العامة من جهة ، وبين الامراء من جهة ثانية ، على النفوذ في الدولة ، وادت نتائجها الى قيام علاقات وئام بين الطرفين ظل قائماً في الاندلس حتى اواخر ايام تاريخها •

جذور النزاع ومقدماته

تبعت الاندلس في اول الأمر مذهب الامام الاوزاعي السوري المتوفى

---

١ ـ الحلّة السيراء ، ج ٢ ، ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤ •

عام ١٥٧ هـ وبدأ تسرب المذهب المالكي في ايام عبد الرحمن الداخل عندما دخل موطأ مالك الاندلس بطريق حفظه في الصدور[١] • ثم خطا خطوات واسعة في مجال الانتشار في ايام هشام الرضا الذي ساد التعاطف بينه وبين الامام مالك بن انس ، وربما كان هـذا التعاطف ناتجاً عن عـداوة الاثنين للعباسيين ، ونجد في الروايات اقوالاً منسوبة للامام مالك فيها ما هو اكثر من المديح لهشام اذ قال لأحد الفقهاء القرطبيين الذي وصـل اليـه واخبره عن مذاهب هشام وحسن سيرته « ليت الله زيّن سماءنا بمثل هذا »[٢] • ويعلل الفقيه القرطبي المشهور ابن حزم كيفية انتشار مذهب من المذاهب بواسطة تقريب الامراء لفقهاء هذا المذهب قائلاً « مذهبان انتشـرا في بدء امرهمـا بالرياسة والسلطان مذهب ابي حنيفة في المشرق ، فانه لما ولي قضاء القضاة ابو يوسف كان القضاة من قبله فكان لا يولي قضاء البلاد من اقصى المشرق الى اقصى اعمال افريقيا الا اصحابه والمنتمين الى مذهبه ، ومذهب مالك بن انس عندنا ، فان يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاة، فكان لا يلي قاض من اقطارنا الا بمشورته واختياره ولا يشير الا باصحابه ومن كان على مذهبه والناس سراع الى الدنيا والرياسة فأقبلوا على ما يرجون بلوغ اغراضهم به[٣] » •

يستنتج من رأي ابن حزم ان قوّة الفقهاء في بلاط هشام كانت عظيمة• فلما جـاء الحكم وكان غيوراً عـلى سلطته لم يستسلم لتأثيرهم وقضى عـلى نفوذهم ، وكان من جهة ثانية ميالاً للهو ينفق الكثير من وقتـه في الصيـد والشراب ومن هنا توفرّت بينهم وبينه عوامل النزاع الذي تجلّى في ثـلاث حوادث •

---

١ ـ ابن الفرضي ، ج ١ ، ت ١٠١٥ •

٢ ـ افتتاح الاندلس ، ص ٦٥ •

٣ ـ الحميدي ، ص ٣٥٩ ـ ٣٦١ •

حوادث النزاع بين الحكم والفقهاء

في عام ١٨٩ هـ/٨٠٤ ـ ٨٠٥ م قام بعض اهالي قرطبة ، الناقمين على الحكم لمخالفته للدين والمحرّضين من قبل الفقهاء بمفاجئته ورجمه بالحجارة ولم ينقذه منهم سوى حماية الجند الحاضرين حوله • وبعد ايام اجتمع وجوه اهل قرطبة وفقهاؤها عند محمد بن القاسم ، احد المروانيين من احفاد عبد الرحمن الداخل ، واخذوا له البيعة ، وتظاهر هذا بقبول عرضهم ثم افشى السر الى الأمير ونقل اليه قائمة بأسماء المتآمرين ، وعلى اثرها امرالحكم بالقبض على اثنين وسبعين شخصاً[1] حسب رواية أو مائة واربعين حسب رواية اخرى[2]ثم عرضت جثثهم على الملأ فوق الصلبان • وبين هؤلاء المصلوبين كان ابن لقاض سابق لقرطبة وصاحب سوق والفقيه يحيى بن مضر • وفي العام التالي حدث خلاف بين بعض الباعة في قرطبة وصاحب السوق ، قامت على اثره مظاهرة للباعة والسلاح في ايديهم • كان الحكم آنذاك محاصراً لمارده ولما بلغه نبأ ما حدث في قرطبة رفع الحصار وعاد على جناح السرعة الى عاصمته ، حيث قام بالتحقيق بنفسه ثم امر بالقبض على زعيم المظاهرة وكان تاجراً وعلى زعماء آخرين كانوا وراء تدبيرها وتم اعدامهم جميعاً[3] •

تدابير الحكم

افلحت هذه الاعمال القاسية في جعل معارضي الحكم يرضخون مدة اثنتي عشرة سنة على مضض وفي النفوس ما فيها من سخط وتذمر • ولم يكن الحكم بغافل عن هذا بل اتخذ كل التدابير التي يحمي به نفسه ويقضي على أية حركة في مهدها • بدأ بترميم الاجزاء المتهدمة من سور المدينة وسد كل

---

١ ـ انظر : ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٧١ ؛ الكامل ، ج ٦ ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩ •

٢ ـ انظر : ابن الفرضي ، ج ٢ ، ص ١٧٤ ، ت ١٥٥٣ •

٣ ـ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٧٢ •

الثغرات الموجودة فيه ، كما قوّى أبواب القصر وانشأ باباً جديداً في جزء من السور يؤدي الى نهر الوادي الكبير الذي تقع عليه قرطبة وأطلق على هذا الباب اسم البوابة الجديدة • واخيراً اشترى كميات كبيرة من الأسلحة واعداداً ضخمة من العبيد وصلت الى خمسة آلاف مملوك ، منهم ثلاثة آلاف فارس والفا راجل[1] • تميّز هؤلاء عن المماليك الذين جلبهم جده عبد الرحمن بأنهم كانوا عاجزين عن النطق بالعربية فأطلق عليهم الناس اسم الخرس • جعل الحكم من هؤلاء حرساً له ، ومن جهة أخرى ، قسّمهم الى سرايا خفيفة تستطيع التحرك بسرعة ، ويذكر صاحب الأخبار المجموعة : « انه كان للحكم الفا فرس مرتبطة على شاطىء النهر بجوار القصر يجمعها داران على كل دارة عشرة عرفاء تحت يد كل عريف مائة فرس • فالعرفاء يشرفون عليها وتعلف بين أيديهم وينظرون في تعويض ما تعذّر منها لتكون معدّة قائمة لما عسى ان يفجأ من امر يفرغ اليه بها ، فاذا كانت حركة كانوا كنفس واحدة »[2] • في الجهة المقابلة كان الفقهاء من خصوم الحكم يجهدون لتوسيع دائرة السخط عليه والتذمر منه ، فظلوا يركّزون على قضية ابتعاده عن الدين ، وابدعوا وسائل جديدة لاثارة عواطف التقى والتدين عند عامة الناس ، فأحدثوا انشاء اشعار الزهد والحض على قيام الليل في المساجد ، وامروا المنشئين لها ان يخلطوا مع ذلك شيئاً من التعريض بالامير الحكم ، مثل ان يقولوا « يا ايها المسرف المتمادي في طغيانه ، المصرّ على كبره المتهاون بأمر ربه ، افق من سكرتك وتنبّه من غفلتك ••• » وما نحا هذا النحو[3] •

اضافة لذلك كانت اجراءات الحكم والظروف التي احاطت بالناس في هذه الفترة ، تساعد الفقهاء في مسعاهم ، اذ ان ازدياد نفقات الحكم بسبب

---

١ ـ النفح ، ج ١ ، ص ٣٢٠ •

٢ ـ الاخبار المجموعة ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ •

٣ ـ **عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، تحقيق : محمد سعيد العريان** ومحمد العربي العلمي • القاهرة ١٣٦٨ هـ ـ ١٩٤٩ م • ص ٢٠ •

ضرورات التسليح والتحصين جعلته يزيد على الضرائب المفروضة على الناس ، ضريبة عشر الأطعمة[1] . وهذا ما قرّب بين الفقهاء وأهل الاسواق ايضاً بالاضافة للعامة .

ثم جاء انحباس المطر ليزيد في النقمة على الامير ، فقد شهدت السنوات القليلة التي سبقت الاصطدام النهائي بين الحكم والقرطبيين قحطاً وغلاءً اديا الى مجاعة شديدة الوطأة ، نجد لها ذكراً في روايات المؤرخين « ففي سنة ١٩٧ هـ كان بالأندلس غلاء شديد وكان الناس يطوون الأيام ويتعللون بما يضبط النفس » وفي سنة ١٩٩ ، كانت المجاعة التي عمّت الأندلس ومات أكثر الخلق جهداً »[2] .

أحداث هيجة الربض

تقع قرطبة المسوّرة على يمين نهر الوادي الكبير أو على ضفته الشمالية ، وقد تتابعت عوامل متعددة بعد الفتح أدت الى جعلها تضيق بساكنيها ، اذ أصبحت عاصمة للدولة ثم تتابعت عليها أفواج من المهاجرين ، منهم الداخلون من العرب والامويين بوجه خاص والبربر للعمل في الجيش أو تحقيقاً لمتطلبات رابطة الولاء ، التي تربط بين بعضهم وبعض الامويين أو بعض العرب ، وأخيراً المرتزقة . وبدأ بعض الناس يسكنون على الضفة اليسرى من النهر . وفي أثناء حكم هشام الرضا بني الجسر الذي يصل قرطبة القديمة المسوّرة ومكان السكن الجديد ، الامر الذي جعل الكثيرين يستوطنون فيه وعرف باسم ربض قرطبة أي ضاحيتها . وبما أن المسجد الكبير كان على جانب النهر في قرطبة القديمة ، وكان عمل الفقهاء يتمركز في المسجد أو حوله ، لانه المركز الاداري بالاضافة لكونه المركز الديني ، لذا سكن الكثيرون منهم في الربض لقربه من مقر عملهم ولا يفصلهم عنه سوى النهر . كما سكنه

---

١ ـ انظر : الكامل ، ج ٦ ، ص ٢٩٩ .

٢ ـ انظر : ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٧٣ . والكامل ج ٦ ص ٢٧٧ .

الحرفيون وأهل الاسواق[1] حلفاؤهم وأتباعهم في النقمة على الحكم •
وهكذا أصبح الربض من دون سائر أنحاء قرطبة معقل خصوم الامير ومن الطبيعي أن ينفجر أتون الثورة التي سميت بهيجة الربض منه •

كانت الشرارة التي فجرّت هذه الهيجة عبارة عن خلاف بين صيقل واحد الخرس نشب عندما طلب الاخير من الاول أن يعجل في شحذ سيفه ، ولما أبى هذا اطاعة الطلب ونهره العبد ، ردّ عليه الصيقل بقتله • وكانت الحادثة بداية لثورة العامة[2] •

كان الامير حينذاك راجعاً من الصيد فلقيته جموع العامة وأحاطت بموكبه ، وبصعوبة بالغة استطاعت حاشيته أن تحميه وتسيّر موكبه ثم قبضت على عشرة من المتظاهرين أعدموا في الحال ولكن لم يكد الامير يدخل قصره حتى اجتاحت الثورة المدينة بأكملها ، فأغلقت المحلات وخرج العوام المتجمعون في الربض حاملين ما وصل الى أيديهم من سلاح من سيوف ومدي وعصي ، واندفعت جموعهم نحو الجسر قاصدة عبوره للوصول الى القصر •

توجهت جهود جنود الحكم الى الاحتشاد على الجسر ، وذلك لمنع الثائرين الربضيين من عبوره ومهاجمة القصر ، لكن هؤلاء الجند على كثرتهم لم يستطيعوا أول الامر الوقوف في وجه هذا الموج المتلاطم وأوشكت صفوفهم على التمزق ، ولم ينقذ الامير من تدفق العامة على قصره سوى تسلّل قائدين أمويين على رأس ثلة فرسان من قرطبة سراً بطريق البوابة الجديدة • وساروا بعد ذلك بحذاء النهر حتى وصلوا الى مخاضة عبروه منها ، وتوغلوا في الاراضي الواقعة قرب الضفة الاخرى من النهر ، محتجبين عن الانظار بمرتفعات تسمى دمنة الخشابين حتى وصلوا الى الربض •

---

١ ـ E. Levi Provençal; Histoire de l'Espagne Musulmane. T.I, p. 161-162.

٢ ـ ابن سعيد ، المغرب ، ج ١ ، ص ٤٢ ـ ٤٣ •

وعندما وصلوا الى أول المنازل فيــه أضرموا فيها النيران • حينذاك أدرك الثائرون المتجمعون على الجسر انهم أصبحوا بين نارين ، وبدأ بعضهم بالهرب لاستخلاص أهله وأولاده ، بينما تشجع جند الامير فهزموا من بقي من الثائرين ثم لاحقوهم وأعملوا فيهم السيف ، وأخرجوا من وجدوه في المنازل والدور ، فأسروهم ، وانتقى الحكم من الاسرى ثلاثمائة فقتلهم وصلبهم منكسين واستمرت هذه العمليات ثلاثة أيام • استشار الحكم بعدها أصحابه فيما سيفعل وقبل مشورة الذين قالوا بالعفو • فنودي بالأمان على انه من بقي من أهل الربض بعد ثلاثة أيام يقتل ويصلب فخرج من بقي منهم بعد ذلك مستخفياً • ثم أمر الحكم بهدم الربض كله وحراثة أرضه وزرعها وهذا ما جعل الربض خراباً يباباً أمداً طويلاً •

يقدّر المؤرخون العرب القدماء عدد الربضيين الخارجيين منه بعشرين ألفاً وهو رقم مبالغ فيه على ما يظهر • هاجرت قلّة قليلة منهم الى طليطلة ، حيث يمكنهم أن يحظوا بعطف سكانها المعادين للأمراء القرطبيين • لكن الاكثرية عبرت البحر ، فسكن قسم منها في مدينة فاس• وكان ادريس الثاني أمير المغرب في ذلك الوقت قد بنى الى جانب مدينة فاس التي بناها والده مدينة جديدة أطلق عليها اسم العليا واسكن فيها مهاجرين قدموا من القيروان ولما كان لا يريد أن تبقى فاس القديمة مسكونة بالبربر فقط ، شجع الربضيين القرطبيين على السكن فيها• فنزلوا فيها وأصبحت تدعى باسم « مدينة الاندلسيين »[1]•

أما البقيــة من الربضيين فقد قطعت مسافات أطول في البحر الابيض المتوسط ثم نزلت في الاسكندرية ، حيث تفرق أفرادها في جوانبها • وعندما اختلف أحدهم مع جزار من سوقة المدينة وأصيب تنادى الربضيون بالثأر وقتلوا عدداً من أهل البلد وأخرجوا البقية ، ثم امتنعوا بها وولوا عليهم أبا

---

١ ــ انظر : ترجمة مقال لليفي بروفنسال عن تأسيس مدينة فاس ، في « الاسـلام من المغرب والاندلس ، ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم وصلاح الدين حلمي ، ص ١ ــ ٥٠ •

حفص عمر بن شعيب البلوطي نسبة لفحص البلوط (Las pedroches حالياً) بجوار قرطبة • وظلوا يسيطرون على المدينة ويصدّون الهجمات التي تشن ضدهم ، حتى استطاع القائد العباسي عبد الله بن طاهر أن ينال منهم بعد حصارهم[1] ، فطلبوا الأمان ونالوه في صفر عام ٢١٢ هـ / مايس ٨٢٧[2] م توجه الربضيون بعد ذلك في البحر من جديد واحتلوا جزيرة كريت ، حيث حكمت أسرة قائدهم البلوطي ما يقرب من مائة وأربعين عاماً ، سقطت بعدها الجزيرة ، عندما كان يحكمها عبد العزيز بن شعيب ، بيد نقفور فوكاس قائد رومانوس الثاني (ارمانوس بن قسطنطين حسب الرواية العربية[3]) في سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م • وكانت نهاية أحفاد الربضيين ومن معهم مفجعة ، اذ احتل القائد البيزنطي عاصمة الجزيرة بعد مذبحة كبيرة وأمر بقتل سكانها ثم حمل الأمير عبد العزيز مع ابنه كأسيرين الى القسطنطينية[4] • أما من بقي في أنحاء الجزيرة الاخرى ، سواء من كان من أصل ربضي ، أو من بقية الناس الذين أتوا اليهم بعد استيطانهم للجزيرة ، فقد عادوا للتفرق • رجع قسم الى الاندلس وقسم آخر الى الاسكندرية ، واختار بعضهم سكنى صقلية[5] •

---

١ ـ ابن خلدون ، كتاب العبر ، بيروت ١٩٥٨ ، المجلد الرابع ، ٤٥١ •

٢ ـ لابن القوطية في افتتاح الاندلس ص ٧٣ ـ ٧٤ ، رواية اخرى تقول ان هرثمة بن أعين موفد الخليفة العباسي للربضيين في الاسكندرية قد اشترى منهم المدينة بمال كثير ، وخيرهم في المكان الذي يريدون النزول فيه ، فاختاروا اقريطش •

٣ ـ الضبي ، ت ١١٦٤ •

٤ ـ Karl Roth; Historia del Imperio Bizantino, p. 82.

٥ ـ المعجب ، ص ٢١ •

حركات المولدين

ان السمة الاساسية لعصر الامارة هي النزاع بين الغالبين ممثلين بالأمير الأموي والفاتحين من عرب وبربر من جهة ، وبين المغلوبين بقسميهم المولدين والمستعربين من جهة ثانية . كان دور المولّدين في هذا النزاع هو الاكبر والبارز ، مع أنهم ظلوا هادئين منذ بعيد الفتح حتى أيام الحكم في أواخر القرن الثاني الهجري ، أي بقوا هادئين زهاء قرن من الزمن . ومنذ ذلك التاريخ وحتى نهاية عصر الامارة في أوائل القرن الرابع الهجري ظلت حركاتهم مستمرة في الثغور ، وحدها حيناً ، وفي كل الاندلس حيناً آخر . وفي هذاالهدوء لمدة قرن والثورة بعد ذلك ما يدعو للتساؤل ، فلماذا ظلّوا هادئين هذه المدة ولماذا ثاروا واستمروا في ثورتهم بعد ذلك ؟ وقد يكون تفسير ذلك على الوجه التالي معقولا : ان الجيل الهادىء هو الجيل الاول أي ذلك الجيل الذي كان قوطياً من ناحية المجتمع الذي كان يعيش فيه والقوانين الناظمة لحياته ومسيحياً من ناحية عقيدته الدينية ثم دخل في الدين الاسلامي . وبذلك لم يغير دينه فقط ، بل استبدل القانون القوطي بالقانون الاسلامي ، وهو أمر حقّق له فوائد كثيرة ومنافع جلّى ، فمن الطبيعي والحالةهذه أن يكون هادئاً . أما بالنسبةللأجيال التالية فقد أصبحت هذه المنافع جزءاً من حياتها وبرزت لها مساوىء جديدة أدت الى ثورتها . ويمكننا أن نتبين هذه الفوائد اذا القينا نظرة سريعة وعابرة علىبعض نواحي حياة الطبقات الاجتماعية في المجتمع القوطي والقوانين التي تحدّد العلاقات بين أفرادها ، بعضهم مع بعض ، وبينها وبين الملك .

طبقات المجتمع القوطي

النبلاء • ـ تكوّن المجتمع القوطي من طبقات اجتماعية متفاوتة المكانة اقتصادياً وحقوقياً وكان على رأسها طبقة النبلاء المؤلفة من كبـار الموظفين وأصحاب الاملاك الواسعة وكبار الكنسيين • وتقوم النبالة على أحد أساسين الوظيفة أو ملكية الارض ، وهذا ما يجعلها مرتبطة بالملك لأنه مانح الوظيفة ومقطع قسم كبير من الاراضي • وممن الممكن أن يطلق على هذه الطبقة اسم طبقة أصحاب الامتيازات لما لها من امتيازات حقوقية ، اذ لا تطبق عليهـــا العقوبات الجسدية التي كانت تفرض على طبقة الاحرار البسطاء كعقوبة على بعض الجرئم • وكمثل على ذلك كانت عقوبة امتهان أمر ملكي من قبل أحد الاحرار البسطاء ١٠٠ جلدة ، بينما يعاقب النبيل اذا ارتكب نفس الجرم بدفع غرامة قدرها ثلاث قطع ذهبية •

الاحرار البسطاء • ـ وهي التي تكوّن ما يمكن أن يسموّا بالرعية ، وتنقسم الى فئتين الأولى منهما قليلة العدد آخذة بالتضاؤل أيضاً وقام الملوك القوط باتخاذ بعض التدابير للحيلولة دون زوالها نهائياً ، وهي فئة المستغلين اقتصادياً • أما الفئة الثانية الكثيرة العدد من هذه الطبقة فهي فئة التابعين اقتصادياً Encomendados Bucelarios ، وتكوّنت نتيجة لطبيعة الحكم وظروف الامن بقيام شخص أو جماعة بالاحتماء بشخص من كبار أصحاب الاراضي أو الوظائف فيصبح تابعاً له وترتبط بين الاثنين علاقات متبادلة محددّة • يقوم الأعلى بموجبها بمنح أرض أو حماية للأدنى أو كليهما معاً ، مقابل مال يدفعه له وخدمات يؤديها له • أما وضع هذه الطبقة ، بقسميها : المستقلون اقتصادياً والتابعون ، من ناحية حقوقية • فان لهم أهلية حقوقية اذ تقبل شهاداتهم أمام القضـــاء ويحق لهم تولي بعض الوظائف الصغيرة المعينة • أما من ناحية العقوبات التي يمكن فرضها عليهم ، فليست لهم امتيازات الطبقة النبيلة من ناحية الاعفاء

من العقوبات الجسدية ، ولكنهم يتميزون عن العبيد في هذا المجال ، فبعض الجرائم التي يعاقب عليها العبيد بالجلد ، لا يعاقب عليها الاحرار البسطاء بمثل ذلك • وفي بعض الجرائم الاخرى التي يشتركون فيها مع العبيد في الجلد كعقوبة عليها ، يكون عدد الجلدات التي تنزل بهم أقل • هذا الوضع الحقوقي يعكس لحد ما مكانة هذه الطبقة الاجتماعية ، لكن ما هو أكثر دلالة على هـــذه المكانة ، الاســماء التي تطلق على هـــذه الطبقة في الوثائق والنصوص الرسمية Humilores الوضيعون Minores الاصاغر Inferiores personae الناس الأدنون •

الطبقات الدنيــا : ـ تلي طبقة الاحرار في السلّم الطبقي طبقة المعتقين وهم أكثر من السابقين وضاعة من ناحية حقوقية ، اذ لا يستطيعون الزواج من طبقة أسيادهم ولا تنقطع صلة الولاء التي تربط بين الواحد منهم وسيّده الذي اعتقه لأنه اذا تآمر عليه أعيد الى حالة العبوديــة ، واذا مات دون وريث ورثه سيده •

وكذلك وجدت فئة قليلة من الاقنان من بقايا طبقة الـ Colonato في العصر الروماني •

وأخيراً يأتي العبيد في آخر درجة من درجات سلّم الطبقات الاجتماعية، ويعاملون حقوقياً معاملة البهائم ، وكمثل على ذلك انه عندما تتزوج عبدة تابعة لسيد من عبد يتبع سيداً آخر يكون الاولاد لسيد الأم • بينما يكون الأمر في حالة تزوّج قنّ يتبع سيداً من واحدة من طبقته تعيش على أرض سيد آخر يتقاسم السيدان الابناء[1] •

يتبين من كل ما مرّ أن غالبية الناس في المجتمع القوطي كانت عبارة عن طبقات وضيعة تعامل معاملة تختلف عن معاملة الطبقات المتميّزة• وتنحدر انسانية المعاملة مـع انحدار الطبقة حتى تصل الى طبقة العبيد التي تعامل معاملة البهائم •

---

١ ـ Manuel Torres; España Visigoda, p.p. 200-217.

ومن الطبيعي أن تتفتح أعين هؤلاء الناس على سوء وضعهم بعد احتكاكهم بالفاتحين الذين انتظمت العلاقات فيما بينهم حسب القانون الاسلامي أو أحكام الشريعة الاسلامية التي تسوّي بين الجميع أمام القانون. فلكل جريمة عقوبتها بغض النظر عن مكانة من ارتكبها أو مرتبة من حلّت به أميراً كان أم حقيراً غنياً أم فقيراً. ولا بد لهم اذا أرادوا التمتع بمثل هذه القوانين من الدخول في مجتمع الفاتحين أي اعتناق الدين الاسلامي . أضف الى ذلك أن دخول الدين الاسلامي كان يقدّم لبعض الفئات منافع أكثر ، اذ أنه طريق العبد الى الحريّة . ويمكن الاعتقاد دون خوف الوقوع في الزلل ، ان من دخلوا في الدين الاسلامي كانوا في غالبيتهم من هذه الطبقات ، لأنهم في الاصل أكثرية في المجتمع . ومع أن الكثيرين من أفراد الطبقة النبيلة هربوا من البلاد التي فتحها المسلمون ، الا أن العديد ممن بقوا في البلاد دخلوا في الدين الاسلامي أيضاً لتحصيل منافع معينة ، فقد رأينا أن النبالة في العهد القوطي مرتبطة بالملك الذي يمنح الارض ويمنح الوظيفة أساسي النبالة ، وربما بقي هذا المفهوم قائماً لديهم عند دخول الفاتحين ، فوجدوا أن التقرّب منهم والتدين بدينهم يساعدهم على الابقاء على ما بأيديهم ، ولعلّ في بني قسي نبلاء منطقة سرقسطة وسارة القوطية وريثة أحد كبار نبلاء الجنوب أفضل مثل على ذلك[1] .

هذه هي حالة الجيل الاول من المولدين أو جيل المسالمة الذي عاش في مجتمعين وتقلّب به الحال بين نظامين ، فتوفّر له تبين أفضلية العيش في ظل المجتمع العربي الاسلامي وضمن قوانينه على العيش في المجتمع القوطي، فلا غرابة في ركونه الى الهدوء والخضوع أما الاجيال التي تلته فلم تعان التجربتين ، وتوفّرت ظروف معينة مرتبطة بأمكنة ثوراتها أدت الى نقمتها وبالتالي الى ثورتها .

---

١ ـ الجمهرة ، ص ٥٠٢ ، وافتتاح الاندلس ، ص ٣١ ـ ٣٢ .

من كل ما مضى نستطيع أن نستشّف الاسباب التي أدت لوضع بداية حركات المولدين • وبعد بدايتها يلاحظ انها ظلت حتى أواسط القرن الثالث الهجري ، مقتصرة على الثغور فما هي العوامل التي ربطتها بهذه الامكنة خلال تلك الفترة الطويلة من عصر الامارة والممتدة منذ أواخر القرن الثاني الهجري الى أواسط القرن الثالث •

حركات المولدين في الثغور

نقصد بالثغور تلك المدن القريبة من خط الحدود مع مسيحيي الشمال والتي اتخذها المسلمون كمعاقل للاعتصام بها عند الخطر ، ولتنظيم وسائل الغزو عندما يتقرر القيام به • وهذه الثغور ثلاثة : تبدأ في الشمال الشرقي بمدينة سرقسطة التي تدعى بالثغر الاعلى أو الاقصى ، وطليطلة المسماة بالثغر الاوسط والواقعة على نهر التاجو أما الثغر الادنى فكان في مدينة ماردة ، ثم انتقل الى بطليوس الواقعة عند منعطف وادي عانة (وتبديل اتجاهه شرق ــ غرب باتجاه من الشمال الى الجنوب) •

وقد أدت عوامل متعددة وكثيرة لقيام حركات المولدين وتمركزها في الثغور دون سائر المناطق الاخرى ، ونستطيع أن نجمع أهمها بما يلي :

١ ــ اجماع عناصر سكانها على كره العرب : رأينا أن الغالبية العظمى من العرب استقرت في الجنوب وخاصة في وديان أنهاره وسهوله الخصبة وابتعدت عن مناطق الشمال لوعورتها وسيطرة الجفاف عليها بصورة عامة • وهكذا تألفت أكثرية عناصر سكان هذه المناطق من السكان الاصليين بقسميهم من مستعربين ومولدين ثم من البربر ، وقد رأينا سابقا أن البربر اختصوا بسكنى هذه المناطق من بين الفاتحين • وكان من الطبيعي أن يكره المولدون العرب لاحتقارهم لهم كما كان شأنهم في احتقار الموالي المغلوبين ، والدلائل على هذا الاحتقار كثيرة ، نذكر منها شاهداً واحداً من زمن عبد الرحمن

الداخل فعندما أتى وفد الفهري الى عبد الرحمن ومعه رسالة يحملها عبد الله ابن خالد ، مولى الفهري الاسباني الاصل وكاتب الرسالة ، وقال لعبيد الله بن عثمان متباهيا « ستعرق ابطاك يا أبا عثمان قبل أن تحبر فيه جوابا » اعتبر عبيد الله هذا الكلام اهانة شديدة ، وخاصة انه صدر عن اسباني « علج ابن خبيثة[1] » . أما البربر فلا تخفى كراهيتهم للعرب تلك الكراهية التي عبروا عنها بأشكال مختلفة بالثورة عليهم حينا ، وبالانخراط في صفوف الدعوات التي تدعو لتحطيم حكمهم في المغرب الاسلامي كالحركات الخارجية والشيعية . ولم يكتفوا بالهجوم عليهم بحد السنان بل انتقلوا لحربهم باللسان شأنهم في ذلك شأن موالي المشرق ، ويمكن أن نعثر على شواهد لذلك بشكل حوادث فردية : كتلك التي حدثت أواخر حكم عبد الرحمن الداخل ، ففي أثناء مسيرة عبد الرحمن نحو سرقسطة لاخماد ثورتها : « فاخر حفص ابن ميمون (وهو بربري) غالب بن تمام (الثقفي) ففضّل مصمودة على العرب فضربه غالب بالسيف فقتله ، فلم يكن من الامير في ذلك نكير[2] » . وما دام كره العرب قد غلب على هذين العنصرين اللذين جمعتهما مع العرب رابطة الدين فمن الاحرى أن يكون كره المستعربين لهم أشد لاختلافهم عنهم في كل شيء ، وخاصة في الدين .

٢ ـ ملائمة الاوضاع الجغرافية في الثغور للقيام بهذه الثورات : فقد كانت هذه الثغور بعيدة عن العاصمة مقر الخليفة والمكان الذي تتوجه منه الجيوش عادة لاخماد الثورات ، كما أنها قريبة من أراضي أعداء الدولة ، وهذا ما يسهل على الثائرين الهرب في حالة الهزيمة أو وصول النجدات بسرعة في حالات الضيق . أضف الى ذلك ، انه رغم سيطرة الجفاف على مناطق الثغور بصورة عامة الا أن المسلمين اختاروا الثغور في أمكنة خصبة وعلى وديان الانهار ، كي تكون الثغور محاطة بأراض خصبة تجعلها قادرة على

---

١ ـ الأخبار المجموعة ، ص ٨١ .
٢ ـ الأخبار المجموعة ، ص ١١٣ .

تموين الجيوش أيام الحشد ، وعلى اعطاء الثغر انتاجا يبقى فيه فائض يخزن لتعرض هذه المدن لخطر الحصار •

٣ ـ يضاف الى ما تقدم عوامل أخرى متفرقة منها أن هذه المدن بطبيعة كونها ثغوراً كانت محصّنة مما يثبت الشعور بالطمأنينة لدى الثائرين والأمل بنجاح المقاومة ، ووجود اقطاعيين كبار في بعض هذه الثغور ، كانت لهم قوتهم المادية بالاضافة للقوة البشرية من العبيد وفلاحي الاراضي ، وكذلك كانت لهم حصونهم داخل هذه الاراضي على عادة اقطاعيي العصور الوسطى •

وبالاضافة لهذه العوامل الهامة لثورات الثغور هناك عوامل خاصة ببعض الثغور سنشير اليها عند البحث في ثورات هذا الثغر •

السمات العامة لثورات الثغور

١ ـ تزعم المولدون الحركات فيها وكان قوادها منهم في الغالب ، ويظهر أن ذلك كان نتيجة لتفوقهم العددي ، ويليهم البربر ومنهم كان بعض قواد هذه الثورات ويأتي عنصر المستعربين في المرتبة الاخيرة •

٢ ـ مشت هذه الحركات بالتدريج نحو التحالف مع دويلة أو دويلات الشمال المسيحية ، فبينما كانت الحركات الاولى في أول عصر الامارة تعتمد على قوى المولدين وحلفائهم الخاصة ، نراها في الحركات التي تلتها تتصل بالخارج ولو أن اتصالها اقتصر على تبادل الرسائل وتلقّي التشجيع والتحريض ، ولجوء الزعماء الثائرين الى أرض العدو ومعاونته ضد المسلمين ، وأخيراً أصبحت حليفة للعدو الخارجي تستقدم جيوشه الى أراضيها وتحارب قواتها وقواته جنباً الى جنب •

٣ ـ قاوم الامراء الامويون هذه الحركات بعنف وشدة اختلفت من أمير الى آخر ، الا أنها كلها توصلت لاخماد حركات الثغور ، وسار الامر على هذا المنوال حتى بعيد منتصف القرن الثالث ، أي حتى قامت حركات

المولدين في الجنوب اضافة الى الثغور ، وحينذاك لم يستطع الامراء الامويون مقاومة كل أعدائهم ، فاضطروا للسكوت واغماض العين عن تأسيس الثائرين لامارات مستقلة في هذه الثغور ، دام بعضها ما يقرب من نصف قرن •

٤ ـ انتبه بعض قواد ثورات المولـدين الى ضرورة ايجاد رابطة بين أتباعهم تضاف الى رابطة العداء للعرب والرغبة في التخلص من حكم أمراء قرطبة ، ولذا نشأ في ماردة وبطليوس مذهب خليط من الديانتين المسيحية والاسلامية[١] •

حركات الثغور في فترة توطيد الامارة

في فترة توطيد الامارة قامت حركات في الثغور الثلاثة أيـام الحكم الربضي فلو بدأناها من ناحية مكانية نرى في الثغر الادنى مدينة ماردة تثور في ١٩٠ هـ / ٨٠٦ م وتظل ثورتها قائمة مدة سبع سنوات كما تقوم ثورة أصغر منها في الأشبونة (لشبونة حالياً) بعد ثلاث سنوات من بدء قيـام الثورة في ماردة • وكذلك قامت ثورات صغيرة متفرّقة في منطقة الثغر الاعلى • لكن الثغر الذي ضرب الرقم القياسي في الثورات خـلال عصر الامارة كله كان ثغر طليطلة ، وقد رأينا سابقاً انه كان منذ زمن عبد الرحمن الداخل مأوى للثائرين عليه ، وظلّ هكذا حتى نهاية عصر الامارة • وقد استلفتت شهرة طليطلة بالثورات أنظار المؤرخين قديماً وحديثاً ، فأحد مؤرخي الاندلس القدماء يقول عـن الطليطليين انهم كانـوا « من الشر والطغيان والاستخفاف بالعمال مالم تبلغه قط رعيّة من ولاتها »[٢] ويحصي مؤرخ حديث عدد السنوات التي ظلت فيها طليطلة تدين بالطاعة لقرطبة خلال عصر الامارة ، فيجدها أقل بكثير من عدد السنوات التي كانت متمردة فيها على الامراء • وربما يرجـع السبب في كثرة ثوراتها الى أن المدينة كانت عاصمة القوط وظلت تحتفظ بذكريات ماضيها متمثلة في القصور الملكية

---

١ ـ R. Dozy, Histoire ..., T. II, p. 11.

٢ ـ أنظر : افتتاح الاندلس ، ص ٦٨ •

وفي كونها مركز مطران اسبانيا ورئيس كنيستها[1] • وتكاد تكون ثـورة طليطلة في فترة توطيد الامارة أشهر ثوراتها كمـا أن موقف الامراء منها يمثل لنا أيضاً ذروة القسوة التي عامل به الامراء الخارجين على سلطانهم •

موقعة الحفرة في طليطلة

في السنة التالية لارتقاء الحكم عرش الامارة ثار عليه الطليطليون وبايعوا عبيدة بن حُمَيْد ، كما برز فيهم خلال هذه الفترة الشاعر غربيب الطليطلي ، الذي كان يذكي فيهم روح الثورة • كلف الحكم بحربهم أحد مواليه من المولدين ، هو عمروس الحاكم في مدينة طلبيرة القريبة منهم • قام هذا بمحاربتهم أولا ويظهر انه وجد صعوبة في اخضاعهم بالمواجهة ، فلجأ الى تحطيم الثورة من الداخل ، واتصل لهذه الغاية ببني مخشي من طليطلة ووعدهم بمثوبة جليلة من الأمير فقام هـؤلاء باغتيال زعيم الثورة وهربوا الى طلبيرة[2] • وهكذا نجح في تنفيذ أول حلقة من سلسلة عملياته الهادفة الى تحطيم ثورة الطليطليين وهي ضرب الطليطليين بعضهم ببعض • وكانت الحلقة الثانية التقرّب من أهـل طليطلة الباقين فيها واظهار الود لهم عـن طريق الفتك بأدواته الذين فتكوا بزعيم الثورة • وهكذا ترك بني مخشي تحت رحمة بربر طلبيرة الذين كان لهم عليهم ثارات ففتكوا بهم •

عندها أصبح دخول طليطلة ميسوراً لـه فدخلها كوال ليعمل فيها وفق خطة متفق عليها مع الحكم بدأت بالتقرب من أهلها • فقد أرسل الحكم كتاباً للطليطليين يقول لهم فيه « اني قد اخترت لكم فلاناً وهو منكم لتطمئن قلوبكم اليه ، وأعفيتكم ممن تكرهون من عمالنا ومو الينا ، ولتعرفوا جميل رأينا فيكم[2] » وعندما أنس البعض بهذا الوالي أسرّ اليهم بأنهم أحب اليه من بني أمية لأنهم بني جلدته •

---

١ ـ عن احتفاظ طليطلة بامجادها الماضية ، أنظر :

Isidro de las Cagigas, Los Mozarabes, T. I, p. 147.

٢ ـ الكامل ، ج ٦ ، ص ١٥٨ •

بعد ذلك أقنع الزعماء بأن من أسباب شر الحكم الأموي مداخلة الحشم (جند السلطان ومماليكه) ومخالطتهم في السكن للطليطليين وبنيهم ونسائهم ولذا من الافضل بناء قصبة خاصة يقيمون فيها بمعزل عن السكان ، فبنيت القصبة وأخذ التراب اللازم للبناء من نفس الارض فترك فيها حفرة ٠ وجاءت الخطوة الاخيرة للاجهاز على زعماء طليطلة ، مثيري الشغب فيها ٠ باعلان النفير في قرطبة نظراً لتحرّك العدو في الشمال ٠ وسار جيش كبير من قرطبة بقيادة ابن الامير لملاقاة العدو وردّه عن الثغور ٠ وعندما وصل الجيش الى مقربة من طليطلة أعلن أن العدو قد انسحب فتوقف الجيش عن المسير ، وبدأ الامير يهيىء أسباب العودة الى العاصمة ٠ وهنا خرج عمروس للسلام عليه ومعه وجهاء طليطلة ، وبعد التحية أوحى عمروس للطليطليين بأنه من غير اللائق أن يعود الامير دون وليمة تقام له في مدينتهم فدعوه ٠ أظهر الامير تمنعاً كبيراً في اجابة الدعوة وقبلها أخيراً ٠ وللرد على دعوتهم ، أقام لهم وليمة وأشيع أيضا انه سيخلع عليهم ويصلهم فدعى جميع وجهاء المدينة الى القصبة ٠ رتّب دخولهم من باب يقع في طرف القصبة ، وكانت دوابهم ترسل الى باب يقع في الطرف الآخر على أساس أن يكون الخروج منه ٠ لكن أحداً من الداخلين لم يخرج اذ أن جنوداً اصطفوا على جانب الحفرة يستقبلون جماعات الداخلين بقطع رؤوسهم والقاء جثثهم في الحفرة[1] ٠ قضي بهذه الوسيلة على حوالي سبعمائة من أعيان المدينة الثائرة[2] ٠

بهذه القسوة ركنت طليطلة الى الهدوء مدة خمس عشرة سنة ، انكبت فيها على تضميد جراحاتها ، وبعدها عادت لعادتها القديمة في الثورة على الامراء ، وثارت ثورتين أخريين على الحكم خلال العشر سنوات الاخيرة من حكمه ٠

---

١ ـ افتتاح الاندلس ، ص ٦٨ ٠

٢ ـ ورد هذا الرقم عند ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٧٠ ٠ أما ابن القوطية ، في افتتاح الاندلس ، ص ٧٠ فيوصل رقم الضحايا الى خمسة آلاف وثلاث مائة ونيف وهو رقم مبالغ فيه دون شك ٠

العلاقات الخارجيـة

نهاية السيادة العربية على دولة اشتوريش

في العام الذي ارتقى فيـه هشام الرضا عرش الامارة ، توفي ملك اشتوريش الموالي للعرب ، ومات بموته نفوذ الحزب الموالي لأمراء قرطبة. تولى بعده Bermouda برموده بعد أن كان منعزلا عن الناس في أحـد الاديرة ، وفي عهده استؤنفت الحملات الاسلامية عـلى الشمال ، وأثبت عجزه التام أمامها مما جعل الخسائر عظيمة . ولذا لم يكد يمضي عليه في الحكم أكثر من سنتين حتى حكم بدلا عنه الفونسو الثاني ، الذي يرد اسمه في المرويات العربيـة « إدْفُونش » حفيد الفونسـو الاول موسّع دولـة اشتوريش . وكان وصولـه للحكم انتصاراً مطلقاً للحزب المعادي للعرب والمسلمين أو حزب الطلقاء . ومن أعماله البارزة نقل مقر الملوك من الجبال الى السهول الشـمالية وعلى مقربـة من الساحل حيث جعله في أوبيدو Oviedo ، مما يدل دلالة قاطعة على أن دويلة اشتوريش قد أصبحت في هذا العهد أكثر أمناً وقوّة . وطالت فترة حكمه التي امتدت من سنة ٧٨١ ـ ٨٤٢ م / ١٦٤ ـ ٢٢٧ هـ ، فعاصر ثلاثة أمراء قرطبيين : هم هشام الرضا والحكم الربضي ونصف عهد عبد الرحمن الثاني . وكانت العلاقات حربية دائماً ، سيرّ المسلمون حملات في كل صيف تقريباً خلال فترة حكم هشام الرضا ، وحققوا انتصارات رائعة في كثير منها ، اذ استطاعوا دخول العاصمة أوبيدو عدة مرات واحراقها ، ووصل الأمر بالفونسو من السوء حداً أوشك معه في بعض المعارك على الوقوع في الاسر . ولم يستطع في أغلب الاحيان أن يرد بأكثر من الهجوم على مؤخرة المسلمين في الخوانق الجبلية الوعرة، أثناء العودة ، وكانت معرفته الجيدة بالأرض تتيح له ايقاع بعض الأذى بهم.

بعد موت هشام الرضا وخاصة خلال العشر سنوات الأولى من امارة

الحكم الربضي ، انتعشت دويلة اشتوريش لانشغال أمير قرطبة عن توجيه الحملات اليها بمعالجة الانتفاضات الداخلية ضده والحركات المناوئة له في الثغور الثلاثة ، ماردة وطليطلة وسرقسطة • واستطاع الفونسو خلالها أن يقوم بغارات بعيدة العمق داخل الاراضي الاسلامية وخاصة في أقصى الغرب ، حيث عبر نهر دويره ، وسار بعيداً نحو الجنوب حتى الاشبونة (لشبونة الحالية) التي احتلها عام ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م ثم بعث بسفارة الى شارلمان لينبئه بذلك ، ولم يستطع المسلمون استعادتها الا بعد ١١ عاماً أي عام ١٩٣ هـ / ٨٠٨ ـ ٨٠٩ م • وبعد كل غارة من الغارات التي كان يوغل فيها داخل الاراضي الاسلامية كان لا يعود بالغنائم فقط ، بل بمستعربين أندلسيين استخدمهم في اعمار أراضي دولته[١] •

واذا تركنا جانباً توالي النكسات والانتصارات في حياة هذه الدويلة ، نرى انها خرجت من هذه الفترة وحروبها وقد تهيأت لها جميع عوامل التوطد • فقد خرجت على سلطان أمير قرطبة منذ وفاة عبد الرحمن الداخل، ولم تستطع كل الحملات التي وجهها المسلمون أن تعيدها الى حظيرةالطاعة، ورغم كل خسائرها ظلت تحتفظ بقوّة كافية لتخترق نهر دويرة ، في فترة انشغال الحكم لتحتل جزءاً في جنوبه •

والمظهر الثاني من مظاهر توطدها ، يرى في ظهور جميع مؤسسات الحكموالادارة فيها على النمط القوطي الذيكان سائداً في اسبانيا قبل الفتح• وكانت منذ نشوئها حتى هذه الفترة عبارة عن كتلة من المحاربين يرأسهم قائد يطلق عليه تجاوزاً اسم ملك ، ويخضع حيناً لامراء قرطبة ويتمرد عليهم حيناً آخر • أما الآن فأصبح لها قانون مستقى من القانون القوطي القديم حسبما يذكره النبلاء والقسس ويتضمّن أحكاماً تتعلق بالحياةالمدنية

---

١ ـ E. Levi Provençal; Histoire ...., T.I, p. 174.

وأخرى بالتنظيم الكنسي والطقوس والملك وسلطانه ونظاماً للتشريفات الملكية[1] .

أما المظهر الثالث من مظاهر التوطد فهو ظهور الاساس الديني لها ، وكان ضرورياً في هذه الفترة التي تتخلص فيها من براثن الموت وتخوض حروباً دينية بحتة . فقد بدأ يسود فيها بالتدريج اعتقاد مؤداه أن اسبانيا يحميها أخو المسيح وناشر المسيحية فيها Santiago de Compostela أي القديس يعقوب أحد الرسل . وقد أطلق عليه العرب الاندلسيون اسماً محرفاً للفظ الاسباني هو شانت ياقب . بدأت هذه العقيدة بالظهور أيام موريغاتو عندما دخل في طقوس اشتوريش عيد خاص بالقديس يعقوب باعتباره حامي اسبانيا وسيدها وأنشيء نشيد خاص لهذه المناسبة . وجاءت الخطوة الثانية في أيام الفونسو الثاني ، أيام الصراع الحربي المرير مع المسلمين عندما تعلقت الآمال بحماية القديس يعقوب لهذه الدويلة وتخليصها من المحنة المدمّرة التي تتعرض لها ، اذ شاع الاعتقاد بأنه في نقطة معينة من أطراف جليقية ، أو في أقصى الزاوية الشمالية الغربية من شبه الجزيرة الايبيرية ، توجد بقايا للقديس يعقوب . ثم زاد الخيال الشعبي في هذا الاساس ، فجعل ما هو موجود في هذا المكان ليس بقايا وانما رفات القديس بكاملها . وسرعان ما أصبح ضريح القديس حيث بنيت له كنيسة فخمة محجاً ليس للاسبان فقط بل لكل مسيحيي أوربا الغربية . وكان الناجون من المعارك بما فيهم الفونسو الثاني يأتون الى ضريحه ليركعوا أمامه ويقيموا طقوس الشكر .

لا ريب أن هذا الاعتقاد كان يقيناً ثابتاً لدى المسيحيين في أوربا ، وقد أفاد الاسبان من ناحية اثارة الحماس الديني من جهة ، وبث الثقة بالنفس من جهة أخرى ، ومع ذلك فان علاقة القديس يعقوب باسبانيا ليس لها أساس تاريخي ، ويعود ابتداعها الى ما قبل ما أكثر من قرنين ، ففي أول القرن السابع

---

١ ـ Luis G. De Valdeavellano, Historia de España, T.I, p.p. 434-437.

الميلادي ترجمت الى اللاتينية سير للرسل واردة من المشرق ، ومن بينها سيرة القديس يعقوب التي ورد في النص الأصلي لها انه بشر في فلسطين ومات في القدس ، لكن المترجم أضاف بأن يعقوب بشر في اسبانيا وعاد بعد ذلك الى فلسطين ليستشهد ، ثم انتقلت الفكرة الى مؤلفات أخرى ففي كتاب آخر الف بعد قرن وثلاثة أرباع القرن تحدّث فيه المؤلف عن نشر المسيحية . وخصّ كل بلد بقديس نشر المسيحية فيه . وكانت اسبانيا من نصيب القديس يعقوب (شانت ياقب) .

هذا ما يتعلق بصحة الاساس التاريخي للفكرة . وفيما يتعلق بأصالة البقايا في الضريح فهناك نقاش حول الموضوع . اذ أن بيريث دي أوربيل Perez de Urbel [1] يرى استناداً على مدلول بعض الآثار ، انه منذ قبل الفتح الاسلامي كان الاسبان في جهات ماردة يقيمون طقوس تقديس لبقايا القديس يعقوب في جهات ماردة ، وعندما هرب رجال الكنيسةمنها اثر الفتح حملوا معهم هذه البقايا الى الشمال ودفنوها في الضريح الذي قدّس . أما أميريكو كاسترو Americo Castro ، فيرى أن مكان ضريح القديس يعقوب كان مزاراً وثنياً في الاصل ، وأن تقديسه في هذه الفترة كان وجهاً من أوجه التأثير الاسلامي في اسبانيا . اذ كان من الضروري معارضة الحماس الديني عند المسلمين باعتقاد يثير الحماس الديني المسيحي في وقت أوشك فيها المسيحيون والمسيحية في شبه الجزيرةعلىالزوال . ولذا اشتُقّت صورة القديس يعقوب من الصورة التي اعتقد المسيحيون أن المسلمين يتصورون نبيهم بها . فاذا كان محمد نبياً كالمسيح ، فالقديس يعقوب أخوه ، وكما أن محمداً كان محارباً كذلك كان القديس يعقوب يظهر في المعارك لينصر أتباعه وهو يمتطي صهوة فرسه البيضاء المنيرة .

---

١ ـ Perez de Urbel; Primeros contactos ...., Arbor, abril XXIV, 1953. p.p. 515-525.

١ ـ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٦٤ .

العلاقات مع الدولة الكارولنجية في فترة توطيد الامارة

خطت الدولة الكارولنجية في هذه الفترة الخطوات الاخيرة نحو انشاء ما سمي بالثغر الاسباني ، بدأت هذه الفترة بهجوم قام به الاندلسيون قبيل وفاة هشام الرضا ، وشنت حملة لهم هجوماً على خيرونا ، التي احتلت كما رأينا في عهد عبد الرحمن الداخل عام ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م وأصبحت جزءاً من مملكة اكيتانيا • وعلى الرغم من حصارهم لها وتهديمهم لاسوارها وقتل عدد من المدافعين عنها الا أنهم لم يستطيعوا احتلالها • فتجاوزوها وعبروا البيرنية ووصلوا حتى اربونة فأحرقوا ضواحيها وانتسفوا زروعها واتجهوا نحو قرقشونة ، وفي الطريق تصدّى دوق طولوز لهم ، فحدثت معركة بينه وبينهم وهزموه • لكن الحملة لم تسفر عن شيء سوى الحصول على غنائم كبيرة ،اذ عاد الجيش الى قرطبة مثقلا بها ، وتبالغ الروايات العربية فيها لدرجة أنها تجعل حصة الامير ، من خمس الغنائم ، ومن الاسرى ٤٥٠٠٠ من الذهب العين • وعندما تولى الحكم سادت الاضطرابات الداخلية النصف الاول من حكمه وكانت سرقسطة من أول الثغور التي ثار عليه في مناطقها ثوار متعددون • ذهبت وفود منهم الى شارلمان ، وكذلك ذهب اليه عبد الله ، يحرضونه لمهاجمة أراضي الحكم ويضعون أنفسهم تحت تصرفه في حال قيامه بالغزو • ومع أن هذه المغريات كانت توقظ في نفسه ذكرى باب شزروا دون ريب ، الا انه بنفس الوقت كان يرى فيها ما يساعده على الانتقام للهزيمة التي أوقعها المسلمون قبل سنوات قليلة بتابعه المخلص دوق طولوز ويقضي على التهديد الذي يمثله المسلمون لاراضي مملكة اكيتانيا • وفي عام ٧٩٨ م/١٨٢ هـ عقد مؤتمر في طولوز برئاسة ابن شارلمان لويس ملك اكيتانيا وحضره مندوب عن والي سرقسطة الثائر بها ، ويظهر انه تم فيها الاتفاق على تقسيم الاراضي الشمالية لأمير قرطبة ، فلم تتقدّم جيوش الكارولنجيين الى سرقسطة حيث كان الثائر ، بل وجهت جهودها نحو القسم الواقع جنوب سبتمانيا ، أي منطقة برشلونة وتم احتلالها على مرحلتين • تمت المرحلة

الأولى بعد هذا الاجتماع مباشرة ، اذ احتلت حملة كارولنجية منطقة المرتفعات الواقعة شمال برشلونة ، وهي منطقة جبلية محصورة بين خيرونا وأعالي وادي سيغري Segre ، وتحتوي على عدد من المعاقل المشهورة . وفي العام التالي ضرب الحصار على برشلونة واستمر حصارها سنتين ، استنجد واليها خلالهما بالأمير وبمن يجاورونه ، لكن معونة الامير كانت مستحيلة نظراً لانشغاله بالمنازعات الداخليـة ولكون المناطق المجاورة لها ثائرة عليه . أما الولاة المجاورون وخاصة في منطقة سرقسطة فكانوا رغم ثورتهم على الامير يحاربون بعضهم بعضاً للسيطرة على المنطقة[1] . وهكذا سقطت برشلونة عام ١٨٥ هـ / ٨٠١ م[2] . وفي السنوات التالية حاول الكارولنجيون التقدم باتجاه الغرب واحتلال وشقة Huesca الحالية . كمـــا تقدموا في جهة الشاطىء فاحتلوا Tarragona الحالية عام ١٩٢ هـ / ٨٠٨ م وتوجهوا بعد ذلك نحو طرطوشة فانهزموا أمامها . وفيما بعد وحتى نهاية عصر الخلافة ، بقيت طرطوشة قاعدة للمسلمين وبقيت طركونة مدينة يتناوبها الطرفان في الهجمات المتتاليـة . أما برشلونة فقـد بقيت للكارولنجين على الرغم من كثير من الانتصارات التي حققها المسلمون على الكارولنجيين أمامها ، مثل الانتصار الذي أحرزوه في عـام ١٩٩/٨١٥ م أي قبـل موت الحكم بسبع سنوات ، والذي قتلوا فيه كثيراً من أعدائهم لكنه لـم يكن كافياً لاستعادة المدينـة .

---

١ ـ ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .

٢ ـ هذا التاريخ حسب الرواية العربية ، انظـر : المرجع السـابق ، ج ٦ ، ص ١٦٩ .
أما الرواية الكارولنجية فتجعل سقوطها عام ٨٠٣ ، أنظر :
H. Levi Provençal, Histoire, T.I.P. 180.

الفصل الخامس

فترة الاستقرار والازدهار

من عصر الامارة

امتدت هذه الفترة من ٢٠٦ هـ / ٨٢٢ م حتى بعد أواسط القرن الثالث الهجري ، أي شملت امارة عبد الرحمن الثاني أو الأوسط ونصف امارة الامير محمد الذي يليه .

أمراء الفترة

الامير عبد الرحمن الاوسط أو الثاني (٢٠٦ـ٢٣٨هـ/٨٢٢ـ٨٥٢ م)

ولد في طليطلة عام ١٧٦ هـ / ٧٩٢ م للحكم الربضي من أم ولد تدعى حلاوة ، ارتقى العرش وهو في حوالي الثلاثين من العمر ، وقد توفرت له كل الامكانيات وتهيأت له كل الظروف المناسبة ، ليصبح واحداً من أعظم حكام الاندلس : توفّرت له أثناء حياة أبيه تربية وثقافة عالية ، فأصبح شاعراً عالماً بالشريعة والفلسفة ، وانتاب المرض والده خلال عدة سنوات سبقت موته فأنابه عنه في تسيير شؤون الدولة ، مما وفّر له الخبرة في الادارة ، وأفسح له المجال ليظهر امارات التسامح والاعتدال بعد شدة والده وقسوته ، وجعل الناس يرحبون باعتلائه عرش الامارة بعد تجربتهم

معه • يضاف الى كل ذلك أن الاستقرار السياسي الذي أرسى قواعده عبد الرحمن الداخل في الاندلس ، بدأ يؤتي ثماره الاقتصادية بشكل واضح في عهد عبد الرحمن الثاني فتزيد واردات خزينة الامير وتساعده على القيام بأعمال عمرانية تخلد ذكره ، وعلى التمتع الى أقصى حد بأطايب الحياة الجسدية والعقلية ، فعاش في قصره كما يقول صاحب الأخبار المجموعة « كداخل الجنّة التي جمع فيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الأعين »[2] •

الامير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ ـ ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ ـ ٨٨٦ م) :

ابن عبد الرحمن الاوسط من أم ولد تدعى بهير ، كان مثقفاً كأبيه ، وتميز بصفات خاصة عن غيره من الامراء • فقد كان رجل دولة من الطراز الأول فهو سياسي مرن كثير الاناة شديد الحذر ، ذو خبرة عميقة بشؤون الادارة ، حتى أن موظفيه كانوا يرجعون اليه فيما أشكل عليهم من المعضلات كذلك كان واسع المعرفة بالحسابات وتدقيقها ، فقد استدرك على بعض خزانه في صك يشتمل على مائة الف دينار خمس درهم ، ومع كل ذلك لم يكن مستبداً برأيه بل كان يشاور فيمضي ما يراه صواباً ، ويناقش ما لايراه صحيحاً[3] •

فتن الثغور

رغم تميز هذه الفترة بسمات خاصة بها ، الا أنها كجزء أساسي من عصر الولاة ، يدور قسم كبير من الاحداث السياسية فيها حول الصراع الذي دام طيلة عصر الامارة بين الفاتحين وسكان البلد المفتوح من مولدين ومستعربين ، وتبقى حركات المولدين منهم مشتعلة في الثغور • الا أن حركات الثغور في هذه الفترة تظهر فيها عناصر جديدة لم تكن مرتبطة بها

---

١ ـ أنظر : ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٨٠ ـ ٨١ ، ٩٠ ـ ٩٣ •
٢ ـ الاخبار المجموعة ، ص ١٣٥ •
٣ ـ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١٠٧ •

في الفترة السابقة • فلم تعد ثورات المولدين في بعض الاماكن على الأمراء فقط ، بل أصبحت في طليطلة ضد كل الفاتحين من عرب وبربر • كما أن الثورة في الثغور الثلاثة اتصلت بمسيحيي الشمال ، الذين كانوا يحرّضون عليها حيناً ويشتركون فيها ، جنباً الى جنب مع الثائرين حينا آخر •

ع — الفتنة في طليطلة (Toledo) :

كما هي العادة في كل عصر الامارة ، كانت ثورات مولدي طليطلة • أشد ثورات الثغور عنفاً وأكثرها تكرّراً وأطولها زمناً • وأشهرها في فترة الاستقرار والازدهار ثورتان • بدأت الأولى عام ٢١٤ هـ / ٨٢٩ أي بعد ثماني سنوات من تسلم عبد الرحمن عرش الامارة واستمرت سبع سنوات• تزعم هذه الثورة هاشم الملقّب بالضرّاب ، الذي دخل قرطبة من طليطلة عندما أوقع الحكم الربضي بالثغر الاوسط وأخذ من مولديها رهائن ، وصار يضرب بالمعول في الحدّادين أجيراً ، فعرف بالضرّاب وفي عام ٢١٤ خرج من قرطبة عائداً الى بلده وألب من سماهم المؤرخون القدماء بأهل الشر والفساد فانتقضت طليطلة على الأمير • لكن الضرّاب لم يكتف بثورةالمدينة بل حاول بسط سلطانه الى أبعد منها ، وربما قاده الى هذا الطموح انضمام خلق عظيم من الاشرار اليه بعد أن تسامعوا به ، فصار يغير بهم على العرب والبربر المجاورين لـــه ، حتى وصلت غاراتـــه الى شنت بريـــه (حالياً Santaver) ،مدة سنتين قتل بعدهما في معركةمع جيش للأمير[1] •ومع ذلك بقيت طليطلة ثائرة بعد موته مدة خمس سنوات ،ولم تخضع الا بعد أن خان أحد القواد الطليطليين جماعته وانضم لجيش الامير ،الذي كان يضيق على المدينةمنطلقاً من قاعدته في قلعة رباح (Calatrava La Vieja) الواقعة عـلى الطريق بين طليطلة وقرطبة ، وعندما قطعت عن المدينة كل مرافقها وبلغ بها الجهد

١ ـ انظر : الكامل ، ج ٦ ، ص ٤١٥ ـ ٤١٦ •

أقصاه ، جاء اليها الامير عبد الرحمن بالذات فوجه لها الضربة القاضية وافتتحها[1] .

وكانت الثورة الثانية المشهورة لطليطلة في هذه الفترة تلك التي قامت عندما تولى الامير محمد عرش الامارة ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م واستمرت كسابقتها سبع سنوات . بدأت ثورة الطليطليين بقيامهم بالقبض على عامل الأمير لديهم ، ولم يخلوا سبيله ، الا بعد أن أطلق لهم الامير رهائنهم من قرطبة ، ثم هزموا جيشاً للأمير توجه ضدهم في العام التالي . وعندما علموا بقدوم الأمير شخصياً نحوهم على رأس جيش كبير في العام الذي يليه ، استعانوا بملك اشتوريش أُردُن Ordono فبعث اليهم أخاه مع جموع كبيرة من النصارى ، كما طلبوا عون سادة مسيحيين شماليين آخرين . حدثت المعركة قرب طليطلة في وادي سليط ، رافد التاجُه . تهيأ الأمير للمعركة بوضع قسم كبير من جيشه على شكل كمائن اختفت خلف التلال المحيطة بالوادي ، وتوجه نحو الاعداء بمن بقي ، فاستهون الثائرون وحلفاؤهم شأنه ، وهاجموه طامعين بالقضاء عليه بسرعة ، وأثناء الاشتباك خرجت الكمائن من خلف التلال وأوقعت بالمتحالفين هزيمة نكراء ، فقد مسيحيو اشتوريش فيها ثمانية آلاف رجل ، وفقد مولدو طليطلة ١٢٠٠٠[2] . ولم تستسلم طليطلة رغم هذه الهزيمة ، الا بعد خمس سنوات ، حلّت بها أثناءها نكبات وكوارث أنزلتها بها حملات متعددة للأمير [3] .

فتنة المولدين في الثغر الاعلى سرقسطة (Zarageza) :

قادت أغلب الفتن في هذه المنطقة عائلة مولدية عريقة فيها ، يعود نسبها الى قسي الذي كان قومساً (كونت) للمنطقة أيام الحكم القوطي ،

---

١ ـ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٨٣ ـ ٨٥ .

٢ ـ أنظر : الكامل ، ج ٧ ، ص ٧٣ ـ ٧٤ .

٣ ـ أنظر : ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٩٥ ـ ٩٦ .

ولما افتتح المسلمون الاندلس سلك مسلك عليه القوم من القوط الراغبين في الحفاظ على مراكزهم وأملاكهم ، فسافر الى الشام واسلم علـى يدي الوليد بن عبد الملك[1] • وسار أبناؤه فيما بعد وحتى نهاية عصر الخلافة على سنته ، اسلامهم سطحي يهمهم الحفاظ عـلى مصلحتهم قبل كل شيء فيخدمون من يحققها لهم مسيحياً كان أم مسلماً ، أمويا كان أو فاطميا • وهكذا نراهم يخضعون للأمراء الأمويين في عهد توطيد الامارة ، ويعينهم هـؤلاء عمالا لهم في منطقة سرقسطة ، وكانت المنطقة التي يعيشـون فيها ويملكون فيها اقطاعاتهم متداخلة مع أراضي الامراء المسيحين ، فلم يجدوا غضاضة في التعامل معهم الى حد تزويج بناتهم من بعض هؤلاء الأمراء • في الفترة مدار بحثنا ، برز من هذه العائلة موسى بن موسى بن فُرْتون بن قسي ، الذي زوّج ابنته اورية من غارثيا ملك بنبلونه (Pamplona حالياً)، وكان في أول أمره خاضعاً للأمير عبد الرحمن يغزو معه ، لكنه بعد عام ٢٢٧ هـ / ٨٤٢ م ثار عليه ، فتوجهت ضـده جيوش الأمير وهزمته مـع حلفائه أمراء بنبلونة • وبعد سنتين من الثورة عاد للخضوع من جديد وظل هادئاً مدة ثلاث سنوات عاد بعدها للثورة ، فاضطر الأمير الأموي للاعتراف به كسيد للمنطقة ، واعترف هو بتبعيته للأمير يقوم باسمه بفريضة الجهاد ضد المسيحيين المجاورين في اسبانيا ، وضد الثغر الكارولنجي القريب من أراضيه ونجح في بعض حروبه • وعندما ارتقى عرش الامارة الامير محمد جدد اعتراف والده به ، فعلت مكانة ابن قسي وأظهر امارات السلطان بعد أن أصبح سيداً غير منازع للثغر الاعلى بما احتوى عليه من المراكز الكبرى كسرقسطة ووشقة وتطيلة • وأطلق عليه لقب الملك الثالث في اسبانيا • وعندما توفي متأثراً بجراح اصابته في معركة له مع ملك اشتوريش ، تقاسمت الاهواء أبناءه فخضع بعضهم لملك اشتوريش وعاشوا في بلاده وعاد البعض الآخر للثورة على الأمير في تطيلة وسرقسطة[1] •

---

١ ـ أنظر : الجمهرة ، ص ٥٠٢ ـ ٥٠٣ ، افتتاح الاندلس ، ص ١١٧ ـ ١١٨ •

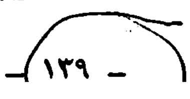
الفتنة في الثغر الادنى : ماردة (Merida) :

تدخلت في فتنة ماردة عناصر متعددة ، فقد كان الفونسو الثاني يشجع المولدين والمستعربين على الثورة ضد الأمير الأموي ، ومن الثابت أيضاً أن الملك الكارولنجي لويس التقي قدّم نفس التشجيع في رسائله الى مستعربي ماردة . بدأت فتنة ماردة عام ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م وتزعمها كل من البربري محمد بن عبد الجبار والمولّدي سليمان بن مارتين ، اللذين قتلا مروان الجليقي العامل على مدينتهم . وكلّف الامير اخضاعها ارسال عدة حملات ضدها حتى عام ٢١٩ هـ / ٨٣٤ م ، هرب زعيما الفتنة بعدها وتنقلا أمداً في وادي عانة ، ثم انفصلا ، فقتل سليمان بن مارتين في الشمال من ماردة ، حيث اتخذ معقله ، في معركة مع جيش الأمير . أما البربري فقد لجأ الى ملك اشتوريش الذي منحه حصناً على الحدود كاقطاع ، اتخذه قاعدة يشن منها الغارات على الاراضي الاسلامية[1] . وربما دفعه تأنيب الضمير بعد ذلك للاتصال بالأمير ، طالباً العفو عنه والعودة الى حظيرة المسلمين ، وقبل الأمير ذلك . لكن أمر اتصالاته افتضح أمام الملك اشتوريش ، الذي دعاه للحضور الى بلاطه ، وعندما اعتذر بحجة المرض ، اقتنع الملك بخيانته له فهاجمه . وفي المعركة سقط الثائر عن حصانه فجرح ، ومات بعد أسره في عام ٢٢٥ هـ / ٨٤٠ ، ثم حمل كل أفراد عائلته أسرى الى بلاط الملك المسيحي[2] .

---

١ - R. Menendez pidal, Primera Crónica General, T. II, p. 578.,

٢ - أنظر : ابن سعيد ، المغرب ، ج ١ ، ص ٤٨ و
Levi provençal, Histoire ..., T. I. p.p. 207-209.



النشاط الاقتصادي في فترة الازدهار

ونتائجه في المجتمع والفكر والادارة

عمل الأمراء الأمويون على ادخال بعض الثمار والبذور الى الأندلس من المشرق ، ولدينا شاهد على أن عبد الرحمن الداخل نقل الى منية الرُصافة ، التي ابتناها شمال قرطبة ، غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية ، وأودعها ما كان استجلبه رسولاه الى الشام من النوى المختارة والحبوب الغريبة حتى نمت بفضل العناية والجد أشجاراً معتمّة ، أثمرت بغرائب من الفواكه انتشرت عما قليل بأرض الاندلس • ولعل طريقة انتشار الرمّان السفري في الاندلس تصلح كمثال على كيفية انتشار هذه النباتات فيها تسند الرواية أصل هذا الرمان الى رصافة الشام ، وحمل منه لعبد الرحمن لزرعه في منية رصافة الاندلس ، فعرضه على خواصه مباهياً به • فأخذ منه أحد قواده المدعو سفر بن عبيد الكلابي وزرعه بقرية في كورة ريّة ، وبالغ في الاهتمام به حتى نبت أشبه شيء بذلك الرصافي ، فأتى به الى عبد الرحمن فاغترس منه بمنيته وبغيرها من جنّاته ، فانتشر نوعه واستوسع الناس في غراسه ولزمه النسب الى ذلك القائد فصار يعرف بالرمان السفري[1] عدا عن مثل هذه الاشارات العابرة ، تعوزنا الوثائق الدالة بدقة على مدى التقدم الزراعي في الاندلس حتى عهد عبد الرحمن الثاني ، وعلى مدى اثر الفتح العربي الاسلامي والدولة الاموية في التقدم الزراعي حتى تلك الفترة • انما تكثر لدينا الشواهد نسبياً عن قيام نشاط تجاري واسع النطاق خاصة في تلك

---

١ ـ نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٤ ـ ١٥ Torres Balbas, Los contornos de las ciudades Hispano-Musulmanes, Al-Andalus, vol. XV, 1950, 446-453.

الفترة ، لم تعرفه الأندلس قبلا ، وعن ازدياد في الثروة وعن تضاعف تقريباً في واردات الدولة زمن عبد الرحمن الثاني دون فرض ضرائب جديدة[1] •
وبما أن الزراعة في تلك العصور ، كانت أهم منبع للثروة ونظراً لاستحالة قيام نشاط تجاري واسع في تلك الايام دون الاعتماد على زراعة مزدهرة ، لذلك كله لا نكون مجازفين عندما نؤكد بكلمات عامة ، أن الزراعة في الاندلس ، استمرت في الازدهار والتوسع منذ بداية الحكم الأموي ، وانها وصلت الى مرحلة متقدمة أعطت فيها مردوداً جيداً خلال فترة الاستقرار والازدهار ، كما انه يستنتج من بعض الاعمال التي قام بها عبد الرحمن الثاني ، ان الصناعة ، في بعض الفروع على الأقل ، كانت متقدمة الى الحد الذي سمح له أن ينشىء داراً خاصة للطراز تصنع فيها ملابس خاصة بكل مرتبة من مراتب أصحاب الخدمة •

التوسع التجاري والبحري

قوة الاسطول

تراكمت ضرورات بناء أسطول تجاري وحربي للأندلس منذ الفتح حتى هذه الفترة ، فقد رأينا العرب أثناء الفتح يجتازون المضيق على أربع سفن ليوليان • وبعد الفتح والاستقرار في الاندلس فصلهم البحر عن كل أجزاء العالم الاسلامي • وخاصة المشرق منه ، رغم صعوبة العيش بمعزل عنه نظراً للروابط السياسية التي كانت قائمة بين الطرفين ، عندما كانت الاندلس ولاية تابعة للخليفة الاموي في دمشق ، أضف الى ذلك أن الحج فريضة وركن من أركان الاسلام • يضاف الى هذه العوامل التي نشأت منذ أيام الفتح عوامل جديدة طرأت في فترة الازدهار ، مجال بحثنا ، فقد تعرضت الأندلس ، شأنها في ذلك شأن الشواطىء الغاليه والجليقية ،لهجمات

---

١ ــ انظر : ابن سعيد ، المغرب ، ج ١ ، ص ٤٦ •

القراصنة البحريين الذين أطلق عليهم العرب اسم النورمانيين أو المجوس[1]•
هاجم هؤلاء القراصنة لشبونة في ١ ذي الحجة عام ٢٢٩ هـ / ٢٠ آب ٨٤٤م وبعد ثلاثة أيام من المعارك انحدر قسم منهم نحو الجنوب ليحتل قادس ، أما القسم الباقي فقد توغل عبر الوادي الكبير ليحتل اشبيلية التي لم تكن مسوّرة ، فأحرقوا السفن القليلة التي حاولت الدفاع عنها ، ثم دخلوا المدينة وقتلوا كل من لم يهرب من سكانها واستمروا في نهبها مدة سبعة أيام ، ثم انحدروا نحو الجنوب ليفرغوا حمولتهم من الغنائم ، وعندما عادوا الى اشبيلية كان الجند الذين حشدهم أمير قرطبة قد تمركزوا في مرتفعات الشرف المشرفة على المدينة ، فحصلت بين الطرفين موقعة في ٢٥ صفر ٢٣٠ هـ / ١١ تشرين الثاني ٨٤٤ م ، وانتهت بذلك أولى غزواتهم لاشبيلية التي استمرت ٤٢ يوماً • وفي زمن الامير محمد وبعد خمسة عشر عاماً من الغزوة الاولى حاول المجوس الاغارة على الشواطىء الاندلسية من أقصى الغرب حتى مرسية في الجنوب الشرقي ، لكن الأمور كانت قد تغيّرت فطردوا دون أن يستطيعوا النزول الى البر ، وذلك لأن الأمراء كانوا قد استعدوا لذلك باقامة الأربطة على الساحل الغربي ، حيث كان يقيم أتقياء متطوعون مدة هي الرباط ، يمارسون فيها طقوساً دينية بالاضافة للعمل العسكري ، كما قامت الدولة بالاهتمام بالأسطول وانشاء الترسانات وأخذت سفنهم تقوم بأعمال الحراسة على طول السواحل الغربية •

بنتيجة تراكم هذه العوامل نشاهد نشاطاً ملحوظاً للبحرية الاندلسية

---

١ ـ عرف هؤلاء في أوربا العصور الوسطى باسم Vikingos ، بمعنى لصوص البحر ، أصلهم من اسكندينافية واستطاعوا أواخر القرن الثامن أن يتمركزوا على شواطىء جزيرتي بريطانية وايرلاندة « بلاد الانقليش » • وفي القرن الثامن البحري ، يذكرهم ابن الخطيب أعمال الاعلام ، الجزء الخاص بالاندلس ، ص ٢٠ « والمجوس هم الذين يسمونهم اليوم نصارى قشتالة بالانقليش ، وأهل المشرق بالفرنج وبالانكلثير » • أنظر عن توسع هؤلاء القراصنة

Philip Gosse, Los piratas del Norte, pp, 107-111.

في المجالين الحربي والتجاري ففي المجال الحربي بدا هـذا النشاط في حملتين احداهمـا ناجحة والثانيـة فاشلة ، فالحملة الناجحة انطلقت من الشواطىء الشرقية الى جزيرتي ميورقة ومنورقة ، وكان بين سكان هاتين الجزيرتين وبين المسلمين عهد ، يدفعون بموجبه للمسلمين جزية ويقدمون لهم النصح ويمتنعون عن أذاهم لكنهم استضعفوا شأنهم على ما يظهر ، بعد غزوة المجوس ، فنقضوا العهد ، ووجّه المسلمون ضدهم حملة مؤلفة من ثلاثمائة مركب عـام ٢٣٤ هـ أعادتهم الى الالتزام بكل عهودهم السابقة • يمكن اعتبار هذه العملية مقدمة لاحتلال جزيرة ميورقة نهائياً في آخر عصر الامارة سنة ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م ، من قبل قطائع بحرية أندلسية يقودها عصام الخولاني ، الذي أتيحت له معرفة سابقة بالجزيرة وسكانها ، عندما عصفت الريح بمركب كان فيه قاصـداً الحجاز لاداء فريضة الحج ، فطال مقامه بالجزيرة واختبر من أحـوال أهلها ما أطمعه في فتحها[١] • أمـا الحملة الثانية الفاشلة ، فانطلقت من السواحل الغربية عبر المحيط[٢] ، (المحيط الاطلسي) عام ٢٦٦ هـ / ٨٧٩ م ويظهر أن الدافع لها قيام ملوك اشتوريش في هذه الفترة بتحصين ثغورهم الواقعة على حدود المسلمين واعمارها ،الامر الذي خلق مصاعب في وجه الحملات البرية ضدها ، أضف الى ذلك أن تجربة الغزو النورماني لجليقية أثبتت عجز ملوكها التام عن صد الغزوات التي تأتيهم من ناحية البحر المحيط ، وربما كان من أسباب هـــذا الفشل تركيز جهودهم الدفاعية وانتباههم الى الجنوب ، حيث كان يهددهم الخطر الاسلامي بشكل دائم ، لا الى الغرب وجهة البحر المحيط • وكذلك تجعل وضعية التضاريس الهجوم من الغرب متبعاً وديان الانهار الفسيحة أسهل

---

١ ـ أنظر : العبر ، ج ٤ ، ص ٣٥٣ •

٢ ـ أطلق العرب على هذا البحر تسميات مختلفة ، فهو البحر المحيط لانه لا يدرك له غاية ، أو بحر الظلمات أو البحر الاخضر أو الاقيانس (الروض المعطار ، ص ٢٨) • وينقل القزويني عن العذري في « آثار البلاد وأخبار العباد » ، ص ٥٠٤ • اسما آخر له هو البحر الاسود •

من الهجوم المتجه من الجنوب الى الشمال ، حيث تقف الوديان الكبرى والحواجز الجبلية بشكل معارض ، ولا يمكن الدخول الا من مناطق معينة، وخوانق يسهل الدفاع عنها • وقد نصح الأمير محمد ناصح بامكانية النجاح في الحملة ، فأمر بانشاء المراكب بقرطبة ليتوجه منها الى البحر المحيط ، فلما كملت المراكب بالانشاء وتوجهت للغزو ، لم تلبث أن تفرقت وتقطعت ولم يجتمع بعضها الى بعض ونجا القائد بروحه[1] • ويبدو ما حدث نتيجة طبيعية ومنطقية لعدم وجود تجربة سابقة للعرب للابحار في هذا البحر المحيط •

النشاط البحري التجاري ومراكزه

ظل الشاطىء الشرقي للأندلس مركز النشاط البحري للأندلسيين ، خلال كل مراحل التاريخ الاندلسي ومنذ البداية كثر ابحارهم فيه وبالتالي عظمت معرفتهم له ، وهذا ما يفسر نجاحاتهم المتعددّة فيه ، فقد استطاع قسم منهم الابحار فيه واحتلال جزيرة كريت بعد هيجة الربض ، كما نجح قسم آخر بمساعدة الاغالبة في حوادث فتح صقلية • وفي الفترة مجال بحثنا كانت العلاقات التجارية البحرية مقتصرة على العلاقات مع العالم الاسلامي ، كذلك قامت حركة اغارة أو ما كانوا يسمونه بالغزو ضد الشواطىء غير الاسلامية ، في جزر كورسيكا وسارديننيا والشواطىء الايطالية الغربية بكاملها • لم تكن السفن في سيرها تمخر عباب عرض البحر ، بل كانت تسير بحذاء السواحل ، لذا كان عليها أن تمر بحذاء شاطىء شمال افريقيا ، وهذا أدى الى اقتصار ازدهار الفعاليات البحرية الاندلسية على جزء من الشاطىء الشرقي للاندلس ، هو القسم الممتد من قرطجنة Cartagena شمالا الى الجزيرة الخضراء Algeciras جنوباً • وهذا القسم يقابل أو يؤلف الطرف الشمالي من قوس بري حول البحر يتكون طرفه الجنوبي

---

١ ـ أنظر : ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤ •

من شاطىء شمال افريقيا الممتد من سبته غربا الى بجاية شرقاً • اشتهرت في هذه المنطقة من الساحل الشرقي ، بعض الموانىء بدور الصناعة أو الانشاء فيها مثل دانية (Denia حالياً) التي يرد عنها في الروض المعطار « ان السفن واردة اليهـا صادرة عنها ، ومنها كان يخرج الاسطول الى الغزو ، وبها ينشأ أكثره ، لأنها دار انشاء » وكذلك لقنت Alicante حالياً التي كانت « على صغرها تنشأ بها المراكب السفرية والحراريق »[1] • وأقامت في بعض المدن والمراكز كمرية بجاية جماعات أطلق عليها اسم البحريين ، كانت تمتهن التجارة ومهاجمة السواحل الاوربية ، التي أسموها الغزو لأنه يقع على أراض غير اسلامية ،منطلقين من مراكز في المغرب الادنى لقربها من شواطىء ايطاليا وجزيرتي كورسيكا وساردينا ، حيث بداية الطريق لشواطىء الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط غير الاسلامية • وقد اشتهر مركز بونة أكثر من غيره كنقطة انطلاق لمثل هذه الغزوات ، فمنها « كانت تخرج الشواني غازية الى بلاد الروم وجزيرتي سردانيا وكورسيكا ، وفيها تنشأ السفن والمراكب الحربية التي يغزى بها الى بلاد الروم ، والى هذه المدينة يقصد الغزاة من كـل أفق لأن مقطعها يقترب من جزيرة سردانية بينهما نحو مجريين[2] •

مواد التجارة مع شواطىء المغرب والمعاملات التجارية

كان الاندلسيون يحملون الى هذه البلاد منتجاتهم الصناعية الراقية التي يحتاجها أهل المغرب ، بالاضافة الى منتجاتهم الزراعية التي لا توجد بالمغرب، وكذلك ما يرد من الاندلس الى المشرق كان يصرّف على الارجح ، في الاسواق الافريقية ، ويحمل من ثم الى هناك ، كما هو حال بضاعة العبيد البيض (الصقالبة) ، الذين يشير اليهم ابن حوقل قائلا « وجميع من على

---

١ ـ الروض المعطار ، ص ٧٦ و ١٧٠ •
٢ ـ البكري ، ص ٥٥ •

وجـه الارض من الصقالبة الخصيان فمن جلب الاندلس[1] • أمـا أهم الاشياء التي كانت تأتي من المغرب الى الاندلس ، فهي الحبوب وبعض منتوجات زراعية أخرى اشتهرت بهـا المغرب كفستق قفصة وكذلك العبيد السود يؤتى بهم الى الاندلس والى سائر ديار الاسلام عن طريق المغرب ، لأن سوق تجمعهم كانت زويلة في أقصى جنوب ليبيا[2] •

كانت حركة النقل التجاري ناشطة جداً بين الاندلس وشـواطىء المغرب ، وبصورة خاصة شواطىء المغرب الاوسط والاقصى ، اعتباراً من بجاية حتى سبتة لأنها مقابلة للمراسي الاندلسية • ويعتني أصحاب كتب المسالك بذكر المرسى الافريقي وما يقابله من مراسي الاندلس مـع ذكر المسافة بينهما •

وكانت أعداد الأندلسيين الآتية الى المراسي الافريقية كبيرة ، اذ يندر أن يذكر الجغرافيون العرب مرسى من مراسي المنطقة التي أشرنا اليها من الشاطىء المغربي ، دون أن يذكروا وجود الاندلسيين فيه • وكان وجودهم اما مؤقتاً ، أي في الفترة التي يقصدون فيها الاسـواق الموسمية في بعض المناطق ، كما هو الحال في أصيلة ، حيث كانت تقام سوق جامعة ثلاث مرات في السنة : في العيدين وعاشوراء•وفي كثير من الاحيان كان بعض الاندلسيين يقيم اقامة دائمة مختلطاً بالسكان في مدنهم حيناً ، أو يساهم مع آخرين ، أحيانا أخرى ، في بناء مراكز جديدة • وحيثيعيش الاندلسيون مع السكان في مدنهم كانوا يلتمسون حماية بعض هؤلاء السكان مقابل حصة معينة من الارباح أو كمية من المال ، ففي مليلة « كانوا يقترعون على من يدخل عندهم من التجار فمن اصابته قرعة الرجل منهم كان تجره على يده ولم يصنع

١ ـ ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٠٦ •
٢ ـ البكري ، ص ١١ ، الاصطخري ، ص ٣٤ ـ ٣٥ •

شيئاً الا تحت نظره واشرافه ، فيحميه عمن يريد ظلمه ، ويأخذ منه الأجر على ذلك كما يأخذ منه الهدية لنزوله »[1] •

وكثيراً ما تقوم الجاليات التجارية الاندلسية ببناء مدن جديدة ، فأصيلة كانت في الأصل رباطاً أقيم فيه السوق وتسامع الناس أمرها من الاندلس وأهل الامصار • بالاشتراك مع غيرها حيناً ، أو وحدها حيناً آخر • وبعد أن كان الاندلسيون يأتون اليها موقتاً الى أن ينتهي السوق ، لم يلبثوا مع غيرهم من أهل الامصار أن خيموا فيها ، ثم بنوا شيئاً فشيئاً الى أن عمرت[2] وأقاموا فيها اقامة دائمة •

وفي مدن المغرب الاوسط على وجه الخصوص ، بنى الاندلسيون مدناً خاصة بهم ، فقد كانت سفن البحريين تشتي في بعض الاماكن من هـــذه الشواطىء ، وتنتقل في الصيف الى الأندلس ، ثم لم يلبثوا أن بنوا حصوناً أمام المراسي وأقام بعضهم اقامة دائمة ، كما هو الحال في مدينة تنس الحديثة (بين وهران والجزائر) ، التي أقامتها جماعة من البحريين الاندلسيين من أهل البيرة وتدمير عام ٢٦٢ هـ / ٨٢١ ـ ٢٢ م ويظهر من أسمائهم أن قسماً منهم كانوا مسلمين وآخرين ليسوا كذلك ، ورغبة في تضخيم مدينتهم ، وربما طلباً للسلامة والحماية منهم وبهم ، فقد سمحوا لمن جاورهم بأن يأتوا اليهم فتوسعوا لهم في منازلهم وشاركوهم في أموالهم[3] •

وفي عام ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م قامت جماعة من الاندلسيين البحريين أيضاً فبنت مدينة وهران وهي كما يقول عنها ابن حوقل مرسى في غاية السلامة

---

١ ـ البكري ، ص ٨٨ •
٢ ـ المصدر السابق ، ص ١١٢ •
٣ ـ المصدر السابق ، ص ٦٢ •

والصون من كل ريح قد كنفته الجبال ، وله مدخل آمن[1] ، وما يظن له مثيلا في جميع مراسي البربر غير مرسى واحد •

ويلاحظ أن غالبية المراكز الاندلسية ، أقيمت على شواطىء المغرب الأوسط ، وهو أمر لا يمكن تعليله بقرب سواحلها فقط ، وانما بالحماية التي تتوفر لهم من دولة تاهرت الرسمية ، بسبب علاقاتها الودية مع دولة الامويين صاحبة الاندلس • ويلاحظ أمر هذه الحماية واضحاً في قضية الهجوم على وهران : فقد عاش البحريون الذين أنشؤوها مع قبيلتين بربريتين • وصادف بعد انشائها بسبع سنوات ، « أن زحفت قبائل كثيرة الى وهران مطالبة أهلها باسلام احدى القبيلتين البربريتين اليهم ، لدماء كانت بينهم فأبى أهل وهران من اسلامهم اليهم فحاصروهم ومنعوهم الماء • وفي الليل هرب أبناء القبيلة المطلوبة ، وتغلبت بعدها القبائل المهاجمة على وهران وخرج أهلها منها مسلمين في أنفسهم وأسلموا ذخايرهم وأموالهم وضربت وهران وأضرمت ناراً وذلك في ذي الحجة من هذه السنة ، وفي السنة التالية بعدها أعيد أهل وهران اليها بأمر عامل تاهرت وابتدوا بنيانها فعادت أحسن مما كانت »[2] •

---

١ ـ ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٧٩ •

٢ ـ البكري ، ص ٧٠ •

الرفاه في القصر والمجتمع

أدى النشاط الاقتصادي ، الذي ذكرنا منه الشيء الذي وفرتـه لنا الوثائق التاريخية الشحيحة في هذا المجال ، الى بروز مظاهر الترف والرفاه في حياة الخلفاء والطبقة العليا من المجتمع على الاقل ، فقد أصبحت الاندلس سوقاً تساق اليه بضائع الترف من نفيس الوطاء وغرائب الاشياء من بغداد وغيرها ، وعندما حدثت الفتنة في بغداد أثناء النزاع بين الأمين والمأمون ، لم تجد المنهوبات النفيسة في القصر ، مـن متاع وجوهر كعقد زبيدة الثمين المشهور والمعروف بالشفاء وغيره من حليها ، سوقاً يدفع به ثمنها الا سوق الاندلس[1] . أما عن مظاهر حيـاة الترف ، فقد حفظت لنا منها الوثائق التاريخية أخبار الامراء ومن يعيش حولهم . ازدادت جباية هؤلاء الامراء من ٦٠٠ر٠٠٠ دينار الى مليون فانغمسوا في ترف مسرف ، وان كان ترفهم مشرباً بذوق رفيـع . ويبدو أول مظهر لترف الامراء بكثرة الجواري في قصورهم ، وكثرة ما أنجبوه من أولاد نتيجة لذلك ، وقد بلغ عدد أولاد عبد الرحمن الثاني مائة وخمسون من الذكور ، وخمسون من الاناث وكان للأمير محمد مائة ولد من الذكور[2] . أما عدد الجواري ، فيكفي لاعطاء فكرة عنه ذكر أن المدنيات منهن فقط كانت لهن دار خاصة في قصر الامارة. لكن كثرة الجواري في قصر عبد الرحمن الثاني ، يجب ألا تدعو للظن بأن عبد الرحمن كان انساناً بدائياً مغرقا في الانصراف الى الملذّات الجسدية ، لأن الكثيرات ممن نلن الحظوة لديه كانت لهن ميزاتهن الفكرية والفنية .

---

١ ــ ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، الجزء الخاص بالاندلس ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٢٠ .

٢ ــ الكامل ، ج ٧ ، ص ٧٠ .

فمن المعروف انه كان لثالوث المدنيات فضل وعلم وقلم حظوة كبرى لدى الأمـير ، ويورد المؤرخون القدماء صورتهن بالقول « ان قلم كانت أديبة حسنة الخط راوية للشعر حافظة للأخبار عالمة بضروب الادب ، وقد عرف عن عبد الرحمن ولعه بالسماع الذي يؤثره على جميع لذاته ، يضاف الى ذلك انها كانت عارفة بالالحان ، رغم كونها في الاصل رومية من سبي البشكنش لكنها حملت صبية الى المشرق ، فوقعت بالمدينة وتعلمت هناك الغناء فحذقته ، أما فضل فكانت في الاصل جارية لاحدى بنات هارون الرشيد ، ونشأت ببغداد ودرجت من هناك الى المدينة ، فازدادت ثم طبقتها في الغناء واشتريت هنالك للأمير عبد الرحمن مع صاحبتها علم المدنية »[1] •

البنــــاء

وهــو من مظاهر الترف الذي شاع في عصر الازدهار في كثير من نواحيه ، فمنه ما كان لسد حاجات حربية كسور اشبيلية الذي بناه عبـد الرحمن الثاني بعد غزوة المجوس ، وكذلك بناء عدة مـدن في الثغور ، سيمر بحثها عند بحث العلاقات الخارجية • ومن البناء ما كان لضرورات دينية ، فقد بنى الأميران عبد الرحمن ومحمد كثيراً من المساجد في قرطبة والولايات كالمسجدين الجامعين في البيرة وجيان[2] ، أما في قرطبة فقـد وسع عبد الرحمن المسجد الكبير باضافة رواقين جديدين بامتداد تسعة أذرع ونصف فزاد بذلك من طوله ، وبعد ذلك وسعه من الجهة الثانيـة بابعاد جدار القبلة مع المحراب مضيفاً اليه بذلك ثماني اسطوانات ولم تكتمل كل أعمال توسيع المسجد في عهد عبد الرحمن ، فكملت في عهد ولده محمد التزيينات ، كما بنيت المقصورة ، وبني الرصيف الواقع بين السور الجنوبي لقرطبة ونهر الوادي الكبير ، أضف الى ذلك أن نساء القصر بنين عدة مساجد من

---

١ ــ النفح ، ج ١ ، ص ١٣٦ •

٢ ــ أنظر : الروض المعطار ، ص ٢٩ و ٧١ •

مساجد الاحياء أطلق على كل واحد منها اسم بانيته • وعدا عن مدن الثغور ، بنى الامراء في هـذه الفترة مدناً ، مثل مرسـية وابدة في كورة جيان[1] •
وأخـيراً بني الكثـير من أجـل الرفاه والترف فقـط ، ففي القصر لـم يرض عبد الرحمن بالسكن في جناح من سبقه بل بنى لنفسه أجنحة خاصة به وأوجد بذلك سنة سار عليها من تلاه في بناء كل واحـد جناحاً جديداً لسكنه ، كما بنى شرفات للقصر محاطة بالزجاج يطل منها على منظر قرطبة كلها • وينسب اليه أيضا ايصال المياه من عين في الجبل الى القصر ، حيث جعلت فيه شريعة يؤخذ الماء منها الى المدينة وما حولها • وفي هذه الفترة أنشئت عدة منى ، جمع منية وهي عبارة عن قصر ريفي في ضواحي المدينة ضمن حدائق غناء ، ويعتبر هذا النوع من البناء السابقة الاولى في العصور الوسطى التي انبثقت عنها أبنية القصور الريفية والاقامة فيهـا في العصور الحديثة ، ولا صحة لما يقوله صاحب المؤلف المشـهور « ثقافة النهضة في ايطاليا[3] » بأن الايطاليين كانوا أول الناس في العصر الحديث الذين يرون في مناظر الطبيعة موضوعاً يسر الناظر اليه ، ففي شمال أوربا لم يكن يعيش في الريف من الحضر الا أولئك النبلاء الذين يعيشـون داخل الحصـون لضرورات الحفاظ على أرزاقهم ، وبعض الرهبان في الأديرة لضرورات دينيـة ، بينما يبقى أبنـاء الطبقة الوسطى بالغاً غناهم ما بلـغ في مدينتهـم لا يبرحونها • وايطاليا هي الاستثناء الوحيد لأن كثيراً من الناس كانـوا مغرمين بالعيش بين أحضـان الطبيعة ، وهكذا كانت القصـور الريفية أو الفيلات الجميلة ذات المباني التي تزيد في فخامتها عن فخامة الابنية في المدن ،

---

١ ـ للتوسع في أعمال الاميرين عبد الرحمن ومحمد العمرانية ، أنظر :
Arte Hispanomusulman hasta :
la Caida del califato, por Leopoldo Torres Balbás, Historia de España, T. V. p.p. 373-415.

٢ ـ أنظر : النفح ، ج ١ ، ص ٣٢٥ • أما ابن الاثـير في الكامل ، ج ٧ ، ص ٧٠ ، فيجعل الامير محمد أول من جلب الماء العذب الى قرطبة •

٣ ـ المؤلف هو Burchardt .

والتي بنيت في فلورنسا في النصف الاول من القرن الرابع عشر تدشيناً لميلاد الفيلا المعروفة بكثرة في العصور الحديثة » •

ويعود سبب الخطأ في هذه الاقوال الى جهل المؤلف ، بتاريخ العرب والاسلام في الاندلس ، فقد سبق الاندلسيون الايطاليين بأكثر من خمسة قرون ، اذ أنشأ عبد الرحمن الداخل منية الرصافة الواقعة على بعد ثلاث كيلو مترات شمال قرطبة • وازدهرت عملية انشاء المنى في فترةازدهار عصر الامارة ، وبني العديد منها ، مثل منية الناعورة في المصارة ومنية عجب محظية الحكم الربضي في جنوب المدينة ومنية نصر الخصي المتمتع بالحظوة لدى عبد الرحمن الثاني[1] •

وعدا عن بناء المنى ، توجد دلائل أخرى على ولع الاندلسيين بالعيش في أحضان الطبيعة ، فقد كان خروج الناس والامراء للتروح والنزهة ، شيئاً مألوفاً ، ولم يكتفوا بالطبيعة البرية ، بل كانـوا يقصدون البحر في فصل معين لهذه الغايـة ، حتى من قرطبة التي تبعد عنـه أكثر من مائة كيلو متر ، ويذكر الخشنى صاحب قضاة قرطبة « ان الامير عبد الرحمن بن الحكم (الثاني) خرج في زمان الخريف على ما كانت الخلفاء تلتزمه من التروح الى اشبيلية وساحل البحر[2] » •

التغير في العادات الاندلسية

قدّمت الفعاليات الاقتصادية التي نشطت في هذه الفترة ، للأندلس امكانية وأداة نقل وتمثل التأثيرات المشرقية الواردة من المجتمع العباسي الذي دخل مرحلة الأوج في الرقي والتقدم • فقد خلقت للأندلس الامكانيات والقدرة ، على اقتباس عادات المجتمع العباسي الشرقية الراقية في الملبس

---

١ ـ Los contornos de las cuidades Hispano-Musulmanes. Al-Andalus vol. Xv, 1950, p.p. 446-453.

٢ ـ الخشني ، قضاة قرطبة وعلماء افريقيا ، ص ٧٦ •

والمآكل ، التي لا يمكن أن تنتقل الا الى مجتمع بلغ مستوى من الرفاه المادي موازناً أو مقارباً لمستوى المجتمع العباسي ، والنشاط الاقتصادي في الاندلس خلال هذه الفترة أوصل الاندلس الى هذا المستوى • كما أن نشاط طرق المواصلات ، مع ازدياد تنقل التجار بين البلدين كوّنا الأداة التي سهّلت نقل هذه المؤثرات وعرّفت أبناء المجتمعين على بعضهما ، مما أدى لانتقال فئات من المجتمع العباسي الراقي الى الاندلس • يهمّنا منها في مجال نقل العادات فئتان وهما فئة الجواري كتلك المجموعة التي ذكرناها من جواري عبد الرحمن الثاني ثم فئة المغنّين • ويأتي على رأسهم أبو الحسن علي بن نافع الملقب بزرياب تشبيهاً له بطائر أسود غرد يطلق عليه هذا الاسم ، أو نسبة لصوته المشبّه بالذهب ، لأن زرياب كلمة معربة عن الفارسية أيضاً معناها الذهب • يعود سبب قدوم زرياب الى الأندلس ، الى أنه كان تلميذاً لاسحق الموصلي مغنّي الرشيد الذي قدّمه له دون أن يدرك مدى ما وصل اليه ، فلما حاز اعجاب الخليفة ، استبدت الغيرة بالاستاذ وهدده بالموت ان لم يرحل عن بغداد • وكان زرياب يؤمن بقدرة أستاذه على تنفيذ وعيده ، فاتجه نحو المغرب الاسلامي حيث نزل أمداً في القيروان لدى الاغالبة ثم غادرها الى الاندلس فوصلها عند وفاة الحكم ، وأعلن الامير الجديد عبد الرحمن الاوسط عن ترحيبه به ، ولما قدم الى قرطبة منحه راتباً شهرياً له ولأولاده ، بالغت الرواية في تقديره فجعلته يزيد في العام عن ثلاثة آلاف دينار ، ومنحة سنوية (معروف) ثلاثة آلاف أخرى لكل عيد من العيدين الف دينار ولكل من يومي النوروز والمهرجان خمسمائة دينار ، وأصبح المفضل لدى عبد الرحمن عن كل المغنين ، وجليسه على النبيذ ، لا للغناء فقط بل للتذاكر في أحوال الملوك وسير الخلفاء ونوادر العلماء ، وفتح له باباً خاصاً يستدعيه منه متى أراده • هذا الاكرام البالغ وذلك التفوق الساحق لزرياب في الاندلس ، جعله يبدو أمام الناس كأعجوبة ،

وغذّى هو تلك النظرة بالادعاء أن الجن تهبه الحانه • ولم تقتصر ابتكاراته على الاصوات والالحان فقط ، بل تعدتها الى الابتكار في نفس الآلة ، فعوده لا يزيد في الوزن على ثلث العود السابق ، كما انه أجرى تعديلا في الأوتار ، فبعد أن كانت هذه أربعة الاثنان الأولان منها حريريان سمي أولهما الزير وصبغ بلون أصفر والثاني المثنى المصبوغ بلون أحمر • ويليهما اثنان من مصران الحيوان ترك الاول منهما المثلث دون صبغ وصبغ الاخير وهو البم بلون أسود ، وكان كل واحـد من الاوتار ضعف الذي قبله في الغلظ • أضاف زرياب في الوسط وتراً خامساً ، كما جعل الأوتار الحريرية لانغزل بالماء الساخن الذي يكسبها انائة ورخاوة ، وادعى انه اتخذ الوترينالأخيرين من مصران شبل أسد ، لأن لها في الترنم والصفاء والجهارة والحدّة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان ، واخترع مضراب العود مـن قوادم النسر ، بدلا من مرهف الخشب ، فهو أنقى في الضرب اضافة لخفته وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته اياه • وأخيراً كانت لزرياب طريقته الخاصة في مرافقة الموسيقى للغناء ،كما كان له منهجه الخاص في تعليم الموسـيقى للمبتدئين ووسائل معيّنة لملائمة الخامات الصوتية مع الغناء الجيد •

كان لهؤلاء المنتقلين من المشرق الى الاندلس الفضل الأكبر في نقل عادات المجتمع العباسي الى المجتمع الاندلسي ، وقد أسند المؤرخون العرب هذا الدور لزرياب دون غيره ، وهو أمر لا يمكن تصديقه الا على أساس الرمزية • ونتيجة لهذا الانتقال تغيرت العادات في الزينة ، فقد كان السائد فيها أن جميع من في الاندلس من رجل أو امرأة كان يرسل شعره مفروقاً وسط الجبين غاماً للصدغين والحاجبين ، فعاينوا من المشارقة الجدد تحذيفهم لشعورهم وتقصيرها دون جباههم وتسويتها مـــع حواجبهم وتدويرها الى آذانهم واسدالها الى أصداغهم ، استحسنوا ذلك وهوت اليه أفئدتهم وظلت هذه الطريقة متبعّة عدة قرون بالنسبة للجواري والخصيان • وفي مجال الزينة استخدمت مواد جديدة في المغابن لطرد رائحة البدن ، كما طوّرت

العادات القديمة المستخدمة لهذه الغايــة في استخدام ذرور الورد وزهر الريحان ، التي كانت تضر بالملابس فدلّهم على تصعيدها بالملح وتبييض لونها.

وفي المآكل اعتبر زرياب أول من اجتنى بقلة الهليون في الأندلس وانتشر نوع من الطعام يسمى التقايا وهــو مصطنع بماء الكزبرة الرطبة محلّى بالسنبوسق والكباب • ثم نوع من التقلية نسب اليه أيضاً • وفي ترتيب المائدة شاعت عادات جديدة مشرقية كتفضيل آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب والفضة ، وكذلك فرش انطاع الأديم اللينة بدل ملاحف الكتان التي كانت سابقاً واختيار سفر الأديم لتقديم الطعام فيها على الموائد الخشبية وذلك كله لسهولة تنظيفها • أما في الملبس فقد شاع ارتداء الملابس التي يختلف لونها وسمكها بحسب الفصول ، ففي الصيف واعتباراً من عيد العنصرة عندهم في ٢٤ حزيران ، ترتدي الملابس البيضاء حتى أوائل تشرين الأول وفي الفصول التالية يلبسون ألبسة ملوّنة ، يكون أخفها في الربيع ، وتليها في الثقل ملابس الخريف لوقوع البرد في الغدوات ، ثم ملابس الشتاء[١] •

الجهاز الاداري والعسكري

استجابت التنظيمات الادارية التي جرت في عهد عبد الرحمن وأتمها بعده ابنه الامير محمد لضرورات التطور الاقتصادي وما نجم عنه من دخول التأثيرات المشرقية في جميع المجالات •

كانت النقود المضروبة في الأندلس قبل عهد عبد الرحمن الثاني قليلة، الأمر الذي يقف حجر عثرة في طريق التجارة ، لأنــه يقصر التعامل على المقايضة ، فأسس عبد الرحمن دار السكّة ونتيجة لذلك تضاعف عــدد النقود المتداولة وخاصة ذات القيم المتوسطة والدنيا من دراهم وفلوس ، ويلاحظ من بقايا النقود الباقية حتى الآن ، تحسّن مفاجىء ابتداء من عام ٢٢٩ هـ / ٨٤٣ ـ ٨٤٤ م في اتقان الضرب[٢] •

---

١ ـ أنظر : رواية ابن حيان في النفح ، ج ٤ ، ص ١١٨ ـ ١٢٨ •

٢ ـ F. Codera y Zaidin, Numismatica, Arabigo-Española, p. 65.

يظهر أثر الاتصال بالمشارقة واضحاً بقيام الامير باكساء منصبه ابهة الجلالة والانعزال عن الناس كالخليفة العباسي ، ووضع نظام دقيق لتصنيف الناس وسائر أهل الخدمة الى مراتب وطبقات • فانقسم هؤلاء الى قسمين رئيسيين • أولهما أصحاب الكتابة والرسائل وفيهم الكتاب والوزراء • شكّل الوزراء بمجموعهم مجلساً يقيم في بناء خاص ، بناه لهم عبد الرحمن الثاني في بوابة قصره ، حيث كان يستدعيهم يومياً بصورة جماعية أو افرادية ، كي يقدّموا له الحساب أو يخبروه برسائل الأمصار الواردة أو الصادرة • أما في مجلسهم فكان لكل واحد منهم دست مفروش بالكتان يجلس فيه ، ويرفع عند عزله • وقد ارتفع دست واحد عن البقية وهو الذي أطلق عليه اسم الحاجب الذي كان بمثابة الرئيس لهم وصلة الوصل بينهم وبين الأمير• ورتبة الوزارة رتبة عالية مادياً ، اذ وصل رزق الواحد منهم الى ٣٥٠ دينار شهرياً ، ومعنوياً أيضا كما يستدل على ذلك من تحديد قواعد التشريفات لتصرّفاتهم ، فالوزير لا يقوم الا لوزير مثله ، واذا زاره يتلقّاه وينزله معه على مرتبته ولا يحجبه ولا لحظة[1] •

أما القسم الثاني من مراتب أهل الخدمة ، فهو قسم الادارة المالية ، وفيه المديرون الذين دعي الواحد منهم قهرمان والامناء جمع أمين وهم المشرفون على السجلات ، ويتولى التفتيش الدائم عليهم أمناء ذوو صلاحيات واسعة • ولم يقتصر نظام التشريفات على تصنيف المهام بل تعداها الى تصنيف المقامات حتى ضمن المرتبة الواحدة ، فقد أقرّ هذا النظام ان من جملة المراتب مرتبة موالي الأمويين ، وضمن هذه المرتبة كان مقام موالي الأمويين الشاميين أعلى من أمثالهم البلديين[2] ، حسبما رتبه الامير محمد •

---

١ ـ ابن بسام ، الذخيرة ••• قسم رابع ـ مجلد أول ، ص ٤١ ـ ٤٢ • الحلة السيراء ، ج ١ ، ص ١٢٣ ـ ١٢٤ •

٢ ـ أنظر : الحلة السيراء ، ج ١ ، ص ١٢١ •

كان من نتائج التطوّر الاقتصادي توسع قرطبة التي غصت بساكنيها ، فاندفعوا يبنون خارجها ، حتى تجاوزوا حدود المقابر ، مما اضطر قاضي قرطبة في عهد عبد الرحمن الى اصدار حكم يثبت فيه حدود مقبرة الربض[١] . واضطر عبد الرحمن لمواجهة المشاكل الناجمة عن هذا التضخم ، فقد أصبح من غير الممكن ابقاء ادارة الامور المتعلقة بالاشغال العامة والأمن والاشراف على المبيعات والموازين والمكاييل بيد موظف واحد هو صاحب السوق ، كما كانت قبلا . فأبقى وظيفته التي سيصبح اسمها الحسبة وسيسمى صاحبها المحتسب ، لكنه حصر مهامها في مراقبة الموازين والمكاييل والمبيعات[٢] ، وأفرد لكل مهمة من المهمات الأخرى ، موظفاً خاصاً بلقب خاص ، فالخدمات العامة تركت الى صاحب المدينة ومشكلات الامن عهد بها الى صاحبي الشرطة العليا والدنيا .

أما في الجيش فان زيادة واردات الأمراء مكنتهم من شراء العبيد بكثرة ، وهكذا احتفظ عبد الرحمن الثاني لنفسه بجميع مماليك أبيه من الخرس بعد أن اشترى من اخوته حصصهم ، واشترى بالاضافة لهم أعداداً أخرى من أنحاء مختلفة من غاليا وشمال اسبانيا حتى وصل عددهم في حرسه الى ٥٠٠٠ شخص ، منهم ثلاثة آلاف من الفرسان والفان من المشاة . كما أن عدد أفراد الجيش النظامي زاد لقدرة الامير على استخدام عنصر جديد ، هو عنصر المرتزقة الذين يخدمون مقابل رزق معين ، ويحترفون الخدمة العسكرية . فأضيف هؤلاء الى العنصرين الماضيين المعروفين في الجيش ، وهما الحشد ، الذين ينضمون للجيش عند النفير . والجند ، أقدم العناصر العسكرية ، الذين تقدّمهم الكور المجنّدة . والجدير بالملاحظة أيضاً أن أهل قرطبة ، كانوا كغيرهم يقدّمون للحشد عند النفير أعداداً منهم ، لكن الامر تغير في هذه الفترة بفضل النشاط الاقتصادي عندهم ، اذ أصبح من

---

١ ـ الخشني ، قضاة قرطبة ، ص ٧٥ .

٢ ـ ابن سعيد ، المغرب ، ج ١ ، ص ٤٦ .

مصلحتهم أن يكرّسـوا كل أوقاتهم لأعمالهم كما أصبح بمقدورهم أن يعوّضوا تخليهم عن الحشد بدفع المال ، فأعفاهم عبد الرحمن من واجب الحشد ، مقابل أن يجهزوا على حسابهم مجموعة من المطوّعة ، عند كل صائفة . وعندما جاء الامير محمد بعده المعروف بالاقتصاد والذي خفّف الهبات والاعطيات وأنقص مرتبات أهـل الخدمة ، أعفى القرطبيين مـن ضريبة الحشد والبعوث[1] .

---

١ ـ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١٠٩ .

التغير في الحياة الفكرية

استقلت الاندلس من ناحية سياسية عن سلطان الخلافة في المشرق ، وسارت على خط سياسي مستقل عن السياسة العباسية ان لم يكن مناقضاً لها في بعض الاحيان ، كما نرى ذلك في علاقات الطرفين مع الدولة البيزنطية، فبينما كان العباسيون في حروب شبه دائمة ضدها ، كان أمراء الاندلس يتبادلون سفارات الود والصداقة معها • لكن الأمر اختلف في الميدان الحضاري اجتماعياً وفكرياً ، اذ يلاحظ أن العادات المشرقية في الملبس والمسكن والمأكل سادت في الاندلس ، كما أن المشرق كان مصدر الثقافة للأندلسيين ، وان اختلف مدى اقتباسهم منه كماً وكيفاً ، باختلاف درجة تطورهم وزمن اقتباسهم •

الاوضاع الفكرية في المشرق خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة

كوّن القرنان الثاني والثالث للهجرة في المشرق العباسي عصر نشوء العلوم ، اللغوية والادبية والعقلية وتكاملها ، فقد اختلط العرب بغيرهم من سكان البلاد المفتوحة في شتى المجالات ، وأقبل هؤلاء على تعلّم اللغة العربية في وقت فشا فيه اللحن في نطق العرب نتيجة للاختلاط ، وهذا كله أدى الى قيام حركة جمع اللغة وتصنيف المعاجم واستنباط قواعد اللغة وأوزان الشعر •

وفي مجال الفكر الديني ظهرت تيارات فكرية متعدد ّة ، نتيجة لعوامل متعددة ، ظلت تعمل عملها منذ أيام الخلفاء الراشدين ، تجلّت هذه العوامل، أولا في الانقسام السياسي حول الخلافة ، ثم في مواجهة العرب المسلمين

لظروف حياتية جديدة مباينة للحياة في مواطن الاسلام الاولى ، ودخول الثقافات الاجنبيـة ، من هنديـة وفارسية ويونانية ، وأخيراً اعتناق أناس للاسـلام ، يحملون في عقولهم مفاهيم دينية سابقة صبّت بقوالب فلسفية يونانية ، كما كان بعضهم يبطن نيّة الدسّ على دين الفاتحين والرغبة في تشويهه ، وهذا كله أدى الى تأثر العديد من الاحزاب السياسية ، لحد كثير أو قليل ، فانقلب بعضها من فرق سياسية الى دينية ذات عقيدة خاصة ، رأت فيها الجماعة ابتعاداً عنها • • وانتشر كذلك اختلاق الاحاديث على الرسول (ص) ، مما دعا لقيام حركة علمية هدفها استخراج الحديث الصحيح ، واستطاعت السير بخطى موفقة نحو الهدف بفضل المنهج العلمي الدقيق الذي وضعته وسارت عليه •

كان من نتيجة تطبيق العقل الفلسفي على العقيدة ، وفلسفة أمـور الدين ان احتدم النقاش ، بين المسلمين حول نواح متعددة من نواحي الاعتقاد ، هل الانسان مسيرّ أم مخيرّ ؟ هل القرآن مخلوق أم غير مخلوق ؟ هل تخلد الروح أم تفنى ؟ الى غير ذلك من المسائل التي كوّنت علماً خاصاً هو علم الكلام ، الذي اشتهر المعتزلة في ميدانه وتوصلوا الى صياغة نظرية متكاملة تستوعب هذه المسائل مدار الجدل والنقاش •

وتجاه تصريف الامور التي واجهت المسلمين في ظروف الحياة المتباينة والمتطورة يوماً بعد يوم وفق أحكام الدين الحنيف ، اختلف فقهاء الجماعة حول أهمية مصادر التشريع الثلاثة التي تلي القرآن الكريم من سنة وقياس واجماع ، وحول الاعتماد على مصادر أخرى ، ثم حول الشروط التي يجب أن تتوفر في كل مصدر من هذه المصادر ، ليصحّ الاعتماد عليه • وهكذا انقسمت الجماعة من ناحية فقهية بين ثلاثة عشر مذهباً ، بقي منها حتى العصر الحاضر أربعة مذاهب هي : مذهب أبي حنيفة المتوفى سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م ومذهب محمد بن ادريس الشافعي المتوفى ٢٠٤/٨١٩ ـ ٢٠ م ،

ويدعو البعض أتباع هذين المذهبين أهل الرأي والقياس لاعتمادهما الكثير على هذين المصدرين من مصادر التشريع ، وان كان المذهب الشافعي أكثر من المذهب الأول اعتماداً على السنّة • أما أهـل الحديث فقد تجمعوا في المذهب المالكي نسبة الى مالك بن انس ت ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م ، وأتبـاع أحمد بن حنبل ت ٢٤١/٨٥٥ م •

أمـا بقية المذاهب الفقهية الاخرى المتعددة فقـد بادت الآن ، ولعل أشهرها وأكثرها انتشاراً في ذلك العصر : مذهب الاوزاعي نسبة للامام الأوزاعي ت ١٥٨ هـ / ٧٧٤ م والمذهب الظاهري وصاحبه داود بن خلف الاصفهاني المعروف بداود القياسي ت ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ - ٨٤ م •

الثقافة الاندلسية منذ الفتح حتى فترة ازدهار عصر الامارة

بينما كانت الثقافة العربية في المشرق ، تتطور خـلال القرن الثاني الهجري بالشكل الذي ذكرناه ، كانت ظروف الاندلس تقدم كل ما من شأنه جعلها تعاني من حالة ركود وجمود ، فعرب الاندلس غادروا المشرق في أواخر القرن الاول ومطلع القرن الثاني ، قبل أن تتطور الثقافة العربية فيه • أضف الى ذلك أن نوعية غالبيتهم لا تجعلهم أهلا لحمل العلم ونقل الثقافة ، اذ كان أغلبهم جنداً محاربين نجد في الصميل بن حاتم الأمي ، أحد زعمائهم مثلا واضحاً على مستواهم الفكري[1] • لذا يمكن القول أن ثقافتهم اقتصرت على معارف بسيطة منها ما كان متعلقاً بالدين ، ومنها ما كان موروثاً عن المعارف البدوية ، مع توفر عدد كبير منهم قادر على نظم الشعر ، اذ يندر وجود زعيم لهم ، لا تنسب اليه المراجع الادبية والتاريخية بعض أبيات شعرية •

لم يتوفّر لهؤلاء الفاتحين التأثر بثقافة الارض الجديدة القوطيـة

١ - انظر : ما مر سابقا ، ص ٥٥ •

المسيحية نظراً لضعف هذه الثقافة وضيق أفقها واقتصارها على المجال الديني المسيحي بصورة عامة[1] • أضف الى ذلك أن ظروف الاضطراب السياسي، التي عاشتها الاندلس خلال عصر الولاة وأوائل عصر الامارة ، خلقت فيها جواً لا يلائم أي تقدّم في مضمار الثقافة عند عامة الناس وخاصتهم ، لانهماكهم أو تأثرهم بالنزاعات الدموية التي سيطرت على مسرح الاحداث• لهذا اقتصر اقتباس الاندلسيين من الثقافة في هذه الفترة على ما هو ضروري لتسيير أمور الحياة وفق أحكام الدين الاسلامي ، اقتبسوه كله من المشرق اما بواسطة الوفود التي يرسلها الامراء ، كما حدث عندما حمل وفد أرسله الحكم الربضي الى المشرق كتاب الحساب الهندي المعروف عند العرب باسم السندهند ودخلت معه الى الاندلس الارقام الهندية ، ومنها انتقلت الى أوربا بسرعة فائقة[2] ، ومما تجدر الاشارة اليه أن الحساب ضروري لتقسيم الارث• ولسدّ الضرورة في اقامة الاحكام سار الاندلسيون كما رأينا على رأي الامام الاوزاعي ، ثم انتشر وساد اعتباراً من أيام هشام الرضا المذهب المالكي •

أما أسباب سيادة المذهب المالكي على الاندلس ، فعدا عن عاملي التعاطف السياسي بين هشام الرضا ومالك بن أنس من جهة ، ونفوذ الشخصيات المالكية الكبيرة في الاندلس المرتبطة مع تفضيل الناس لمصلحتهم[3] ، من جهة ثانية ، هناك أسباب وضعية أشار اليها ابن خلدون في مقدمته ، منها أن الاندلسيين أخذوا الفقه من الشيوخ الذين اجتمعوا بهم في طريقهم أو أثناء اقامتهم في الحجاز لأداء فريضة الحج • والمالكية مذهب أهل الحجاز • كما أن الاندلس كانت آنئذ أقرب للبداوة منها الى الحضارة فهي بهذا الوضع ، أشبه بالحجاز حيث ساد مذهب مالك منها بالعراق[4] • برز من

---

١ _ Asin Palacios, Ibn - Massara y su Escuela, Obras Escogidas, T. II, p. 22.
Elias Teres, Islamolagia, T. II, p. 982.

٢ _ ويذكر ابن سعيد في : المغرب ، ج ١ ص ٤٥ ان عبد الرحمن الثاني هو مرسل الوفد •

٣ _ أنظر : رأي ابن حزم بهذا الخصوص فيما مر سابقا ، ص ١١١ •

٤ _ مقدمة ابن خلدون ، ص ٨٠٥ •

أول المالكيين بالاندلس كل من : يحيى بن يحيى الذي أخذ عن مالك بن أنس بالذات وروى عنه الموطأ ، وتعتبر روايته من أصح الروايات التي بقيت حتى الآن عن موطأ مالك ، يليه عيسى بن دينار الذي ينسب اليه كتاب التراجم ، انه أول من علم الناس المسائل ، ثم عبد الملك بن حبيب الذي أخذ من طبقة أصحاب مالك وعاد الى الاندلس ليدوّن كتاب الواضحة[1] ثم دوّن العتبي من تلامذته كتاب العتبية وأصبح الكتابان لدى الأندلسيين كتابي الفقه الاساسيين .

اتخذ المذهب المالكي في الاندلس خلال هذه الفترة شكلا خاصاً ، نتيجة لانتشاره هنا في اطار سد الضرورات ، فكان عبارة عن حفظ رأي مالك وأصحابه ، ودراسة للفروع دون الاصول ، وعلى الرغم من تسرب مذاهب أخرى فيما بعد الى الاندلس ، وانتشار دراسة الاصول وخاصة الحديث ، الا أن آراء مالك وأصحابه ظلت ذات أثر كبير في نواح مختلفة من الحياة الفكرية .

نتائج سيطرة آراء مالك وأصحابه في الاندلس

لم يقتصر سير الاندلس وراء الفقهاء المدنيين على أمور الفقه فقط ، بل انعكس هذا على أمور أخرى ، فمن أصحاب القراءات السبعة المشهورين الأوائل سادت في الاندلس قراءة نافع قارىء أهل المدينة[2] ، وينسب لمالك بن أنس قوله « قراءة أهل المدينة سنة قيل له قراءة نافع . قال نعم[3] » . ولم يقف الامر عند هذا الحد في هذا المجال بل تعداه الى تقليد الأندلسيين للمدنيين في نقط المصحف وشكله[4] .

---

١ ـ المصدر السابق ، ص ٨٠٧ .

٢ ـ ينسب ادخال قراءة نافع للاندلس للغاز بن قيس في عهد عبد الرحمن الداخل . أنظر : افتتاح الاندلس ، ص ٥٨ .

٣ ـ أنظر : محمد بن الجزري ، غاية النهاية في طبقات القراء ، القاهرة ١٩٣٣ ، ت ٣٧١٨ .

٤ ـ أبو عمرو الداني ، المقنع ، تحقيق محمد احمد دهمان ، دمشق ١٩٤٠ ، ص ١٢٦ .

٢ ـ تحدّد الموقف السائد في الاندلس تجاه علم الكلام والمتكلمين برأي مالك وأصحابه فيه ، فعلم الكلام انما هو الدفاع عن الحقائق الايمانية ببراهين عقلية[١] . ومالك يرى الامتناع عن الجدل أصلا ، ويقول بالنسبة لمن يعتمد ايمانه بالدين على الجدل « أرأيت أن جاء من هو أجدل منه ايدع دينه كل يوم لدين جديد ؟ » وتجاه تركيز أصحاب علم الكلام جدلهم على الاعتقاد في صفات الله واسمائه وصبها في قوالب المنطق اليوناني ، فاذا ما بدا ظاهر آية من الأيات القرآنية الكريمة يخالف مقتضيات ذلك المنطق لجؤوا للتأويل ، كان فقهاء المالكية في الاندلس ، يرون على لسان أحدهم[٢] « ليس في الاعتقاد كله في صفات الله واسمائه الا ما جاء منصوصاً في كتاب الله أو صحّ عن رسول الله (ص) أو اجتمعت عليه الأئمة وما جاء في أخبار الآحاد في ذلك كله أو نحوه يسلّم له ولا يُناظَر فيه » ولذا اعتبر أهل الاهواء عند مالك وسائر أصحابه هم أهل الكلام فكل متكلّم فهو من أهل الاهواء والبدع ، ولذا فمصيره النار ، لا تصح عنه الرواية ولا تقبل له شهادة في الاسلام ، ويؤدب على بدعته بأن يدعى للرجوع الى السنة والجماعة فان رجع قبل منه وان أبى ضربت عنقه » .

كنتيجة لهذه الآراء تكوّن في الاندلس ما يمكن تسميته رأياً عاماً معاديا لعلم الكلام ، وهذا ما يفسر استتار كل من تعلق بالخوض فيه ، ولم يتجرأ الأمراء والخلفاء فيما بعد على التسامح مع هؤلاء رغم شهرتهم بالتسامح مع الجميع كالخليفة الحكم الثاني ،الذي أكرم أحد العلماء المشارقة على عادته ،فلما علم بأنه معتزلياً أمر باخراجه من الاندلس[٣] . وبهذا الموقف الذي وقفه الفقهاء والامراء من ورائهم ، تحققت للأندلس في تاريخها وحدة العقيدة ، فخلت بوجه عام من المذاهب المارقة كما كان الحال في المشرق ، وهـذا

---

١ ـ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٨٢١ .
٢ ـ هو أحمد بن محمد بن سعدي .
٣ ـ ابن الفرضي ، ج ٢ ، ت ١٤٠٣ .

الامر يدفع المرء للتساؤل : فيما اذا كان سير الفقهاء والأمراء يعود الى شيء آخر عدا تعاليم مالك وهو ادراكهم بصورة فطرية انهم بعيدون عن مركز الاسلام ، وبقاؤهم في هذا المكان البعيد رهين بوحدة صفهم[1] ؟

وكان من نتيجة الابتعاد عن الجدل في شؤون الدين ، وعدم الاعتماد على النظر والقياس كحجج في شؤون الدين ، أن تحدد موقف الفقهاء الأندلسيين من الجدل مع أهل الذمة ، فهؤلاء يدعون الى الاسلام فان قبلوا كف عنهم ، وان أبوا وبذلوا الجزية في موضع يجوز قبولها كف عنهم وقبل منهم ، اما أن يناظروا على أن لا يحتج عليهم بالكتاب ولا بالسنة فهذا لا يجوز ، ولذا هال الفقهاء الاندلسيين أن يروا في مجالس أهل الكلام في العراق ، بعد أكثر من قرن من تاريخ الفترة مجال بحثنا ، حضور أناس من شتى الاتجاهات والديانات والمعتقدات ، ويتعاملون على قدم المساواة ويتناظرون بحجج العقل وما يحتمله النظر والقياس ، ووجدوا في ذلك ذهاب حرمة الاسلام فامتنعوا عن حضور هذه المجالس[2] .

تغير منحى الحياة الفكرية في فترة ازدهار الامارة

في فترة ازدهار عصر الامارة ، قدم الاستقرار السياسي وما تبعه من نشاط اقتصادي بفعالياته كلها ، من زيادة الاتصال مع الخارج وخاصة مع المشرق وتسهيل سبله ، مع ماانتج عن ذلك من رفع سوية حياة الناس مكنتهم من السمو لطلب العلم ، ظروفاً ملائمة للازدهار الثقافي .

تمثل هذا الازدهار بدخول المؤثرات المشرقية في جميع ميادين العلم ، والبداية الاولى لظهور العلوم في الاندلس .

الاقبال على العلم . ـ أصبح المجتمع الاندلسي على درجة كافية

---

١ ـ Asin Palacios, Ibn Massara y su Escuela, Obras Escogidas, T. II, p. 24.

٢ ـ الضبي ص ١٤٤ .

من الغنى لينفق فيها الناس على تعليم أنفسهم وأبنائهم وتوفرت لهم وسائل ذلك من مال وفراغ ، وهكذا تحرك ذوو الهمم منهم لطلب العلم ، كما يقول صاعد الطليطلي[١] ، ونرى مثلا عليهم في أميري هذه الفترة فقد كان عبد الرحمن الثاني عالماً بالشريعة والفلسفة وقد شبهه البعض بالمأمون العباسي[٢] في طلبه للكتب الفلسفية ، كما انه كان مولعاً بالسماع يؤثره على جميع لذاته . أما ابنه الامير محمد فقد أنشأ نواة مكتبة القصر[٣] التي ستصبح بعد قرن من هذا التاريخ في عهد الحكم الثاني واحدة من كبريات المكتبات في العالم ، ان لم تكن أكبرها في ذلك العصر ، كما انه أقطع أحد العلماء الواردين من المشرق اقطاعاً ، وعنه روى الحديث[٤] .

وقد ساعد الناس في مسعاهم هذا حصول تطورات ملائمة في عهدهم ، منها انتقال صناعة الورق اليهم بعد انتشارها في المشرق أيام الخليفة العباسي هارون الرشيد ، واقامة مراكز لصناعته عندهم في كل من شاطبة (Jativa حالياً) وطليطلة[٥] ، ومنها كذلك ازدياد الاحتكاك مع المشرق مع تعاظم النشاط التجاري وتحسن وسائل المواصلات البحرية ، والعراق في المشرق حسب تعبير بعض الاندلسيين « دار هجرة الفهم وذويه ومراد المعارف وأربابها » ومن شأن ذلك تعدد وتكاثر طرق انتقال الثقافة منه .

طرق انتقال الثقافة من المشرق الى الاندلس . ـ لم يعد انتقال الثقافة من المشرق الى الاندلس مقتصراً على ما ينقله الحجاج والوفود الرسمية ، بل تعداهم الى الطلاب الوافدين على المشرق يطوفون بشتى مراكز العلم حيث قضى بعضهم أمداً من حياتهم ، وصل عند البعض الى خمسة وعشرين

---

١ ـ صاعد الطليطلي ، طبقات الامم ، مطبعة السعادة بمصر ، ص ٩٧ .

٢ ـ السيوطي تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٥٢٢ .

٣ ـ J. Ribera, Disertaciones y opusculos, T. I. p. 191.

٤ ـ ابن الابار . التكملة ، ج ١ ، ص ٨ .

٥ ـ Juan vernet, los Musulmanes Espanoles, p. 107.

عاماً ، وحيث انفق الكثيرون القسم الاعظم من ثرواتهم في شراء الكتب التي أدخلوا منها الى الاندلس أحمالا كما حمل غيرهم كثيراً من العلم رواية ، مقابل بعض التجار الذين كانوا يحملون مع بضائعهم كتباً وهم لا يقومون الهجاء .

أما الجواري اللواتي كن من مقتضيات الترف الذي ظهر في هذه الفترة فقد تعددت أنواعهن في المشرق انذاك لتتلائم مع كل الأذواق ، وزود بعضهن بالكثير من معارف العصر من موسيقى وشعر وأخبار وحديث ، كجاريتي عبد الرحمن اللتين أشرنا اليهما سابقاً ، وعابدة المدينة ، التي كانت جارية سوداء من رقيق المدينة ، وقال عنها بعض الحفاظ أنها تروي عشرة آلاف حديث عن مالك بن انس أمام دار الهجرة وغيره من علماء المدينة ، وقمر جارية ابراهيم بن حجاج ، التي ستصل الى الاندلس بعيد فترة الازدهار هذه ، والتي « جلبت من بغداد وجمعت أدباً وظرفاً ورواية وحفظاً »[1] .

أضف الى ذلك أن بدء رواج سوق العلم في الاندلس وسخاء أمرائها على المبدعين صادف انتشار الاضطراب في المشرق ، وتسلط القواد الاتراك على الحكم ، وكانوا لا يقيمون للثقافة وزناً لبعدهم عن ميدانها ولكونهم أغراباً عنها لا يفهمونها ، مما أدى لبدء حركة انتقال أهل العلم من المشرق ، تلك الحركة التي بدأت في فترتنا هذه واستمرت في السير بحركة متسارعة خلال قرن كامل .

وأخيراً كانت الدعوة الفاطمية الباطنية في المشرق ترسل بدعاتها الى شتى أصقاع العالم الاسلامي وكان من جملة من ورد منهم الى الاندلس في هذه الفترة ، علماء حملوا معهم من المشرق ، بالاضافة لعلمهم ، بعض الكتب الهامة كالعالم الرياضي أبي اليسر ابراهيم بن أحمد الشيباني[2] .

---

١ ـ النفح ، ج ٤ ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧ .

٢ ـ ابن الفرضي ت ٢٠١ .

العلوم التي انتشرت في هذه الفترة

العلوم الدينية

دخل علم الحديث الى الاندلس مع أصول الفقه التيوضعها الشافعي ، ويعزو ابن الفرضي ادخالهما الى كل من محمد بن وضاح وبقي بن مخلد وبهما أصبحت الاندلس دار حديث حسب رأيه . أما الاول فقد رحل الى المشرق مرتين لقي فيهما الزهاد والعباد وحمل كثيراً من الحديث من (١٧٥) شيخاً لقيهم في المشرق من بينهم أحمد بن حنبل ، وكان « عالماً بالحديث بصيراً بطرقه متكلماً على علله » حتى انتقده البعض لكثرة ما ردّ من أحاديث[١] ، أما بقي بن مخلد فقد رحل الى المشرق فروى عن الأئمة وأعلام السنة وجماعة أعلام يزيدون عن المائتين ، وأدخل كتب حديث كمصنف أبي بكر بن أبي شيبة ، وكتب فقه ككتاب للشافعي واضع أصول الفقه ، وكذلك كتباً للسيرة والطبقات . من الطبيعي أن يقف كبار الفقهاء المالكيين في وجه ادخال مذاهب فقهية جديدة ، أما من ناحية الحديث ، فقد بلغ عداؤهم لعلم الحديث الى حد قول أحدهم : لأن يكون في تابوتي رأس خنزير أحب الي من أن يكون فيه مسند ابن أبي شيبة »[٢] ، وربما يرجع السبب في ذلك الى تمسكهم بموطأ مالك والموطأ كما هو معروف يحتوي على أحاديث رتبت حسب أبواب الفقه ، انما لم يكن مالكاً يسير في تدوين أحاديثه على المنهج الذي اتبعه فيما بعد علماء الحديث والذي جاء به هذان العالمان ويحاولان ، وخاصة ابن وضاح تطبيقه سواء من ناحية الاسناد أو قواعد القبول والرفض والتصنيف الى درجات من ناحية الصحة ، ذلك لأن عصره ومكان وجوده في المدينة لم يكونا يتطلبان ذلك ، ولذلك كان الفقهاء الاندلسيون المالكيون الذين هاجموا علم الحديث جاهلين به وخاصة من ناحية رجاله .

لم تفد المعارضة كما لم تنجح اخافة الامير محمد من شر ما أتى به

---

١ ـ ابن الفرضي ، ج ٢ ، ت ١١٣٦ .

٢ ـ أنظر : ترجمة اصبغ بن خليل في المصدر السابق ج ١ ، ت ٢٤٧ .

بقي ابن مخلد واتهامهم اياه بالزندقة والمطالبة بسفك دمه ، اذ اطلع الامير على مناظرة بين بقي وخصومه فحماه وأذن له بتعليم ما أتى به ، وسمع منه هو ذاته[1] ، وفي ظل هذه الحماية أتيح لبقي بن مخلد أن ينتج الكثير فكان ممـا أنتجه مصنفه الكبير الذي رتّبه على أسماء الصحابة ، ثم رتب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الاحكام ، فهو مصنّف ومسند، ويقول ابن حزم في ذلك « انه لا يعلم هذه الرتبة لأحد قبله مع ثقته وضبطه واتقانه واحتفاله فيه بالحديث وجودة شيوخه ، فانه روى عن مائتي رجل وأربعة وثمانين رجلا ليس فيهم عشرة ضعفاء وسائرهم أعلام مشاهير » ثم وضع كتاباً آخر في التفسير يقول عنه ابن حزم : « وهو الكتاب الذي اقطع قطعاً لا استثني فيه انه لم يؤلف في الاسلام مثله ، ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره »[2] ، الا أن أقوال ابن حزم هذه يجب أن تؤخذ بتحفظ ذلك لأنه أوردها في مجال بيان فضل الاندلسيين ومفاخرة المشارقة.

رغم عنف الهجوم الذي شنه الفقهاء الاندلسيون على بقي بن مخلد وادخاله لبعض كتب الشافعي ، الا أنه من ناحية فقهية كان متخيراً لا يقلّد أحداً ، والذي حمل راية الشافعية كان شخصاً آخر هو قاسم بن سيار ، الذي أوصى ابنه قبل وفاته ، بالأخذ برأي الشافعي ان أراد حظاً من الفقه ، لانه حسب رأيه أقل خطأً ، والمهم في عمل ابن سيار ، انه اتخذ في الفقه موقفاً جديـداً ، فتجاه سير الفقهاء الاندلسيين على خط حفظ رأي مالـك وأصحابه أو التقليد ، ذهب هو الى الحجة والنظر ، ورد على سهام النقد الموجهة اليه بكتاب « الايضاح في الرد على المقلّدين »[3] .

---

١ ـ انظر : النفح ، ج ٣ ، ص ٢٧٢ . وانظر كذلك
Asin palacios, la Logique de Ibn Tumulus, Obras, Escogidas, T. II, p. 159.

٢ ـ أنظـر : راي ابن حزم هـذا في : جذوة المقتبس ، ٣٥٩ ـ ٣٦١ ، وفي رسالته في فضل الاندلس ، في النفح ، ج ٤ ص ١٦٢ .

٣ ـ أنظر : الضبي ، ت ١٢٩٣ . الحميدي ، ت ٧٦٤ . ابن الفرضي ، ج ١ ، ت ٧٤١ .

ومن المذاهب الفقهية الاخرى التي دخلت الاندلس في هـذه الفترة المذهب الظاهري الذي يتميز بالقول بأن في القرآن والحديث وعمومياتهما ما يكفي لبيان الاحكام ، والقول بالقياس تشريع عقلي بينما الدين الهي ، وهو يتمسك بظاهر الكتاب والسنة ومن هذا اشتق اسمه • حمل كتب هذا المذهب الى الاندلس عبد الله بن محمد بن قاسم[1] الذي رحل الى العراق وتتلمذ على شيخ المذهب • لكن هذا المذهب لم يحظ بالكثير من الاتباع ولا بالاقوياء منهم ، حتى جاء عصر الطوائف بعد أكثر من قرن وسار عليه الفقيه القرطبي المشهور ابن حزم •

علوم اللغة والأدب

الوضع اللغوي والآدبي في الاندلس • ـ حـدّد التركيب الاجتماعي والاوضاع السياسية والدينية الوضع اللغوي والادبي في الأندلس • فعلى الرغم من كون العرب الفاتحين قلّة بالنسبة لمجموع الناس ، الا أنهم كانوا الحكام ولغتهم لغة الادارة كما انها لغة الدين الاسلامي الذي دخلت فيه نسبة كبيرة من السكان ، وهـذا ما جعل اللغة العربية الفصحى تسيطر مع الزمن في المجـال الثقافي وتستلب من اللاتينيـة الفصحى أهلها بالاضافة لسيطرتها في المجالين السابقين ، وهو أمر شكا منه رجال الكنيسة الاسبانية مرّ الشكوى ، كما سيمر معنا •

لكن اللاتينية العامية أو الرومانس ، التي يذكرها الكتاب العرب اما بهذا الاسم ، أو باللاطينية أو العجمية ، لم يصبها ما أصاب اللاتينية الفصحى من انكماش وانحسار ، بل بقيت كلغة للتخاطب ، يؤكد ذلك وجود صيغة تتردد كثيراً لدى العديد من الكتاب الاندلسيين « اللاتينية العامية التي يتكلم بها الناس في بلدنا » • أما المتخاطبون بها فلم يقتصروا ، بعد مرور الزمن ، على السكان الاصليين ، بل تعداهم الامر الى العرب أيضاً • ونجد دليلا

---

١ ـ أنظر : ابن الفرضي ، ج ١ ، ت ٦٥٥ •

على ذلك في الالقاب بالرومانس التي أعطيت لبعض الأدباء أو الموظفين أو علية القوم ،وبما أن بعضها كان تحقيرياً مثل : بدروجة من (Petra Seca) أي الحجر الجاف ، تعبيراً عن البخل الشديد ، وكاميليو من Camello (جمل ذوسنامين) ، فلا يعقل أن يطلقها الانسان على نفسه أو يطلقها عليه ذووه وانما الناس الذين يتعاملون معه ، وهذا يدل على أن الرومانس كانت لغة شارع متداولة الى جانب العربية ويفهمها كل الناس[1] •

كما أن دلائل أخرى تثبت أن أكثر الناس تضلّعاً في الثقافة العربية الاسلامية ، وهم القضاة ، كانوا يعرفونها أيضاً ، كما يستنتج من الواقعة التي يرويها الخشني ومؤداها أن والد نصر الفتى ، الذي كان مسيطراً في بلاط الامير عبد الرحمن الثاني وكان أعجمي اللسان ، « جاء الى القاضي وهو منصرف الى داره ، فصاح على البعد بالعجمية : كلموا القاضي يثبت علي أكلمه • فقال القاضي (بالعجمية) ان القاضي قد أدركته السآمة من طول الجلوس للقضاء ••• »[2] •

ويذكر نفس المؤلف واقعة أخرى تـدل على أن الوزراء والأمراء بالذات ، كانوا يفهمون الرومانس نطقاً وروحاً • وترد الواقعة في معرض ترجمته لأحد القضاة ، فيقول « ذكرت عنه أشياء : مدارها على قلّة المداراة وترك حسن المعاملة ، وكان حينئذ بالمدينة شيخ أعجمي اللسان يسمى ينير ، وكان مقدّماً عند القضاة مقبول الشهادة ، مشهوراً في العامة بالخير وحسن المذهب ، فأرسل فيه الوزراء وسألوه عن القاضي ، فقال بالعجمية ما أعرفه ، الا أني سمعت الناس يقولون : انه انسان سوء وصغّره باللفظ العجمي ، فلما رفع قوله الى الأمير أعجب من لفظه ، وقال : ما أخرج مثل هذه الكلمة من هذا الرجل الصالح ، الا الصدق فعزله عن القضاء حينئذٍ[3] » • وبعد

---

١ _ J. Ribera, Disertaciones y Opusculos, T. I, p. 30.

٢ _ الخشني ، ص ٩٦ •

٣ _ المصدر السابق ، ص ٨٤ •

هذا العصر نجد بعض الشعراء ، يستخدمون الرومانس للتعبير عن الكلمات البذيئة ، أثناء تهاجيهم في حضرة الخليفة[1] .

وأخيراً وصل تكلم كل عناصر السكان بهـا الى جانب العربية حداً أصبح معه من لا يعرفها شاذاً عن القاعدة العامة ، ونرى دليلا على ذلك عند ابن حزم ، الذي أدرك النصف الاول من القرن الخامس الهجري ، ويورد في كتابه عن أنساب العرب ذكراً لفروع هذه القبائل التي تعيش في الاندلس ومواطنها ، انما لا يشير بشيء الى اللغات التي تتكلمها ، ويخرج عن هـذه القاعدة عند ذكره لقبيلة بلّي فيقول وأهلها « لا يحسنون الكلام باللطينية ، لكن بالعربية فقط ، نساؤهم ورجالهم[2] » فكأنه كان يرى في ذلك شيئاً يميزهم عن كل القبائل الاخرى في الاندلس .

كان تكلم العرب في الاندلس بلغة الرومانس بالاضافة للغتهم العربية التي حملوها معهم ، نتيجة طبيعية ومنطقية لاختلاطهم مع أكثرية تحيط بهم وتتكلم بهذه اللغة . وقد تم هـذا الاختلاط في مجالات متعددة ، منها العمل والسكن ، ولكنه تمّ بشكل أكمل في البيت والزواج ، فمنذ أيام الفتح الأولى ، نرى عبد العزيز بن موسى بن نصير وقواده يتزوجون بالنساء من علية القوط[3] ، وظلت هذه العادة مستمرّة في العصـور التالية ، حتى أن أمهات الامراء كلهن كنّ أمهات أولاد حسب تأكيد ابن حزم . وتـدل ميول الامويين ، التي بقوا يظهرونها حتى أواخر أيام خلافتهم ، في تفضيل نوع معين من الجواري للتسري ، على أنهم كانوا يفضّلون ذوات الاصل الاسباني الشمالي .

---

١ ـ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ .

٢ ـ الجمهرة ، ص ٤٤٣ . وأنظر :

R. Menendez Pidal, El Idioma Español...., p. 30-35.

٣ ـ أنظر : ما مر سابقا ، ص ٢٤ .

٤ ـ ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ٤٤ وأنظر كذلك :

J. Ribera, Disertaciones..., T. I, p. 13-25.

مما لا ريب فيه ، أن تكلم العرب بلغة أخرى الى جانب لغتهم ، قد أدى الى وجود لغة عربية عامية ، ستكون مختلطة بالرومانس أداة التعبير في الزجل الاندلسي • وهـذا كوّن خطراً على اللغة الفصحى ، وخلق ضرورة حفظ كلماتها الاصلية • كما أن اقبال السكان ممن لا يعرفون الفصحى على تعلّمها ، استدعى وجود قواعد تسهل التعلم • أي أن الاوضاع التي كانت موجودة في العراق ، وكانت من جملة الاسباب التي أدت لقيام حركة جمع اللغة والادب الجاهلي وتصنيف المعاجم واستنباط قواعد النحو ، تكررّت ذاتها في الاندلس • فمن الطبيعي تبعاً لذلك أن يقوم طلاب العلم الاندلسيون ، وقد أصبحت العراق قبلتهم الاولى في تلقّيه ، بحمل ما يتوفر من كتب أو روايات عن هذه المواضيع الى بلدهم الاندلس •

وهكذا شهدت هذه الفترة من تاريخ الاندلس ، وهي فترة الازدهار من عصر الامارة ، دخول النتاج المشرقي من علوم اللغـة والنحو • ومنذ البداية لم يحملها الأفراد الاندلسيون وحيدة ، بل مع علوم الدين ، وتم النقل منذ أن كانت عملية جمع اللغة والشعر القديم ، واقامة قواعد النحو تتخطى في المشرق مراحلها الأولى ، فأحدهم[1] أدرك الاصمعي وأخذ عنه مباشرة ولـم يكتف بأن يبقى ناقلا ، بل سلك مسلك المشارقة بأن داخل الاعراب وتردّد في محالها ، وحمل ما تجمّع له من رواية وشعر ، وكتب في هذا المضمار ، ومع أن كتبه غرقت الا أن ما حفظه في صدره كان كثيراً ، وأهّله لنيل منصب قضائي لدى عبد الرحمن الثاني صاحب الميول العلمية •

ومن المشاهير في هذا المضمار ، محمد بن عبد السلام الخشني ، الذي قضى في العراق خمسة وعشرين عاماً[2] ، فأخذ ، في جملة ما أخذه من

---

١ ــ هو عبد الرحمن بن موسى الهواري ، انظر ترجمته في : ابن الفرضي ، ج ١ ، ت ٧٧٨ •
٢ ــ انظر ، الحميدي ، ت ١٠٠ •

علوم الدين ، اللغة والنحو والشعر الجاهلي من شيوخ[1] يروونها عن طبقة المشاهير في هذا الباب ، كالاصمعي وأبي عبيدة معمر بن المثنى وسيبويه ، ومع هـذه الروايات ، كتب في بغداد كتب ابن سـلام ، وأحضرها الى الأندلس ، لكنها كانت قد سبقته[2] • كذلك دخلت أول المعاجم المصنفة في المشرق الى الاندلس في هذه الفترة أيضاً ، اذ أدخل كتاب العين ، الذي سيكون فيما بعد ، موضوعاً للدراسة والتعليق والتهذيب فيها[3] كما دخلها كتاب العروض للخليل الفراهيدي • وقد أهداه تاجر لعبد الرحمن الثاني ، وبدا عسير الفهم على أهل البلاط ، ثم اطلع عليه عباس بن فرناس وفسّره[4] • وفي نفس الوقت كان البعض يأخذون من الشعراء المعاصرين شعرهم رواية ويحملونه معهم فقد قرأ[5] ، مؤدب أولاد الامير عبد الرحمن وأولاد ابنه محمد من بعده ، على حبيب بن أوس ، ديوان شعره وأدخله الاندلس رواية عنه •

العلوم التطبيقية

علم الهيئة • ـ أو علم الفلك ، الذي يعرفه ابن خلدون ، بأنه علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة[6] ، فهو اذن يحتوي على ما هو ضروري لتحديد القبلة وتعيين مواقيت الصلاة • وكان في الاندلس ، قبل فترة الازدهار هذه ، من يلمون بهذه الأمور الضرورية • أما الآن ، فقد اشتهر مسلم الليثي ، المعروف بصاحب القبلة[7] ، بدراسة هذا العلم على الاسس العلمية المعروفة آنذاك عند اليونان ، من اهتمام بشكل الأرض ،

---

١ ـ أنظر : ترجمة شيخية سهل بن محمد السجستاني في : معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٥ ، والعباس بن الفرج الرياشي ، ج ١٢ ، ص ٤٤ ـ ٤٦ •

٢ ـ حملها قبله وهب بن نافع الاسدي ، أنظر ترجمته في : ابن الفرضي ، ج ٢ ، ت ١٥١٥ •

٣ ـ يذكر ابن الفرضي دخول كتاب العين الى الاندلس في ترجمة « قاسم بن ثابت بن حزم » ج ١ ، ت ١٠٦٢ ، قائلا « عني بجمع اللغة هو وأبوه فادخلا الاندلس علما كثيرا ، ويقال انهما أول من أدخل الينا كتاب العين » •

٤ ـ الزبيدي طبقات النحويين ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ •

٥ ـ هو عثمان بن المثنى ، أنظر : ابن الفرضي ، ج ١ ت ٨٩١ •

٦ ـ المقدمة ، ص ٩٠٥ •

٧ ـ صاعد الطليطلي ، طبقات الامم ، ص ١٠٠ •

واختلاف المناخ من بقعة الى آخرى في الأرض ، مع ما رافق ذلك ، من التنبؤ بمصير الناس وأرزاقهم من حركات النجوم • أي أن علم الفلك كان لا يزال مختلطاً بالتنجيم ، كما يستنتج من أشعار يذم فيها ابن عبد ربه مسلم الليثي هذا :

أبيت الا شذوذاً عن جماعتنا	ولم تصب رأي من أرجى ولا اعتزلا
زعمت بهرام أو بيذخت يرزقنا	لا بل عطارد أو مريخ أو زحلا
وقلت ان جميع الخلق في فلك	بهم يحيط وفيهم يقسم الاجلا
والأرض كورية حف السماء بها	فوقاً وتحتاً وصارت نقطة مثلا
صيف الجنوب شتا للشمال بها	قد صار بينهما هذا وذا دولا[1]

صنع الآلات

يبدأ في الأندلس خلال هذه الفترة ، صنع الساعات لمعرفة الاوقات • كان أحد سفراء الدولة الى القسطنطينية يلقب بصاحب المنيقلة أو المنقالة ، مما يدل على انه مبتكر نوع من الساعات • كما نسب الى عباس بن فرناس ، وهو من شخصيات الفترة المشهورة ، صنع أول آلة منقالة على غير رسم ومثال • وعزيت اليه أيضاً ، ابتكارات أخرى في مجال الصناعة ، اذ هو أول من استنبط بالاندلس صناعة الزجاج من الحجارة[2] • وفي مجال علم الفلك ، قيل عنه : انه مثل في بيته شكل السماء وأبدع في تمثيلها حتى ليخيل للناظر فيها انه يرى النجوم والغيوم والبروق والرعود •

تكشف كل هذه الامور عن عقلية مبتكرة ، فليس من الغريب والحالة هذه أن تطوف برأسه امكانية الطيران ، وان كانت القصة التي تروى عن

---

١ ـ انظر بقية القصيدة في : ابن الفرضي ، ج ٢ ، ت ١٤٢٠ •

٢ ـ النفح ج ٤ ، ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦ •

محاولته تنفيذ الفكرة ترتدي طابع الخرافة • مؤدى الفكرة ، ان عباس « احتال في تطيير جثمانه وكسا نفسه بالريش من الحرير ، ومد له جناحين، ثم خرج الى موقع الرصافة حيث طار في الجو مسافة بعيدة ، ولكنه لم يحسن الاحتيال في وقوعه ، فتأذى في مؤخره ، اذ لم يدر أن الطائر انما يقع على زمكه (أي ذيله) ولم يعمل له ذنباً » •

كانت قصة الطيران هذه ، التي نقلها لنا كاتبان عربيان متأخران[1] ، احدى العناصر العربية الاندلسية الكثيرة التي دخلت بشكل غامض الى الادب الاسباني وكونت جزءاً أساسياً منه • وترد ، مع بعض اضافات ، عناصرها كلها بما فيها السقوط وتعليل عدم نجاحه بنقص الذيل من الكساء الذي كسا به من يحاول الطيران نفسه ، ضمن قصيدة ألفها كاتب اسباني عاش في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر الميلاديين • وكانت تتلى في حفلات التمثيل الهزلي • قبل تقديم الفقرة الرئيسية من التمثيليات[2] •

الطب • ـ

اعتمد عرب الاندلس في أول أمرهم على قوم من النصارى في مجال الطب ، ولم يكن عند هؤلاء تحقيق به ولا بشيء من سائر العلوم ، انما كانوا يعولون على كتاب قديم بأيديهم يقال له الابريشيم (وتفسيره الجامع أو المجموع) • وعندما مارس بعض الاندلسيين هذه المهنة لم يكن بينهم من استوعبها ، وانما كان غرض أكثرهم قراءة الكنانيش (جمع كناش) أو مجموعات الوصفات الطبية ، ليستعجلوا بذلك ثمرة الصناعة ويستفيدوا به خدمة الملوك في أقرب مدة[3] •

---

١ ـ أنظر مع المصدر السابق : ابن سعيد ، المغرب ، ج ١ ، ص ٣٣٣ •

٢ ـ Elias Teres, Sobre el vuelo de Abbas Ibn Firnas, Al-Andalus, 1964, vol XXIX, p. 365-370.

٣ ـ صاعد الطليطلي ص ١٢٠ ـ ١٢١ •

في أيام الامير محمد تغير الوضع ، فبدأت دراسة الطب على الأسس العلميـة التي وضعها اليونان وأخذت عنهم مـن الكتب التي ألفها مشاهير الاطباء اليونانيين كأبقراط وجالينوس • وأول الاندلسيين العاملين في هذا المضمار كان أحمد بن اياس[1] ، (أو حمدين بن أبا) ، الذي ينسب اليه بسون[2] حمدين أو أحمد ، وهو يتألف من مائة عقير كلها نباتية •

مـع أن أساتذة حمدين في الطب مجهولين ، الا أن صلته بالثقافـة اليونانية يوجد دليل عليها في ترجمة يذكرها ابن جلجل لحرّاني ورد من المشرق ،أدخل للأندلس معجوناً لأوجاع الجوف ، كان يبيع السقية منه بخمسين ديناراً ، وكان حمدين أحد خمسة أطباء أخذوا العلم عنه[3] ، ولا يخفى ان حرّان كانت مركزاً سريانياً عريقا في الثقافـة والعلم ، واشتهر مـن السريان كثيرون ترجموا الكتب اليونانية الى العربية اما مباشرة أو من خلال الترجمات السريانية لهذه الكتب •

تسرب افكار الاعتزال الى الاندلس

لم يكن الاختصاص ضيقاً في العصور الوسطى ، اذ كانت الفلسفة في غالب الأحيان جزءاً من التكوين العلمي لأكثر علماء ذلك الزمان سـواء أكانوا أطباء أم نباتيين • وهذا ما حصل في الاندلس ، اذ أن اثنين من علماء ذلك العصر حملا الى الاندلس أول كتب حملت في ثنايا ما تحويه من أدب وعلم مبادىء اعتزال[4] ، وهي كتب عمرو بن بحر الجاحظ ، تلميذ النظّام

---

١ ــ يرد اسـمه بهـذا الشـكل عند صاعد الطليطلي ، ص ١٢٠ • أما ابن جلجل ، طبقات الاطباء ، ص ٩٣ ، فيذكره حمدين بن ابا •

٢ ــ بسون كلمـة غير عربيـة ولعلهـا لفظـة رومانس بمعنى شراب الـذي يلفظ في الاسبانية الحالية Pocion

٣ ــ داود بن حسان الاندلسي المعروف بابن جلجل ، طبقات الاطباء والحكماء ، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٩٤ ــ ٩٥ •

٤ ــ أحدهما هو فرج بن سلام المتطبب (ابن الفرضي) ت ١٠٣٧ •

صاحب المذهب المعروف في الاعتزال ، الـذي عمّق الجاحظ في بعض نواحيه[1] •

ظهرت أول الميول ذات الاتصال الفكري بعلم الكلام عام **٢٣٧ هـ/٨٥١ م** عندما نادى أحد المعلمين بشرق الاندلس بالتأويل ، وتضيف الرواية الوحيدة التي بين أيدينا عنه ، وهي رواية خصوم ، انه ادعى النبوّة أيضاً وقام معه خلق كثير ، وكان من بعض شرائعه النهي عن قص الشعر وتقليم الأظافر ، اذ لا تغيير لخلق الله ، وعندما قبض عليه واستتيب ، رفض أن يتوب عن الحق الصحيح حسب اعتقاده ، وعندما رفعوه على خشبة الصلب أعلن تعجبه من أمرهم « أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟ »[2] • على أن أفراداً آخرين كانت عندهم مبادىء اعتزالية واضحة يتسترون عليها • وقد حفظت لنا كتب التراجم عدداً من أسماء هـؤلاء[3] ، وأوردت نبذاً من أفكارهم • تستند أغلب هذه الآراء ، التي يوردها كتاب التراجم لأول المعتزلين في الاندلس ، على الابتعاد عن التجسيد وتفسير الآيات والكلمات القرآنية الكريمة ، التي يدل ظاهرها على التجسيد ، تفسيراً تأويلياً • فالميزان هو عدل الله وينفون أن تكون له كفتان ، والصراط هو الاسلام فمن استقام عليه نجا • ومن هذه الآراء ، القول بالاستطاعة أيضاً ، وهي حريـة الانسان تجاه الافعال ، ثم الاعتقاد ، بأنه من ضروريات تنزيه الوحدانية الالهيـة عن كل ما يجعلها تتشابه مع الانسان في أي شيء ، القول بأن القرآن مخلوق وان الارواح تموت وتفنى • ويلاحظ من جملة هذه الآراء انها لا تعدو أن تكون مبادىء اعتزالية بسيطة ، اذا ما قورنت بالمذاهب الاعتزالية في المشرق ومدى التطور فيها • وربما كانت هذه بداية فقط لما سيحدث في الفترة التالية ، وخاصة في

---

١ ـ عن الاعتزال عندالنظام والجاحظ ، أنظر: أحمدأمين ، ضحى الاسلام ، ج٣ ، ص١٠٦ـ١٤٠ •

٢ ـ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٩٠ •

٣ ـ عبد الاعلى بن وهب (ابن الفرضي ، ت ٨٣٧) ، خليل بن عبد الملك الملقب بخليل غفلة (ابن الفرضي ، ت ٤١٩) ، عبد الله بن مسرة (ابن الفرضي ، ت ٦٥٢) •

أوائــل عصر الخلافة ، عندما يقوم محمد بن عبــد الله بن مسرّة ، ابن أحد القائلين بالاعتزال في هذه الفترة ، بصوغ نظرية كاملة للاعتزال تقوم على أساسها فرقة معتزليه في الاندلس ، لها ما يميزها عن غيرها من فرق الاعتزال •

حركات المستعربين

قام المستعربون في مناطق الثغور بدور المساعد والمعاون في الثورات التي تزعمها المولدون ، وما عدا ذلك لا نرى لهم أي حركة عنف ضد الحكم الاسلامي خلال عصرة الامارة • والحركة الوحيدة ، التي عبّروا بها عن معارضتهم للحكم الاسلامي ، كانت تلك التي عرفت بحركة الاستخفاف عند المسلمين ، أو ما دعوه هم (بحركةالاستشهاد) ومؤادها قيامبعض المتحمسين من المنضمين لهــذه الحركة بشتم الرسول والدين الاسلامي علناً ، وهم يعلمون سلفاً بالمصير الذي ينتظرهم نظراً لآنالمسلمين امتنعوا عنالاستخفاف بالاديان الاخرى ومن الطبيعي ألاّ يسمحوا لرعاياهم من الاديان الاخرى بالاستخفاف بدينهم على هذا النمط ، وأن يحكموا عليهم بما يحكمونه على أي شخص آخر مستخف ، وقد سبق لقضاتهم أن حكموا على ابن أخت للمحظية المفضّلة للحكم كزنديق لانه استخف بالدين رغم توسط خالتهلدى الأمير ، وافتاء بعض الفقهاء بعدم وجوب قتله[1] • وعلى هذا كان المستخفون يقدمون للقاضي الذي كثيرا ما كان يطلب منهم بعد سماع الشــهود وقبل اصدار الحكم أن يتراجعوا عن أقوالهم وعند امتناعهم فقط كان يحكم عليهم بالموت • رأى بعض من درسوا هذه الحركة فيها رد فعل على اضطهاد ديني لاقاه المستعربون من سادتهم المسلمين • ولكننا لو تفحصنا القضية من حيث الاوضــاع والنظم التي كان المستعربون يعيشــون في ظلها داخل الدولة الاسلامية والظروف المحيطة بهــا في الزمان والمكان لرأيناها وليدة هــذه

---

١ ـ أنظر محاكمة هذا المستخف ، وموقف كل من الاميروالفقهاء في : الخشني ، ص ٩٠ ـ ٩٢ •

الظروف الاخيرة ليس الا ، وأنها بعيدة كل البعد عن أن تكون نتيجة لاضطهاد ديني مارسه الحكام المسلمون ضد رعاياهم من المستعربين .

أوضاع المستعربين في ظل الحكم الاموي وأسباب الحركة

يلاحظ أن أكثر القائمين بالحركة كانوا من رجال الدين ، وهذا ما يدفع الى الظن بأنها حدثت كرد فعل على اضطهاد ديني . فكيف كانت أوضاع المستعربين وهل كانوا يعيشون في ظل أنظمة ظالمة أو تفسح مجالا للاضطهاد ؟

ان الوثائق التي نملكها تدل على انهم كانوا يتمتعون بشبه ما يمكن أن نسميه استقلالا داخلياً ، فمن الناحية الادارية كانوا يخضعون لرئيس عام لهم تعينه الحكومة المركزية يدعى Comes ويطلق عليه العرب اسم قمص وفي بعض الاحيان المدافع أو الحافظ ، وله وكلاء في المناطق الاخرى يطلق على الواحد منهم اسم المستخرج . وأما من الناحية القضائية فقد كان لهم قاض خاص يدعى بقاضي النصارى أو قاضي العجم يحل النزاعات التي تنشب بينهم ويصدر أحكامه مستنداً الى شريعتهم الخاصة ، ولا يخضعون لقاض مسلم أو لأحكام الشريعة الاسلامية الا عندما يحدث نزاع بينهم وبين المسلمين[1] .

ويجب ألا يتبادر الى الذهن ، ان اعطاء أهل الذمة حرية التصرف في ادارة شؤونهم الخاصة وحق الاعتماد على قوانينهم في تنظيم علاقاتهم هو وضع مثالي تأمر به شريعة العرب المسلمين ، وان الحكام كثيراً ما كانوا يحيدون عنه لتحقيق أغراض معينة لهم ، بل ان ما لدينا من الوثائق يظهر بوضوح انه الواقع الفعلي ، فايزيدور الباجي وهو مؤرخ اسباني معاصر لتلك يذكر « أن عقبة (أحد أمراء الاندلس في عصر الولاة) كان يلتزم

---

١ ـ Luis G. de valdeavellano, Historia de España, T. I, p. 447.

سياســة ترك الناس الخاضعين للعرب يعيشــون في ظل قوانينهم الأصلية الخاصة بهم •

وهناك منشــور محفوظ أصدره الوالي المســلم لمدينة قُلُمْرِيَة Coimbra ينص على ما يلي : « يكون على مسيحيي قلمرية قمص يلي امورهم ويحكم فيهم بالسداد وكما كانت عادة المسيحيين في الاحكام ولــه أن يفصل في الخصومات التي تقع بينهم ، ولكنه لا يقدر أن يحكم على أحد بالقتل الا بعد موافقة قاضي المسلمين وذلك بأن الجاني يؤتى به أمام القاضي ويقرأ نص الحكم عليه بحسب الشريعة المسيحية ، فاذا وافق القاضي أمكن تنفيذ الحكم بالقتل والا فلا • ويكون لكل مدينة من المدن الصغيرة قاض خاص بها يحكم فيها بالعدل ويكف المنازعات • وان أهان مسيحي مسلماً عومل بشرع المسلمين • وان سطا مسيحي على عرض مسلمة أجبر على الاسلام وعلى التزوج بالمرأة التي اعتدى على عرضها ، والا فالقتل ، وان كانت المرأة محصنا فان المعتدي على عرضها يقتل بلا مراجعة »[١] •

وبالاضافة للحرية الادارية التي تمتع بها المسيحيون الاسبان ، كانوا أحرارا أيضاً في أداء طقوسهم الدينية ، فقد كانوا يقدمون القرابين بين دق الناقوس واحراق البخور وغير ذلك من الطقوس الدينية الكاثوليكية ، وكذا ترنيم المزامير والقاء المواعظ والاحتفال بالاعياد المسيحية على النحو الذي كانوا يحتفلون به قبل الفتح • كما لم يطبق عليهم ما طبق على بعض اخوانهم في بعض الفترات الاخرى والاماكن الاخرى من العالم الاسلامي من تدابير فيها بعض الاذلال كارتداء ملابس خاصــة مميزة ، فقد كان المستعربون الاسبان في هذا القرن على الاقل يلبسون نفس ملابس العرب • كما سمح لهم في بعض الاحيان ببناء كنائس جديدة[٢] •

---

١ – وجد نص هذا المنشور في دير لوريان وطبع في لشبونة عام ١٦٠٩ ، أنظر نصه في ترجمة شكيب ارسلان لكتاب رينو عن غزوات العرب في غاليا وايطاليا ص ٢٣٠ •

٢ – ارنولد • الدعوة الى الاسلام ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبدالمجيدعابدين ، ص ١٥٨ •

وكذلك يمكن الاستنتاج من كتابات رؤساء الحركة من المتعصبين أن المستعربين بنوا في هذا القرن أديرة جديدة بالاضافة الى القديمة • وكانت هذه الاديرة مزدهرة تنزل فيها أعداد كبيرة من الرهبان الذين يستطيعون الظهور على ملأ الناس في وشاحهم الصوفي وفق النظام الكنسي ، ولم يكن ثمة ما يدعوهم الى اخفاء شارتهم الدينية[1] •

أضف الى ذلك أن كثيراً منهم تقلدوا مناصب عالية في البلاط كما دخل بعضهم في عداد جند الامير • واذا كانت كل هذه الاشياء تكفي الباحث الموضوعي للاقتناع بعدم وجود اضطهاد ديني الا أن ما يثير الاضطهاد قد لا يكون الاضطهاد بحد ذاته وانما الشعور بالاضطهاد ، فهل كان المستعربون يشكون ويشعرون باضطهاد ديني ؟

للجواب على هذا التساؤل يمكن الاشـارة لرسالة موجهة من ملك غاليا الى مستعربي مدينة ماردة وفيها يذكر : « انه سمع من مصادر عدة ما تقاسونه من العذاب من جهة الملك عبد الرحمن ، الذي لا يزال يرهقكم عسراً متبعاً في ذلك طريقة والده أبي العاص ، الذي كان يبتزكم أموالكم »[2] • ولا يرد فيها أي ذكر لاضطهاد ديني ، فمعنى ذلك أن شكوى المستعربين كانت من الضرائب لا من اضطهاد ديني •

الضرائب كسبب للحركة • ـ في الحقيقة كان هناك شيء من الجور في فرض الضرائب ، فقد كان على مستعربي الاندلس أن يدفعوا عدا الجزية ضريبة اضافية أول كل شـهر قمري ، ولو أن ما يخفف من وطأتها انها كانت تجبى بواسطة موظفي ونواب المستخرج الذي كان مستعربا • وعلى هذا الاساس فقضية الجور في فرض الضرائب ربما تكون سببا في اثـارة النقمة التي تولدت عنها مشاركة المستعربين في حركات الثغور وأثارت عندهم

---

١ ـ انظر عن بناء دير Tabanos
Isidro de las cagigas, los Mozarabes, T. I, p. 213.

٢ ـ انظر نص الرسالة في ترجمة شكيب ارسلان لكتاب رينو ، ص ١٤٠ •

عطفاً على الحركة في قرطبة • على أن المبالغة في اعتباره سبباً رئيسيا لاتستقيم على محك النقد ، فزعماء الحركة كانوا من رجال الدين وهم معفون من دفع الضرائب ، كما أن جلّهم كان من رجال الاديرة أي أبعدهم عن الشؤون الدنيوية • ومن ناحية أخرى كانت هذه الضرائب مفروضة منذ أوائل عصر الامارة ، فلماذا لم تحصل الحركة الا بدءاً من سنة ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ ــ ٥٠ م وفي عهد عبد الرحمن الثاني ؟

ثم ان الضرائب كانت عامة على المستعربين في جميع أنحاء الاندلس ، فلماذا تمركزت الحركة في قرطبة بالذات ؟•

انهيار الحضارة اللاتينية المسيحية في اسبانيا

لا يمكن الاجابة على التساؤلين السابقين الا باعتبار ذوبان الحضارة اللاتينية المسيحية سبباً رئيسياً في النقمة التي أثارت حركة الاستخفاف • ومظاهر هذا الانهيار نراها في جميع النواحي سواء الفكرية أو الاجتماعية •

اللغة • ــ انهارت اللغة اللاتينية الصحيحة على ألسنة الناس ، وقلّ عدد الذين يعرفونها حتى أن أحد زعماء حركةالاستخفاف يقول : « لا نكاد نجد في جماعة المسيحيين كافة رجلا من الف رجل يستطيع أن يستفسر عن صحة صديق بعبارات واضحة جلية ، وأنت واجد بين جمهرة السوقة والعامة أشخاصاً لا يحصى عددهم ، يحيطون احاطة تامة بالعبارات الفصيحة التي خلّفتها اللغة العربيــة في عصورها الذهبية ، حتى لقد استطاعوا أن ينظموا القصائد المقفاة ، تلك القصائد التي تتجلى فيها أسمى مراتب الجمال ، بل لقد كان بعضهم أمهر من العرب أنفسهم في قرض الشعر »[1] •

الأدب والفلسفة • ــ وفي ميــدان الادب والفلسفة : نرى أن أحــد زعماء الحركة يقول : « بينمــا نتبع النظم التي وردت في كتابهم المقدس (يعني المسلمين) ونلتقي بهم لدراسة مذاهب فلاسفتهم ، أو الذين يباهون بهــذا الضرب مــن الهذر والاعجاب بمعنى أدق ، لا لندحض بالحجة

1 - R. Menendez Pidal, El Idioma Español..., p. 32.

والبرهان تعاليمهم الفاسدة ، بل لنفيد من كلامهم الذي يستولي على الافئدة بجماله ، ومن بلاغة لغتهم ، غاضين النظر عن قراءة كتابنا المقدس ، فلا نكون حينئذ الا قوماً يجعلون من الحيوان معبوداً يعبدونه • وأين لنا أن نجد في أيامنا هذه أي علماني مثقف قد انهمك في دراسة الكتاب المقدس ، واهتم بالنظر في مؤلفات آباء الكنيسة اللاتينية ؟ ومن ذا الذي أوتي من الحماسة والغيرة ما يثير في نفسه الرغبـة في قراءة مؤلفات المبشرين بالانجيـل أو الانبياء والمرسلين ؟ وان شبابنا المسيحيين ، برغم تكلفهم اللطف والكياسة وحسن البيان وطلاقة اللسان ، انما كانوا يسترعون الانظار بحسن هندامهم وحسن تصرفهم فيما يعرض من الامور وبما عرف عنهم من حسن الادب ودماثة الخلق ، وبتشبّعهم باللغة العربية ، نراهم يتناولون كتب الكلدانيين (يعني المسلمين) منهم ، ويطالعونها بلهفة ويناقشونها في حماسة وغيرة ، ويشيدون بذكرها ، ويمتدحونها بكل ضروب التنميق في اللفظ وحسن البيان ، على حين انهم لا يفقهون شيئاً من جمال الادب الكنسي ، ثم يحتقرون جداول الكنيسة التي تنساب اليهم من الجنة • وا أسفاه لقد جهل المسيحيون نظم شريعتهم[1] •

الدين • ـ واذا انتقلنا للناحية الدينية ، نرى أن الديانة الاسلامية لا تكتفي بضم أعداد متزايدة يـوماً بعـد يوم الى حظيرتهـا من صفوف المسيحيين ، وانما أصبح الفكر الاسلامي يشكل خطراً على سلامة العقيدة المسيحية عند من بقوا على دينهم وفي صفوف رجال الدين بالذات • وذلك بظهور هرطقات جديدة داخل الكنيسة متأثرة بنظرة الاسلام لله • فقد رفض مستعربو اشبيلية الاحتفال بعيد ميلاد السيد المسيح على الشكل الذي أوصى به مجمع نيقية وعدّ أسقفها من الهراطقة • وقام Elipando أسقف طليطلة يقول ان المسيح ما دام انساناً فليس بابن خاص أو طبيعي لله وانما متبنّى ومعنوياً وجر معه في هـذا الاعتقاد عدداً من الاساقفة في شـبه الجزيرة

١ ـ الدعوة الى الاسلام ، ص ١٦٠ ـ ١٦١ •

الايبيرية فعدوا جميعا هراطقة متأثرين بالمسلمين • ومن ناحية أخرى انخرط رجال الدين المسيحي في شبه الجزيرة الايبيرية في نقاش حاد ، وبتأثير اسلامي ، حول حرية الارادة ، والقدر ، وانقسموا في ذلك الى قسمين •

العادات الاجتماعية • ـ وفي الميدان الاجتماعي يشاهد بوضوح أيضاً جذب التقاليد الاجتماعية العربية الاسلامية ، التي أصبحت راقية بعد انتقالها من بغداد الى الاندلس ، للمستعربين الذين تقلدوا بها دون تمييز بين الغث والثمين منها وما يوافق أو لا يوافق معتقداتهم الاصلية ، حتى أنهم صاروا يختتنون أولادهم ، ويتخذون السراري والجواري ، وقد اتهم أسقف أخيلا Egila الذي أرسله البابا أدريان الاول الى جنوب اسبانيا حول نهاية القرن الثامن ليقوم بعمل من شأنه أن يحول دون اطراد نفوذ الفكر الاسلامي ، القسيسين الاسبان بالعيش مع النساء اللواتي اتخذوهن سراري لهم[1] •

وصفوة القول ان انهيار الحضارة اللاتينية المسيحية وذوبان ثقافتها التدريجي في الثقافة العربية الاسلامية في الاندلس هو السبب والعامل الرئيسي في اثارة حركة الاستخفاف أو حركة الاستشهاد ، وهذا السبب وحده يمكن أن يزودنا بأجوبة شافية عن الاسئلة المطروحة • فهو الذي يعلل قيام الحركة في هذه الفترة بالذات لان فترة الازدهار هذه معروفة بأنها الفترة التي بلغ فيها النشاط الفكري أوجه وتوصلت التقاليد المشرقية الراقية للسيطرة الكاملة على مجتمع الطبقة العليا في الاندلس ، كما يعلل قيامها في قرطبة بالذات لأن تأثر المستعربين بالفكر الاسلامي والتقاليدالعربية سيكون أعظم في المنطقة التي يعظم فيها الازدهار الفكري ، والعادات الراقية ومن الطبيعي أن تكون قرطبة هي تلك المنطقة ، فهي العاصمة ، ومنالمعروف أن البلاط هو مركز الازدهار الثقافي والاشعاع الاجتماعي • وأخيراً يعلل

---

١ ـ Isidro de las Cagigas; Historia de los Mozarabes, T. I, pp. 166-167

لنا كون أغلبية زعماء الحركة من رجال الدين لانهم حملة الثقافة القديمة، والحركة قامت كرد على زوال هذه الثقافة .

وكان لرجال الدين سبب آخر يدعوهم للوقوف بوجه الأمراء ، وهو سبب لا يقتصر على الاندلس وحدها بل كان عاماً في أوربا كلها . وينبعثه من حق السلطة الزمنية المتمثلة بالملوك والاباطرة في اقرار انتخاب الاكليروس لرؤسائهم . كان هذا الحق في اسبانيا قبل الفتح من نصيب الملك القوطي ، وبعد الفتح ورث أمراء قرطبة هذا الحق بالنسبة لرجال الدين الذين يعيشون في الاندلس ، كما ورثه ملوك اشتوريش أيضاً بالنسبة لمن يعيشون في منطقتهم . وكان رجال الدين يعتبرون أن حق الأمير هذا كان سبباً في افساد الكنيسة ، لأن الكثيرين سيحاولون الوصول الى هذا الاقرار عن طريق الرشوة ، مثل شاول أسقف قرطبة الذي دفع لخصيان القصر ٤٠٠ دينار ليقنعوا الامير باقرار انتخابه أسقفاً لقرطبة ، كما أن بعض رجال الدين كانوا يقدمون للسلطة خدمات ، ولو كانت ضد رعيتهم ،وذلك رغبة في نيل الحظوة لديها ، كما هو حال أسقف مالقة ، الذي وعد موظفي المالية ، بأن يزودهم بقائمة تحتوي على أسماء الناس في منطقته وذلك بعد أن شكى اليه هؤلاء الموظفون من اختباء الكثيرين للتملص من دفع الضريبة . وتمكّن من الوفاء بوعده بحيلة اتخذها مع رعيته . ففي الاجتماع السنوي معهم ، طلب من الحاضرين أن يقدّم اليه كل واحد منهم قائمة باسمه واسم معارفه وأقاربه، لأنه يريد أن يسجل كل رعيته في قائمة واحدة ، ويدعو الله لكل واحد باسمه ، ففعلوا ذلك وعندما تجمعّت لديه سلمّها الى موظفي المال[1] .

أهداف الحركة ومظاهرها

كان أول أهداف الحركة اظهار الاســلام وبالتالي من يعتقدون به بمظهر السخف ، وذلك حتى يحطموا الهالة التي كانت تحيط بهم في نظر

---

١ ـ R. Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne. T. I, pp. 280-291.

المستعربين ، وكان ذلك في مؤلفات رؤساء الحركة التي صوروا فيها الرسول (ص) كساحر ، وصوروا آخرته بكل ما زودهم بــه الخيال ، المحقق لارادتهم من شناعة •

وبهذا التشويه وبالدم الذي سيجري عقب اعدام المستخفين ، ظن زعماء الحركة أن الحماس سيلتهب في قلوب الكثيرين ضد العرب المسلمين، ويقوم بذلك حاجز يقف أمام حركة الامتزاج بين الطرفين •

كما انه ربما كان من أهداف بعض من اشتركوا فيها التكفير عن الآثام التي ارتكبها أبناء قومهم ، والتي عاقبهم عليها الرب بوضعهم تحت سلطان العرب المسلمين • وهكذا يقول أحد زعمائهم البارو « سأحاول أن اختبر السوط الذي صب علينا لما ارتكبناه من آثام • ان جعبة آثامنا أيها الاخوة مليئة ، تكاسلنا ودنسنا وأفسدنا عاداتنا لذلك أسلمنا المولى الذي يؤثر العدل ويأمر بالانصاف الى هذا الوحش لنظل فريسة في يده » •

أما مظاهر الحركة

كان أولها تنشيط الارتداد ومحاولة اعادة بعض من أسلم حديثاً الى حظيرة المسيحية من جديد • وقد أفلحوا في هذا المجال وخاصة بين البنات المولودات من زواج مسلم بمسيحية • وكمثل عليهن ، فلورا المرتدة الأثيرة لدى زعيم الحركة ايولوخيو ،والتي ذكرها قبل موته بعبارات تنم عن حب عميق[1] •

والمظهر الثاني تجلّى في شتم الرسول (ص) والدين الاسلامي ، وقد بلغوا في هذا المجال حدّ الشطط ، وكمثل عليه حادثة الراهب الذي تقدم الى القاضي متظاهراً بالرغبة بالدخول في الاسلام وعندما انتهى القاضي من شرح تعاليم الاسلام لــه ، بادره بكلمات بالغة البذاءة حول الرسول الكريم ، وأهاب بسامعيه أن يتخلصوا من هذه الوصمة بما وهبهم الله من

---

١ ـ R. Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne . T. I, p. 323.

مزية الفهم • وفي مناسبة أخرى اقتحم اثنان من المسيحيين أحد المساجد وأخذا يغضّان من شأن الدين الاسلامي « وأعلنا على ملأ من الحاضرين ان هذا الدين سيعود على أنصاره عما قليل بالتهلكة ونار الجحيم »[1] •

أحداث الحركة

للأسباب التي ذكرناها ولتحقيق الغاية التي أشرنا اليها تألف في قرطبة ما يشبه الحزب من المستعربين المتعصبين ، ترأسه الراهب ايولوخيو Eulogio ، وهو سليل عائلة معروفة بتعصبها وعدائها للمسلمين ، فجده وسميّه كان يقول عند سماع الأذان « الهي لا تصمت ولا تسكت ، لماذا يحدث أعداؤك الضجيج ، ولماذا يرفع الذين يكرهونك رؤوسهم » ، وكانت له أخت راهبة وثلاثة أخوة أصبح أحدهم موظفاً وتعاطى الاثنان التجارة • وقد عرف ايولوخيو بشدة تقشفه وكثرة تأمله وصيامه ، وكانت تسليته الوحيدة زيارة الأديرة ، حيث علت مكانته لنمط الحياة التي كان يحياها • أما نجاحه الفكري ، وخاصة عداؤه للاسلام ، فقد ساهمت في تحديده محاضرات الآب سبيرا اين ديو Spera-in-Deo التي كان مولعاً بالمواظبة على سماعها ، وكان هذا الأب معروفاً ببلاغته وبشدة عدائه للاسلام • وأثناء سماع هذه المحاضرات تعرف ايولوخيو على النبيل القرطبي البارو Alvaro الذي أصبح صديقه وشريكه في تنظيم هذا الحزب •

نشاط المتعصبين وردود الفعل ضدهم

دخل نشاط المتعصبين مرحلة الاوج في عام ٢٣٥ هـ / ٨٥٠ • ففي أحد أيام هذا العام حدثت مناقشة دينية بين أحد رجال الدين من المستعربين ويسمى برفكتو Perfecto وبعض المسلمين القرطبيين وعندما ارتفعت حرارتها فقد الراهب السيطرة على لسانه وقذف الشتائم للرسول الكريم

---

١ ـ الدعوة الى الاسلام ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ •

وللدين الحنيف واصفاً اياه بالزيف • وحكم عليه بالموت بعد ثبوت التهمة، ولم يشأ الفتى نصر صاحب المكانة عند عبد الرحمن الثاني تنفيذ الاعدام فوراً ، بل أجّله الى يوم عيد الفطر كي يهيء للعامة الخارجين من صلاة العيد مشهداً يروق لهم ، وهكذا أعدم برفكتو في شـوال **٢٣٥** هـ / **١٨** نيسان **٨٥٠** م •

قدّم اعدام برفكتو والطريقة التي تم فيها مادة دسمة للدعاية ، استغلها المتعصبون لضم المستعربين الى صفوفهم • وشهد العام الذيحدث فيه الاعدام والعام الذي تلاه تضخماً في أعدادهم ، ونتيجة لهذا توالت عملياتالاستخفاف وازدادت ، وأعدم العشرات كان منهم الجنود ومنهم التجار ولكن أغلبهم من الرهبان والراهبات •

لم يشأ عبد الرحمن أن يلجأ الى وسائل متطرفة للقضاء على الحركة وانما اكتفى بالاحكام القضائية التي يصدرها القضاة على المستخفين • وكانت أكثرية مستعربي قرطبة معتدلة ، ترى أن الأمير يعطي المستعربين حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، وعلى هذا فان المستخفين ليسوا شهداء كشهداء المسيحية الاولين ، لأن أولئك قتلوا لممارسة شعائرهم الدينية • أضف الى ذلك أن هـؤلاء أقرب الى الخاطئين ، فهم يخالفون وصايا المسيح الذي يوصي بعدم الحقد حتى على الاعداء ، فيقول أحبوا أعداءكم واصنعوا الخير للذين يضايقونكم •

وهم يؤذون بقيةالمستعربين لانهم يجعلونالامير يفقد ثقته فيهم ،وهكذا لا يكون عملهمأكثر من غرور شخصي نتيجته انتحار • واقترحت جماعةمن مستعربي قرطبة ، مقرّبة للأمير عقد مجمع ديني لبحث هذه القضية •

عقد المجمع عام **٢٣٧** هـ / **٨٥٢** م برئاسة مطران اشبيلية وحضور أساقفة جميع أنحاء الاندلس ومثلّ الامير فيه غوميث بن أنتونيانو ، وكان من رأيه أن عمل المستخفين يضر بكل المستعربين ، ولـذا يجب حرمانهم

واستنكار عملهم ، والطلب من المؤمنين ألا يتبعوهم ، ولئلا يقوم المهوشون باثارة الناس ضد قرارات المجمع يجب سجنهم.وكانت أغلب آراء المجتمعين متفقة مع غوميث . ووقفت في الصف المعارض المتطرف قلّة ضئيلة جداً على رأسـها شاول الذي نحا هـذا المنحى رغبة في التعويض عن فضيحة الرشوة.وأخيراً جاء القرار وسطاً فلم يعلن عن حرمان من استخفوا وأعدموا بل ضرب صفحاً عن الماضي . لكنه حرّم على المستعربين السعي وراء ميتة الاستخفاف لأنها انتحار ، وقبل غوميث بالقرار لأن مطران اشبيلية وعده بالقبض على المهوشين .

نهاية حركة الاستخفاف

هاجم المتعصبون قرارات المجمع فنفّذ مطران اشبيلية وعـده وقبض على الزعماء أمثال ايولوخيـو وشاول ، ولكن الحركة استمرت ووصلت الجرأة ببعض المستخفين الى حد شتم الرسول الكريم والدين الاسلامي وسط مسجد قرطبة ، مما أدى الى اعدام عدد منهم ، وصادف أن مات الأمير عبد الرحمن بعد مقتل هذه الجماعة بستة أيام وبصورة فجائية ، فاعتبر المتطرفون من المستعربين موته انتقاماً من السماء للشهداء . وفي زمن الامير محمد أطلق سراح الزعماء فركن بعضهم للهدوء كشاول ، ولكن ايولوخيو قام برحلة جال فيها أماكن مختلفة من الاندلس واستمر في تحريضاته . وعندما لم يجد الاعتدال ، قام الامير محمد باجراءات عنيفة ، أدت الى تحطيمها فهدم دير تابانوس مركز التهويش واستغنى عن الموظفين من المستعربين في قصره ، فأنكر بعضهم دينهم واعتنقوا الدين الاسلامي . وقبض على ايولوخيو عام ٨٥٩م بعد أن تهرب أمداً من الزمن ، وعندما رفض التراجع عن استخفافه أعـدم . وبعد فقـد الحركة لزعيمها وتعب أعضائها من متابعة الصراع اضمحلت ولكن ما بين آونة وأخرى ، وخلال عشر سنوات تقريباً كانت تقوم حادثة استخفاف يقتل صاحبها ولا ضرورة للتساؤل الذي يبديه البعض حول ما اذا كانت هذه الحوادث صدى لحوادث اضطهادات دينية وتغيرات

في سياسة الامراء والخلفاء نحو المستعربين ، اذ الارجح أن تكون هـذه الحوادث المتفرقة من الاستخفاف نتيجة لتأثر بعض الرهبان بسير المستخفين الاوائل والرغبة الصوفية التي صارت تساورهم بالاستشهاد رغبة في التقرب من الله • وهذا ما نستنتجه من كتابات أشهر المتصوفين الاسبان الذين عاشوا بعد زمن طويل من هذه الفترة وأهمهم كانت Santa Teresa de jesus التي تقول انها كانت مع أخيها تقرأ كتب القديسين والمستشهدين ، وبدا لها أن هؤلاء دفعوا ثمناً بخساً للذهاب الى الله ، وانها أرادت أن تفعل ذلك ، وكان أخوها يوافقها وقد جدّ الاثنان في البحث عن الطريقة الممكنة لذلك فوجداها في الذهاب الى المسلمين كي يقتلوهما وتقول « الا أن وجود والدين لهما كان عائقاً كبيراً أمام القيام بهذا العمل[1] » •

والمهم في الأمر أن غاية الحركة لم تتحقق ، اذ أنها لم تمنع انصهار المستعربين في بوتقة الحضارة العربية الاسلامية التي سادت في الاندلس ، واضمحل شعور العداء عند المتدينين منهم للعرب المسلمين بدليل دخول الكثيرين منهم في جيش الامير واشتهر منهم كونت تقي كان حامياً لجماعة دينية انخرط ضمن صفوف جيش الامير محمد واشترك في حملة له الى طليطلة • وعندما أتى عصر الخلافة ترجمت القوانين الكنسية اللاتينية الى العربية ، ممـا يدل على أن قسماً كبيراً من رجال الدين ، على الأقل كان يجهل اللاتينية ، ولفهم شؤون الكنيسة لا بد من عرض قوانينها عليه باللغة العربية • واذا كان رجال الكنيسة الكبار قد استخدموا كتراجمة لسفارات الخلفاء الى دول الشمال المسيحية ، فهذا ليس دليلاً على معرفة كل رجال الدين المسيحي من المستعربين للاتينية ، لأن هؤلاء من كبار رجال الدين ، وربما كان فيـه البرهان على انحسار معرفة اللاتينية واقتصارها على رجال الدين الكبار فقط[2] •

---

١ ـ E. Allison Pears, El Misticismo Español. P. 132.

٢ ـ Ramon Menendez Pidal : El Idioma Español..., pp. 35-38.

العلاقات الخارجية

لدولة الامارة

في فترة الازدهار

كان من نتيجة الاستقرار الداخلي في هذه الفترة ، أن توفر للدولة بعض الجهود ، التي يمكن توجيهها نحو الخارج . كما أن النشاط التجاري ساهم في زيادة معرفتها بشؤون العالم المحيط بها وأوضاعه ، وساعد على تعريف العالم بها . لكل ذلك ، لم تعد علاقات الامراء الامويين مقتصرة على تلك التي كانت لهم مع مسيحيي الشمال . بل اتسع ميدان اتصالاتهم ليشمل كلاً من : شمال افريقيا حيث خطا امويو الاندلس أول الخطوات في طريق بسط نفوذهم على بعض دول المغرب ، وبيزنطة التي بدأت أول الاتصالات الودية مع الاندلس .

دول شمال افريقيا المعاصرة للامارة الاموية في الاندلس

دولة الادارسة في مراكش (١٧٢ هـ ـ ٣٧٥ هـ / ٧٨٨ ـ ٩٨٥ م)

كان لموقعة فخ ، التي وقعت عند مكة في عهد الخليفة العباسي الهادي عام ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م وقتل فيها الحسين الثائر سليل الحسن بن علي بن أبي طالب ، نتائج بعيدة الاثر في تاريخ العالم الاسلامي بوجه عام وتاريخ العلويين بشكل خاص . فقد هرب بعدها ابنا عم الثائر ، يحيى بن عبد الله الى بلاد الديلم وادريس بن عبد الله الذي استطاع الوصول بعد ثلاث سنوات الى المغرب الأقصى . حيث لجأ لشيخ احدى قبائل البرانس البربرية الذي يرى

رأي المعتزلة • ومن المعلوم أن البربر كانوا دائماً على أتم استعداد لنصرة أي ثائر ضد السلطة ، وهذا ما يفسر مسارعة قبائل أخرى عدا مكناسة ، تنتمي الى زناتة وزواغة ، للانضواء تحت لواء هذا العلوي • فقويت شوكته وسيطر أول الامر على كل البلاد الممتدة من غرب القيروان حتى المحيط الاطلسي •

نجح هارون الرشيد في التخلص من الثائر في بلاد الديلم ، لكنه وقف عاجزاً أمام ثورة ادريس وشعر بأن استخدام القوة ضده غير مجد ، ولذا لجأ لاستخدام سلاح الاغتيال ، فأرسل اليه حسب اجماع الروايات شخصاً توصل الى قتله بالسم سنة ١٧٥ هـ ، مع اختلاف بين هـذه الروايات على اسم القاتل وكيفية القتل[١] • لم يكن للقتيل وريث ذكر ، ومع ذلك لم تتقوض دولته ، لأن أتباعه وجدوا جاريته كنزة حاملاً ، ووضعت بعد موت سيدها بشهرين طفلاً دعوه باسم ادريس أيضاً ، وظل المولى راشد مولى ادريس الاول ، يصرف الامور باسم الطفل الى أن تخطى مرحلة الطفولة ، فبويع باسم ادريس الثاني ، وسرعان ما اتخذ كل مظاهر الملك كضرب نقود باسمه واضافة قسم الى بناء مدينة فاس[٢] ، التي أصبحت عاصمته • كما وطد دولته بالقضاء على أوكار الخوارج المبثوثة في منطقته • لكل ذلك عدّ المؤسس للدولة الادريسية ، التي عاشت في المغرب الاقصى قرابة قرنين • وعندما آذنت أيامها بالزوال في المغرب ، نجح فرع من السلالة الادريسية ، وهو فرع بني حمود ، في تأسيس دويلة في جنوب الاندلس ، اثر انهيار الخلافة فيها • ودامت حياتها مدة تقرب من نصف قرن •

---

١ ـ البكري ، المسالك ، ص ١١٩ ـ ١٢١ ، يورد روايتين مختلفتين احداهما للنوفلي والثانية لابن عبيدة اليماني • روض القرطاس ج ١ ص ٢٣ ـ ٢٤ •

٢ ـ أنظر مقال ليفي بروفنسال عن تأسيس مدينة فاس في : الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ١ ـ ٥٠ •

دولة الاغالبـة في افريقيا (تونس) فاتحي صقليـة (١٨٤ هـ - ٢٩٦/٨٠٠ - ٩٠٩ م)

بعد نشوء دولة الادارسة بقليل ، نشأت الى جوارها دولة أخرى في ولاية افريقيا (تونس الحالية) ، حيث كانت الاضطرابات دائمة مستمرة ، الى أن قام عامل الزاب ابراهيم بن الاغلب بالطلب من هارون الرشيد أن يوليه على افريقيا ، متعهداً بالنزول عن المائة الف دينار التي كانت تحمل من ديار مصر الى افريقيا ، وعرض أن يحمل كل سنة أربعين الف دينار للخليفة . فقبل الرشيد بهذا الحل ، الذي يحقق له ربحاً مادياً يكفيه مؤونة تجهيز الجيوش لاخماد ثورات هذه الديار ، كما انه يؤدي الى نشوء دولة شبه مستقلة ، تشكل حاجزاً بين أملاكه وأملاك الادارسة وتكون حجر عثرة في سبيلهم ، فيما اذا خطر التوسع في بالهم . وهكذا تأسست دولـة بني الاغلب عام ١٨٤ هـ وعاشت قرناً ونيف ، تعاقب خلاله على عرشها أحد عشر أميراً ، أولهم ابراهيم بن الأغلب وآخرهم زيادة الله الثالث الذي قوّض الفاطميون حكمه . وقد قضى هؤلاء أيام حكمهم في نزاع مع بعضهم على العرش ومع الخارجين على سلطتهم ، وليس في سيرهم واحداث حكمهم ما يستحق الاهتمام ، عدا توسعهم البحري في صقلية وايطاليا الجنوبية ، وترصدهم لحركات الادارسة في المغرب وتدبير المؤامرات ضـد مدبري دولتهم .

والى جانب هاتين الدولتين الكبيرتين في المغرب قامت في المنطقة الفاصلة بينهما أو بين احـداهما والاندلس عدة دويلات صـغيرة ، أنشأتها بعض شخصيات الفاتحين الاول أو مـن الخوارج الاباضية والصفرية بعد أن تحطمت ثوراتهم في المشرق خلال الفترة الاخـيرة من العصر الاموي . وسنعطي لمحة موجزة عن هذه الدويلات بادئين من أقصى الغرب .

الدولة الصالحية : منذ (بعيد الفتح حتى ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م)

أسسها صالح بن منصور الحميري في جزء من منطقة الريف المراكشي الحالية ، حيث وصل منذ أيام الفتح في عهد الوليد بن عبد الملك • واطاعته قبائلها من صنهاجة وغمارة بعد أن دخلت في الاسلام بمساعيه • وفي عهد حفيد المؤسس سعيد بن ادريس بن صالح تأسست مدينة ناكور عاصمة الدويلة ، وتبعد خمسة أميال عن مرساها المقابل لمدينة مالقة الاندلسية[1] •

دولة برغواطة

وهي دويلة قديمة أيضاً ، يعود زمن تأسيسها الى أوائل الربع الثاني من القرن الثاني الهجري ، وذلك عندما هزم ميسرة فقام أحد أتباعه المنهزمين ، ويدعى طريف من ولد شمعون بن يعقوب بن اسحق بالنزول بمنطقة تامسنا وتعني بلهجة زناته البسيط الخالي ، وتشمل هذه المنطقة الأراضي الممتدة على ساحل المحيط الأطلسي من الرباط الى ما وراء الدار البيضاء حتى مصب وادي أم الربيع • استطاع طريف استمالة أهل المنطقة بتظاهره بالزهد والتقشف واستهواهم بمهارته في الحيل والسحر ، فقدموه عليهم ، وأصبحت شالة (في ضواحي الرباط حالياً) عاصمة لهم[2] • أما أصل طريف فيجعله البعض بربرياً من مصمودة ، وآخرون يذكرون انه يهودي أندلسي من وادي برباط ، ويقولون ان اسم برغواطة ما هو الا تحريف لبرباطي نسبته الى بلده •

تناوب بعد طريف على حكم هذه الدويلة أبناؤه وأحفاده واستمروا على هذا المنوال الى أن استأصل المرابطون شأفتهم في أواسط القرن الخامس الهجري • وأهم الملوك الأربعة الأول لان الدولة أخذت طابعها المميز في أيامهم • وهم طريف ، وبعده ابنه صالح ثم الياس بن صالح ويليه يونس بن

---

١ ـ البكري ، مسالك ص ٦٠ •

٢ ـ ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، الجزء الخاص بالمغرب ، ص ١٨٤ •

صالح • وفي عهد الأخير كانت الحرب بينهم وبين دولة الأدارسة قائمة على قدم وساق ، كما ظهرت في أيامه دعوتهم التي تجعلهم بعيدين عن الاسلام • فقد ادعى هذا أن الوحي نزل بقرآنهم على جده صالح ونعته بصالح المؤمنين الوارد ذكره في القرآن الكريم ، كما زعم انه لم يمت بل غاب تاركاً الحكم لابنه ، بعد أن أمره بألا يظهر تلك الديانة حتى يقوى سلطانه ولا تمكن مخالفته ، كما أخبره بأنه سيعود في عهد السابع من ملوكهم ليكون المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عـدلا بعد أن ملئت جوراً ، وسيقتل الدجال وسيصلي عيسى المسيح خلفه • تحتوي هـذه الديانة على نفس العبادات الاسلامية وان اتخذت تأديتها شكلاً خاصاً متميزاً ، أما الاحكام المتعلقة بالمحرمات وطبقة المحارم وتعدّد الزوجات فكانت بعيدة عن أحكام الشريعة الاسلامية • ولم يبلغ الياس الابن الاول لصالح هـذه الدعوة الا للخاصة الذين يثق فيهم • وقام الابن الثاني يونس بتبليغها وقتال من خالفها •

يلاحظ أن اظهار هذه الدعوة تمّ في الوقت الذي نشأت فيه وتوطدت دولة الادارسة ، التي سيطرت على كل المناطق المحيطة بأراضي برغواطة وشنت الحرب عليها ، والادارســة كما هو معلوم أصحاب دعوة دينية ، يربطون بين واجب الخضــوع لهم ومركزهم الديني المنبثق عن قرابتهم للرسول الكريم ، مما يدعو للظن بأن ظهور دعوة برغواطة ، بما احتوت عليه من اعتبار صالح نبيّاً ومهدياً سيعود ، كانت وراءه دوافع سياسية لمقاومة سلاح الادارســة الديني بسلاح مماثل ، ويلاحظ البعض أن في الدعوة تأثيرات يهودية أيضاً[1] •

الدولة المدرارية في سجلماسة (١٤٠ ـ ٣٤٧ / ٧٥٧ هـ ـ ٩٥٨ م)

تقع سجلماسة (تافيلالت حالياً) على سيف الصحراء المتاخمة للمغرب ،

---

١ ـ عن التأثيرات اليهودية في مذهب برغواطة ، انظر :
Slouch Nahum, l'Empire des
Berghouata et les origines des Blades - Siba, Revue du Monde Musulman, T. X, 1910, No. 3. p. 394.

فلم يكن في غربيها وقبليها معمورة ، ولكنها تقع بجوار منبع نهر يفترق عندها الى نهرين ، الأمر الذي جعل المياه فيها وافرة فأصبحت سوقاً ومحطة للقوافل التجارية • نزلت في سجلماسة جماعات من الخوارج الصفرية من مكناسة ، وبايعت بالامر عيسى بن يزيد (أو مزيد) الأسود وكان غنياً صاحب ماشية كثيرة ينتجع بها المراعي ببلاد القبلة ، ويرون أن جده لقي بالمغرب عكرمة مولى ابن عباس • وفي حوالي سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م اختط عيسى مدينة سجلماسة[1] ، وبعد ذلك استقر الحكم بيد الاسرة المدرارية ، وأول أمير منها أبو القاسم سمعون المكناسي ، البربري الاصل الاندلسي المولد • كان حداداً من جالية ربض قرطبة ولقّب بالمدرار ، وأصبح لقبه علماً للدولة التي توارثعرشها أبناؤه وأحفاده • والشيء الهام في هذهالدولة تطورها الاقتصادي ، اذ كانت أول الطريق الى بلاد السودان وغانة ، التي يشير اليها ابن حوقل قائلاً « ان ملوكها أيسر من على وجه الاول ، ولذا أصبحت محطة للقوافل ومركزاً للتبادل التجاري ، بين سائر بلاد المغرب والاندلس من جهة ، وبلاد غانة من جهة ثانية • وفي سجلماسة كانت تتم مبادلة الملح الذي تغلو أسعاره في بلاد السودان وقطن الاندلس[2]والذهب• نتيجة لذلك ارتقت الاعمال التجارية في سجلماسة الى الحد الذي جعل التعامل بالصكوك لكميات كبرى من الاموال شيئاً شائعاً ومعروفا • ويذكر ابن حوقل النصيبي ، الذي زار المنطقة بعد مضي قرن على حكم المدراريين ، انه وجد في بعض بلاد افريقيا صكاً فيه ذكر حق لرجل من تجار سجلماسة باثنين وأربعين الف دينار ، ويذكر انه ما رأى ولا سمع بالمشرق نظيراً لهذا ، وعندما روى قصة ما رآه بالعراق وفارس وخراسان استطرفت • فاذا أضفنا الى ذلك أن دولة المدراريين سيطرت علىمدينة درعة الغنيّة بالحديد ، الذي كانت تأخذ منه خمسه ، بدا لنا قول ابن حوقل ، بأن جباية أمراء هذه

---

١ ـ ابن الخطيب ، أعمال الاعمال ، الجزء المتعلق بافريقيا ، ص ١٣٧ ـ ١٤٠ •

٢ ـ الروض المعطار ، ص ٢١ •

الدولة في أوائل القرن الرابع الهجري ٤٠٠ الف دينار ، وارتفاع المغرب من أقصاه الى أقصاه ضعف هذا الرقم ، غير بعيد عن الصدق[١] •

عرفت هذه الدولة بأنها خارجية صفرية ، وقاتل أمراؤها في سبيل مذهبهم ، الى أن جاء الفاطميون أواخر القرن الثالث الهجري ، وعندها لم يجد بعض أمرائهم غضاضة في استبقاء الحكم بأيديهم كدعاة لشيعة الفاطمية• وعندما انتزع أحد المالكيين من الأسرة حكم سجلماسة وتسمى بالخلافة وأمرة المؤمنين متخذاً لقب الشاكر لله ، هاجمه جيش الفاطميين وقضى على الدولة عام ٣٤٧[٢] هـ / ٩٥٨ م •

الدولة الرستمية (١٦١ ــ ٢٩٦ هـ / ٧٧٨ ــ ٩٠٨ م)

وهي الدولة الخارجية الثانية في المنطقة • مؤسسها عبد الرحمن بن رستم بن بهرام ، وبهرام هذا كان مولى للخليفة الراشدي عثمان بن عفان • ويرجع أبناء هذه العائلة نسبهم بعده الى ملوك الفرس • أما عبد الرحمن فكان من رجال أحد الخوارج الكبار ، الذين مدّوا سلطانهم من طرابلس حتى القيروان • وعندما قتل الزعيم الخارجي في موقعة له مع والي الخليفة العباسي المنصور في سنة ١٤٤ هـ / ٧٦١ م هرب عبد الرحمن بأهله وما خف من ماله من القيروان فنزل مع جماعة من الاباضية في موقع تاهرت أو تيهرت في المغرب الأوسط فبنوا وسكنوا ، وأصبحت لهم دولة خارجية ، لكن خوارجها كانوا من الصفرية والاباضية • كما انضوت تحت لواء هذه الدولة جماعات المعتزلة الذين أخذوا هنا اسم الواصلية نسبة لواصل بن عطاء المعتزلي الشهير ، وكان مجمعهم قريباً من تاهرت • ويرى البعض أن التقارب السياسي كان يرافقه تقارب فكري في بعض النقاط بين المعتزلة والاباضية في الشمال الافريقي[٣] وظل أبناء عبد الرحمن وأحفاده يتعاقبون

---

١ ــ ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٧٦ ــ ٩٧ •

٢ ــ البكري ، المسالك ، ص ١٥١ • ويجعل ابن الخطيب في اعمال الاعلام ص ١٤٨ سقوطها بعد سنتين •

٣ ــ أنظر التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ، دراسات لكبار المستشرقين . ترجمة عبد الرحمن بدوي ، ص ٢٠٤ ــ ٢١٠ •

على الامارة حتى عـام ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م ، عندما قضى عليهـا الفاطميون الشيعة[٢] • وقد توثقت علاقات هذه الدولة بدولة المدراريين الخارجيـة الصفرية ، وارتبطت العائلتان برباط المصاهرة ، ونظراً لاتساع رقعتها وقوتها بدت وكأنها تمارس شيئاً من السيادة على دولة المدراريين التي كانت شبه تابعة لها[٢] •

العلاقات بين الامارة الاموية في الاندلس مع دول شمال افريقيا

يمكن أن تقسم دول شمال افريقيا بالنسبة لعلاقاتها بدولة الأمويين في الاندلس الى قسمين • يتألف القسم الاول من الدولتين الكبيرتين الاغالبة في المغرب الادنى والادارسـة في المغرب الاقصى ، وعلاقات الامويين بهما اتسمت بالتجاهل المشوب بالحذر والخشية من توسعهما • واذا ساعدت مراكب أندلسية الاغالبة في عمليات فتح صقلية ،فهي تابعة لجماعات البحريين الاندلسيين الذين يغزون في حوض المتوسط الغربي ، ولـم تكن الامارة الاموية تمارس عليهم أية سلطة • ويرجع السبب في قيام مثل هذه العلاقة بين الأمراء الامويين والاغالبـة ، الى بقاء الاخيرين ، رغـم تكوينهم امارة وراثية ، مرتبطين بالعباسيين بكثير من الروابط كدفع مبلغ معين من المال سنوياً والطلب من الخليفة العباسي المصادقة على ارتقاء الأمير الجديد منهم ، وتكييف سياستهم وفق اتجاهات السياسـة العباسية • أما بالنسبة لدولـة الأدارسة فلم تقم بينها وبين الامويين في الاندلس ، حتى هذه الفترة من تاريخهم في الاندلس ، أية اصطدامات رغم تجاورهما وتوفر فرص الاحتكاك بينهما والعداوة التقليدية بين أسرتيهما • وربما كان مرد ذلك الى كونهما تخشيان عدواً واحداً يتمثل في العباسيين الذين لم يكفّوا عن السعي ضد الدولتين حتى عهد قريب • ففي الاندلس قامت الفتن أكثر من مرة تحت ظل الراية السوداء ، راية العباسيين • وفي المغرب الاقصى قتل المولى راشد

---

١ ـ البكري ، ص ٦٧ ـ ٦٩ •

٢ ـ محمد بن تاويت ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية ، المجلد الخامس ، ص ١٠٥ ـ ١٢٨ •

مدبر دولة الادارسة في عهد انشائها بتدبير من الاغالبة اتباع العباسيين ، واعتبروا الحادث كشاهد على اخلاصهم لأسيادهم[1] .

أما القسم الثاني من دول الشمال الافريقي فيتألف من الدول الصغرى ، التي كانت جميعها صديقة للأمويين ، رغم انها كانت ، باستثناء الدولة الصالحية ، تدين بمذاهب ، مخالفة للسنة السائدة في الاندلس ، لكن المصلحة السياسية المشتركة بين كل واحدة من هذه الدول ودولة الامراء الامويين كانت الرائدة .

تأتي على رأس هذه الدول من ناحية توثق علاقاتها بالامويين الدولة الصالحية في ناكور ، التي كانت تخشى ، كدولة صغيرة ، الادارسة المحيطين بها . ومن جهة الامراء الامويين ، كان موقع هذه الدويلة القريب من شواطئهم هام بالنسبة لهم ومن الخطر عليهم أن يحتله أعداؤهم الادارسة ويستغلونه كنقطة انطلاق ضدهم ، لذا ظلت علاقاتهم بالامويين في الاندلس وثيقة الى الحد الذي قام معه ابن أحد ملوكهم بعبور المضيق ، في أواخر أيام الامارة الاموية ، برسم الجهاد وقتل مع كل من ساروا معه في الصدام مع الثائرين على الامير الاموي[2] .

أما دولة برغواطة فقد كانت خلال فترة ازدهار الامارة الاموية في الاندلس ، في حرب مع الادارسة المحيطين بأراضيها ، ولذا كان من مصلحتها الاعتماد على الامويين ، وتتردد في سير ملوكها توصية كل واحد منهم قبل وفاته لولي عهده بموالاة الامويين في الاندلس ولم يمانع الامويون ، على ما يظهر ، في هذه التبعية رغم مروق برغواطة عن الدين الاسلامي ، وذلك رغبة في عدم توسع دولة الادارسة[3] .

---

١ ـ ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، الجزء الخاص بالمغرب ، ص ١٤ ـ ٥١ و ١٩٦ ـ ١٩٧ .
٢ ـ ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ص ١٧٦ ـ ١٧٧ .
٣ ـ ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، الجزء المتعلق بالمغرب ص ١٣٧ ـ ١٤٨ .

وفي المغرب الاوسط ، رأى الرستميون أصحاب أكبر دولة خارجية في المغرب دولتهم محاطة بطامعين كبيرين يحيطان بها ، الاغالبة من الشرق والادارسة من الغرب ، فوجدوا السلامة في الاعتماد على الامراء الامويين الذين كانوا على غير وفاق مع الدولتين • بدأت علائم التقارب بالظهور في أول سنة اعتلى فيها عبد الرحمن الثاني عرش الامارة في الاندلس ، اذ أرسل له الرستمي أولاده للتهنئة وتجديد روابط الولاء التي كانت تربط الاسرة الرستمية بالاسرة الاموية ، واستمرت علاقات الود بعد موت عبد الرحمن الثاني وارتقاء الامير محمد عرش الامارة « اذ كان صاحب تاهرت لا يقدم ولا يؤخر في أموره ومعضلاته الا عن رأيه وأمره[1] » • ونجد مظاهر الصداقة القريبة من التبعية متجلية في التهنئة بالانتصارات وتبادل الهدايا ، وتصدير المنتجات الزراعية من الدولة الرستمية الى قرطبة كذلك تزويد جيوش أمراء قرطبة بالمرتزقة من الجنود البربر ، وفي هجرة بعض أفراد من الاسرة المالكة الرستمية الى قرطبة حيث تولوا مناصب رفيعة •

وبما أن دولة المدراريين كانت تدور في فلك الرستميين ، فمن تحصيل الحاصل أن تكون علاقاتها بالامويين شبيهة بعلاقات الرستميين بهم ، ولا تخلو النصوص التاريخية من اشارات الى ذلك[2] •

العلاقات مع دولة اشتوريش

تقابل مدة ازدهار الامارة الاموية فترة حكم فيها دولة اشتوريش أوردونيو (أردُن بن اذ نوقش حسب التسمية العربية) بين ٨٥٥-٨٦٦ م ، وانقضت بعدها نصف أيام الفونسو الثالث في الحكم ٨٦٦ - ٩١٠ م • واستمرت العلاقات بين الدولتين خلال هذه الفترة على ما كانت عليه في الفترة السابقة ، غزوات ، اسلامية في الغالب ، منطلقة من قرطبة ضد دولة

---

١ - ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١٠٨ •

٢ - أنظر : المصدر السابق نفس الصفحة •

اشتوريش ، وذلك كلما سمح هدوء الاحوال الداخلية في بلاد الامير له بالتفرغ لمحاربة المسيحيين في الشمال ، وكلما شعر الامير بضرورة تأديب أمير اشتوريش على مساعدته لاحد الثوار على سلطة قرطبة ، ولم تكن نتائج هذه الغزوات ذات بال • والشيء الجديد في الموقف بين الدولتين خلال هذه الفترة قيام كل فريق باعمار خط دفاعه تجاه الطرف الآخر • ومن المعلوم أن الحدود بين الدولتين لم تكن خطاً بل منطقة واسعة يحدها في الشمال خط يمر ضمن المعاقل الجبلية الممتدة من جبال البيرينة شرقاً الى المحيط الاطلسي غرباً أما في الجنوب فكان وادي تاجه وأعالي ابرة • بدأت دولة اشتوريش باعمار المناطق السهلية التي تلي الجبال مباشرة ، فعمرت أولاً اشْتُرْقة (Astorga حالياً) وليون التي حصنت بأسوار منيعة ، وفي أقصى الطرف الشرقي من الدولة ، أي في المنطقة الواقعة في أعالي نهري ابره و Pisuerga ومركزها مدينة اماية Amaya ، وكان العرب يسمونها القلاع ومنها كان مدخل الكثير من غزواتهم ، في هذه المنطقة أعمرت مدينة (برغش Burgos حالياً) و Cardena ، ومن ثم بدأت حركة اندفاع من بعض النبلاء باتجاه الجنوب أيضاً حتى وصلوا الى دويرة في أواخر عصر الامارة[١] •

وقامت عملية اعمار مماثلة مــن ناحية أمراء قرطبة فحصنوا روافد التاجه الشمالية وروافد ابره اليمنى أي في المنطقة التي يقترب فيها خط حدودهم من نهر دويره وهكذا بنى الامير محمد مدينة مجريط (مدريد الحالية) وطلمنكه (Talamanca[٢]) وتقع على أحد الروافد وعلى بعد حوالي أربعين كيلو متراً الى الشمال الشرقي من مدريد[٣] • كما اصطنع نفس الامير بني تجيب ، فبوأهم مدينة قلعة أيوب وبناها لهم كما بنى لهم

---

١ _ Ramon Menendez pidal, El Idioma..., p.p. 53-54.

٢ _ الروض المعطار ، ص ١٢٨ • Ibid, p.p. 83-84.

٣ _ L. Provençal, La péninsules Iberique au Moyen Age, p. 155.

حصن دروقة[١] ، واستعان بهم لتحصين حدوده ضد دولة اشتوريش كما اتخذهم كدرع واق أيضاً تجاه بني قسي أصحاب الثغر الأعلى الذين اشتهروا بتمردهم على الأمراء الأمويين •

العلاقات مع بيزنطة

قام أول اتصال دبلوماسي بين بيزنطة والاندلس في هذه الفترة ـ وهي فترة الازدهار من تاريخ الامارة ، وذلك عندما وصلت الى قرطبة في سنة ٢٢٥ هـ / ٨٣٩ ـ ٨٤٠[٢] م ، سفارة لامبراطور القسطنطينية توفلس Theophile ، ومعها هدايا ورسالة من الامبراطور لعبد الرحمن الثاني • وبما أن هذه الاتصالات تمت بمبادءة من الدولة البيزنطية ، فلا بد لنا من التوقف قليلاً للتعرف على الدبلوماسية البيزنطية ، من ناحية طبيعتها ووسائلها ، وعلى ضوء ذلك وضوء ظروف كل من بيزنطة والاندلس ، يمكننا التعرف بدقة على أهداف البيزنطيين من السفارة ومدى صحة الاخبار الواردة في المرويات العربية عنها •

الدبلوماسية البيزنطية : طبيعتها ووسائلها • ـ كانت الامبراطورية البيزنطية محاطة ، في أغلب فترات تاريخها ، بالاعداء من جميع الجهات ، لذا اعتمدت بالاضافة لجيشها على سلاح آخر وهو الدبلوماسية لتؤمن مصالحها في بعض الاحيان ، أو لتحافظ على وجودها في أحيان أخرى • ولذا أخذ هذا السلاح أهمية كبرى لدى البيزنطيين ، حتى أن قسطنطين السابع ٩١٢/٩٩٥ م ، عندما ألف لابنه كتاباً عن ادارة الدولة ، ضمّنه فصلاً خاصاً عن الدبلوماسية • كما أن بيزنطة أحسنت استخدام هذا السلاح لحدّ كبير ، حتى اعتبرها البعض واضعة مبادئه بالنسبة للعالم الغربي[٣] •

---

١ ـ المقتبس ، تحقيق الاب ملشورم • انطونية ، ص ٢٠ •

٢ ـ الاسلام في المغرب والاندلس ، مجموعة مقالات لليفي بروفنسال ، ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي ، البحث المنشور في مجلة Byzantion بعنوان : تبادل السفارات بين بيزنطة وقرطبة في القرن التاسع الميلادي ، ص ٩٧ •

٣ ـ Karl Roth, Cultura del Imperio Bizantino, p. 74-76.

تمركزت أدوات عمل هـذه الدبلوماسـية في مركزين اداريين في الدولة ؛ ديوان شـؤون البرابرة في القصر ، ودائرة خاصـة بالبرابرة في Logoteta del dromo ، أي وزارة الشؤون الخارجية ، والبرابرة هـو الاصطلاح الذي استخدمه الغرور البيزنطي للدلالة على مجموعة الشعوب المحيطة ببيزنطة أو العالم غير البيزنطي ، في الشرق والغرب على حد سواء • وفي هذين الديوانين كانت تحفظ بعناية الملاحظات والمعلومات عن البرابرة ، ويزودهما بها التجار والمبشرون الدينيون ، وعلى ضوء ذلك تحدد كل الامور الضرورية لتحديد السياسة التي يجب أن تتبع مع هـذا الشعب ، مثل : جانب القوة وجوانب الضعف فيه ، هل يجب استخدامه أم طلب حياده ، ما هي القوى المتنفذة فيه ، أي الهدايا وأي الوسائل ترضيها أكثر ، ما هي مشاعرها ، ما هي أفضل المصالح التي ينبغي تحقيقها من العلاقات مع هـذا الشعب ، أي العلاقات السياسية والاقتصادية يمكن أن تعقد معه • يضاف الى ذلك انه وضعت في بيزنطة مراسيم خاصة تتعلق بكيفية استقبال السفراء وترتيبات اقامتهم ، الغايـة منها ، أن تحصـل لدى السفراء قناعة بعظمة الامبراطور والامبراطورية[1] •

ظروف بيزنطة • ـ لا ريب أن ظروف بيزنطة هي التي تحـدّد سياستها ، وكانت في هذه الفترة تقاسي من هزائم • فقبل عـام ، أحرز الخليفة العباسي المعتصم انتصاراً مدوياً ضد الامبراطور البيزنطي توفلس عند الاستيلاء على عمورية ، مهد الاسرة البيزنطية الحاكمة • ورغم الضجة التي تركها هذا الانتصار في الشعر والتاريخ العربي[2] الا انه كان قصير الامد وتوقف التقدم العباسي في الاناضول ، وبقي انتصار عمورية عبارة عن حادثة من حوادث الحدود •

---

١ ـ Corlos Diehl, Grandeza y servidumbre de Bizancio, p. 53.

٢ ـ أنظـر : الكـامل ، ج ٦ ، ص ٤٨٠ ـ ٤٨٨ ، العيون والحدائق وأخبـار الحقائق ، ص ٣٩٠ ـ ٣٩٥ •

انما حدثت في البحر الابيض المتوسط حوادث تمت دون احداث ضجة كبيرة ، الا أنها كانت تنذر البيزنطيين بخطر عظيم • فقبل عدة سنوات ، قامت جماعات الربضين المطرودة من الاسكندرية باحتلال كريت ، وجاءهم بعد احتلالها عرب آخرون شاركوهم في اعمارها[1] وفي القيام بالغارات على أرخبيل جزر بحر إيجة • كان لهذا الاحتلال وما تبعه من غارات ، في الفترة التي تم فيها وتوطد ، مضاعفاته الخطيرة • ذلك لأن كريت بحكم موقعها الجغرافي تتحكم في الطريق ما بين القسطنطينية والاملاك البيزنطية • في جنوب ايطاليا وصقلية ، حيث تشتد هجمات الاغالبة وتتوالى انتصاراتهم • وفي نفس العام الذي وردت فيه السفارة البيزنطية الى قرطبة ، يذكر ابن الأثير ، « ان عدة حصون في صقلية قد استأمنت للمسلمين ، وأن الاسطول الاسلامي سار الى مدينة ساحلية فاحتلها ولقي أسطول صاحب القسطنطينية فهزمه فكان فتحاً عظيماً »[2] •

وتبعاً لذلك يدل ارسال سفارات متعددة ، في زمن واحد ، الى بلاط لويس التقي الكارولنجي والى البندقية ، بالاضافة الى السفارة المرسلة الى قرطبة ، على أن السياسة البيزنطية كانت تسعى لايجاد تحالف بين القوى البحرية في المتوسط ضد الاغالبة أعداء البيزنطيين • وكان الامراء القرطبيون قد اتبعوا سياسة معادية للاغالبة ، تمثلت خلال فترة الازدهار هذه بالصداقة مع الرستميين حكام تاهرت الخوارج أعدائهم • وبتشجيعهم على الاستمرار في هذا العداء ، كما يستنتج من حادثة جرت عام ٢٣٩ هـ / ٨٥٤ م ، يذكرها ابن الاثير بقوله :

بنى الأمير الاغلبي سنة ٢٣٩ هـ مدينة العباسية بقرب تاهرت ، فأحرقها له الامير الرستمي وكتب الى الامير الأموي يعلمه بذلك فبعث اليه الأموي بمائة الف درهم جزاء له على فعلته •

---

١ ـ أنظر ما مر سابقا ص ١١٧ •

٢ ـ الكامل : ج ٦ ، ص ٤٩٤ •

ولا ريب أن سياسة الامراء الامويين في قرطبة تجاه الاغالبة كانت معروفة لدى البيزنطيين بفضل أجهزتهم التي تجمع المعلومات عن أحوال الشعوب البربرية •

عروض البيزنطيين على الامير عبد الرحمن

نستقي معلوماتنا عن عروض بيزنطة على الامير عبد الرحمن من رسالته الجوابية التي استعرض فيها كاتبه ، بنود العرض البيزنطي قبل الرد عليها• ينطلق هذا العرض ، من التأكيد على وجود صداقة تربط بين أسلاف الامير الاموي وبيزنطة ، ومن اتفاق المصالح بين الطرفين في الفترة الراهنة ، لأن لهم عدواً مشتركاً يتمثل في العباسيين وأتباعهم • لذا تعرض الرسالة التحالف ضد هؤلاء الاعداء ، فتحض الامير الاموي على استعادة عرش أجداده من الذين قتلوهم وظلموا الناس ، خاصة وأن دولتهم قد أوشكت على الانقطاع ، وتعده بالعون الصادق عندما يحاول ذلك • ثم تعتبر أن الربضيين في كريت جعلوا أنفسهم رعايا للخليفة العباسي ، كما تهوّن من شأن وأهمية الاغالبة أمراء افريقيا ، لان الشقاق واقع بينهم وبين العباسيين •

رد الامير عبد الرحمن وسفارته

كانت خلاصة رد الأمير عبد الرحمن قبول الصداقة فقط ، ورفض التحالف مع بيزنطة ضد مسلمين آخرين ، انما صيغ هذا الرفض بشكل دبلوماسي ينتفي فيه الرفض الصريح • فقد أعلن عبد الرحمن في جوابه ان له نفس الرغبة في المواصلة • أما بشأن استرجاع عرش أجداده في المشرق فانه يستنجز وعد الله لآله ، وان النقمة ستحل على العباسيين ، من أهل المغرب بالامويين وعلى أيديهم • وبشأن كريت يتبرأ الامير الاموي منهم ، اذ ليسوا كلهم من الربضيين ، وانما سفلتهم وسوادهم وفساقهم وأباقهم • ومع انه يعتذر عن تأديبهم لانهم ليسوا من بلده ولا برنبته ، ولا يجد غرابة في خضوعهم للعباسيين لقربهم من بلادهم واعتبارها كمأمن

لهم ، الا انه يستغرب عجز الامبراطور البيزنطي عن اخراجهم عنه • وأخيراً يربط الامير عبد الرحمن أمر اشتراكه باخراجهم باستعادته لما كان بأيدي أجداده في المشرق ، حيث سينظر في أمرهم على ضوء تقديره للمعونة التي سيقدمها له البيزنطيون • ولا تشير الرسالة بشيء الى الأغالبة[1] •

يلاحظ في هذا الرد براعة دبلوماسية تكشف عن خبرة بلاط الأمير في هذا المجال ، كما تتجلى هذه الخبرة في اختيار السفيرين اللذين حملا الرد • فمن بين كل رجال البلاط انتخب للسفارة اثنان ممن عرفوا بعقلينهم الفلسفية حسب مفهوم ذلك العصر للفلسفة • وهما يحيى الغزال الذي يسميه ابن حيان حكيم الاندلس وشاعرها ، وصاحب له يدعى بصاحب المنيقله (نوع من الساعات) وفي هذه التسمية اشارة الى انه مبتكرها ، وهكذا تتوافق عقلية السفيرين مع طبيعة الفكر السائد في البلاط البيزنطي ، اذ من المعلوم أن بيزنطة وريثة الثقافة الاغريقية • كما أن الصفات الاخرى التي يستحسن توفرها في السفير نراها واضحة في النصوص التاريخية المتعلقة بيحيى الغزال : فهو وسيم جميل وقد لقب بالغزال لجماله[2] ، كما عرف بالظرف وسرعة البديهة •

حوت المراجع العربية عدة قصص ، تتعلق بالاحداث التي جرت ليحيى الغزال أثناء اقامته في القسطنطينية[3] ، يمكن عند النظر اليها على ضوء تقاليد الدبلوماسية لبيزنطة ، أن نجد فيها صحة من ناحية ما ترمز اليه ، أما التفاصيل فأكثرها خيالي • منها أن مقدم البلاط اجتمع بالسفيرين قبل مثولهما أمام الامبراطور وشرح لهما كيفية المثول أمامه ، وأعلن الغزال رفضه للسجود ، لكنه عند الدخول وجد الباب صغيراً مما يضطر الداخل

---

١ ـ أنظر نص الرسالة في : الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ١١٥ ـ ١١٨ •

٢ ـ اسمه الكامل هو يحيى بن الحكم البكري الجياني ، أنظر النفح ، ج ٣ ، ص ٢١ •

٣ ـ أنظر هذه القصص في النفح ج ٣ ، ص ٢٢ ـ ٢٩ ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ١٠٥ ـ ١١١ •

للدخول راكعاً ، فتخلص من ذلك بحيلة . ومن المعلوم أن تعظيم الاباطرة في نظر السفراء الاجانب شيء الح عليه البيزنطيون ، ومن قبيـل ذلك ما كانوا يزعمونه أمام بعضهم ، انالنار الاغريقية ، سلاح البيزنطيينالشهير ، قد كشفه ملاك للامبراطور ، وان جواهر التاج أنزلها ملاك آخر .

ومن القصص المروية عن الغزال أيضاً ، ان الامبراطورة زارته برفقة ابنها في مكان انزاله « أكاديمية المرمر » . ومع أن مرافقة السفراء ، شيء من صميمالتقاليد الدبلوماسية البيزنطية ،اذ يكون هؤلاءكمرافقين أدلاء يوجهون الزوار الى رؤية كل شيء يخلق في ذهنهم انطباعاً بعظمة بيزنطة ، وكرقباء بنفس الوقت يمنعون ما عدا ذلك . اما أن تكون الزائرة هي الامبراطورة بالذات مع ابنها فهذا يتنافى مع التقاليد البيزنطية القائمة على اعلاء كلمايتعلق بالامبراطور ، ويرى ذلك واضحاً في معاملة أميرة كييف . اذ أقيمت لها حفلة رائعة ، ولكنه لم يسمح لها بالجلوس على مائدة الامبراطور .

أما اجتماع الغزال مع الامبراطور وحضور الامبراطورة فمعقول ، لأن العادة جرت على اقامة حفلات استقبال للسفراء ، تظهر فيها الامبراطورة الى جانب زوجها[١] .

---

١ ــ أنظر تقاليد استقبال السفراء والامراء الاجانب زوار بيزنطة في :
Karlos Diehl, Grandeza..., p. 56-57.

الفصل السادس

فترة الحرب الأهلية
من عصر الامارة

تعود أصول هذه الحرب الى أواخر الفترة الماضية ، فترة الازدهار ، اذ اشتدت آنذاك ثورات المولّدين ، وقويت بما توفر لها من دعم وتأييد ومشاركة من قبل دولة اشتوريش . واتخذ الأمير محمد سلسلة من التدابير الجديدة ضدها ، فنجحت الى حد ما في طليطلة الثغر الاوسط وفي سرقسطة الثغر الاعلى ، لكنها فشلت في الثغر الادنى ماردة ، وفي النصف الاخير من حكمه امتدت فتن المولدين الى الجنوب أو الى الكور المجنّدة ، ومات قبل أن يقضي عليها في هذه المنطقة . وعندما اشتد خطرها في عهد خليفته ، وكانت موجهة ضد العرب خاصة بالاضافة الى الأمير ، وعجز هذا الاخير عن حماية العرب مما أدى لتكتلهم تحت قيادة زعيم منهم للدفاع عن أنفسهم ، وكانت النتيجة أن خرج العنصران من حظيرة الطاعة للأمير ، مما أضعفه وجعل الزعماء المحليين في كل منطقة يستغلون هذا الضعف ليستقلوا بما في أيديهم ويجعلوا سلطان الأمير الفعلي لا يتجاوز قرطبة .

أمراء الفترة

الامير المنذر (٢٧٣ ـ ٢٧٥ هـ / ٨٨٦ ـ ٨٨٨ م)

المنذر بن محمد لأم ولد تدعى اثْل أوايل ولدته لسبعة أشهر سنة ٢٢٩ هـ / ٨٤٤ م . وبويع بالامارة يوم الاحد ٨ ربيع الاول سنة ٢٧٣ هـ / ١٤ آب ٨٨٦ م ، وكان حكمه قصيراً دام سنتين الا سبعة عشر يوماً ، يذكر

من ترجموا له انه حافظ على سنة سلفيه في اكرام كل من أخذ بحظ من علم وأدب ، أما في مجال السياسة والادارة فيتميّز بسرعة البت في الامور مع تحكيم العقل والحزم والتصميم على فعل ما قرّره • يتجلى هذا في قيامه عندما بلغه خبر وفاة والده ، وهو محاصر لاحد حصون ثائر الفترة الرئيسي عمر بن حفصون ، بالتصرف دون تخبط • سواء في الرجوع الى قرطبة للحصول على البيعة ، أو في التدابير الضرورية التي يجب أن تتخذ في منطقة الثورة أثناء غيبته ، فأنفذها أولاً بكل روية وبعد ذلك توجه الى قرطبة ، وهناك قام في يوم واحد بعدة أعمال : أخذ البيعة ، وفرّق العطاء في الجند ، وتحبب الى أهل قرطبة والرعايا بأن أسقط عنهم عشر العام وما يلزمهم من جميع المغرم ، وأصدر بعض الاوامر المتعلقة بالتعيينات للمناصب الكبرى في الادارة والجيش[1] • توفي المنذر في نفس المنطقة التي كان فيها عندما آلت اليه الامارة ، وهي حصار ابن حفصون • وذلك بعدما أصيب بمرض ، واختلف حول حلول منيته ، فمن قائل انه سم من قبل طبيبه ، وآخر يقول انه سم بتدبير أخيه عبد الله كي يرث حكمه •

الامير عبد الله بن محمد (٢٧٥ ـ ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ ـ ٩١٢ م)

أخو المنذر وخليفته وابن الامير محمد وأم تدعى بهار وقيل عشار ، ويستنتج من اسمها انها كانت أم ولد كسائر أمهات الامراء ، ولد في ١٥ ربيع الثاني عام ٢٢٩ هـ / ١١ كانون الثاني ٨٤٤ وبويع له منتصف شهر صفر عند وفاة أخيه • آلت اليه امارةالاندلس وقد مزقتها الفتن التي ازدادت نارها ضراماً خلال السنوات الاولى من حكمه ، فقضى مـدة امارته التي استمرت حتى أول ربيعالاول من سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ في اخضاع الثورات حتى أوصلها الى مرحلة الانهاك وأفسح المجال لحفيده وخليفته أن يقطف ثمار النصر ويفرض طاعته دون كبير عناء •

---

١ ـ افتتاح الاندلس ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ ، ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١١٣ ـ ١١٤ و ١٢٠ •

قيّمه من ترجم له من المؤرخين الاندلسيين على أساس جانب واحد من تصرفاته ، ودون ربط هذه التصرفات بالظروف والاوضاع المحيطة به • ركز قسم منهم على تقاه من صلاة واقبال على التصدق وابتعاد عن الفسوق واللهو واهتمام بشؤون العامة ومشاورة للفقهاء في كل أمر ، فكالوا له نعوت الصلاح ، ووجدوا وراء الكثير من أعماله غاية صلاح وتقى • حتى انه عندما بنى ساباطاً يصل بين القصر والمقصورة في المسجد ، وهو أمر يتضح فيه هدف المحافظة على حياته من الاغتيال في ذلك العصر المضطرب ، كما يتجلى فيه الاستمرار في عملية الامراء الامويين في الترفع عن الرعية ، وهذا العمل بدأ منذ أيام عبد الرحمن الداخل ، عندما امتنع عن الاختلاط بالناس وعدم حضور الجنائز ، ووضع عبد الرحمن الثاني نظام التشريفات الدقيق ثم بنى الامير محمد في المسجد مقصورة لصلاة الامير ، وخطا عبد الله خطوة أخرى تعزله عن الناس حتى في مسيرته القصيرة جداً من المسجد الى القصر • لكن المؤيدين له قالوا أن الأمير كان مواظباً على أداء الصلوات في المسجد ، وبما أن الناس كانوا يقفون لـه اجلالاً في الطريق ، مما أحرج الصالحين الذين اضطروا للوقوف رغم اعتقادهم بأن الوقوف يجب أن يكون لله وحده • ولتخليصهم من هذا الحرج وجرياً على سنته في التواضع واجتناب الكبر بنى الأمير هذا الساباط ، فأصبح يأتي للصلاة في أي وقت يشاء دون أن يراه أحد • وبنى آخرون على قتله لأحد أبنائه ولاحد اخوته فقالوا عنه انه كان قتالاً تهون عليه الدماء ، واتهموه بأنه كان وراء أغلب حوادث الوفاة التي حصلت في سجنه أو بين من يحيطون به من أبناء وأخوة[1] •

ومن الافضل أن يكون التقييم على أساس وضع تصرفات الامير ضمن الظروف التي عاشها • فزهده وتقشفه ربما كان مردّه الى طبيعة عصره ، فالتهديد الدائم لملكه لم يترك له جو الاطمئنان الملائم للهو ولا المال الضروري ،

---

١ ـ أنظر آراء المؤرخين الاندلسيين تجاه الامـــير عبد الله في : المقتبس ، تحقيق ملشور ، ص ٣٢ ـ ٤١ •

أما هوان الدماء عليه فمرده أيضاً الى طبيعة العصر الذي استشرت فيه الفتن ، وثار عليه حتى أحد أبنائه ولجأ الى عدوه الثائر الذي كان يهدد الامارة الاموية بالزوال ، مما جعله مضطراً للقضاء على أي كائن عندما تحيق به شبهات التمرد كائناً من كان ابناً أم أخا •

جذور الحرب الاهلية

بقيت حركات المولدين في النصف الاول من امارة الامير محمد مقتصرة على الثغور كما هو الحال في عهد سلفه ، وان أصبحت أكثر قوة بعد ارتباطها بملك اشتوريش ، وتلقي العون العسكري منه والملجأ عنده وقت الهزيمة • فقام الامير محمد باتخاذ تدابير جديدة ضد الثائرين في هذه الثغور •

في الثغر الاعلى اصطنع بني تجيب ضد بني قسي الثائرين ، كما دعم بهم خط الحدود على روافد ابره اليمنى ، فبوأهم مدينة قلعة أيوب التي بناها لهم ، وحصن دروقه من بنائه أيضاً • واستطاع بنو تجيب أن يحلوا محل بني قسي بالتدريج في سرقسطة وابعادهم الى أعالي نهر ابره وروافده اليسرى ، ليصبحوا عازلاً بين دولةالامير والدويلاتالمسيحية في المنطقة[1]•

وفي الثغر الاوسط طليطلة حيث استمرت حركات المولدين في عصر الامارة دون توقف ، لجأ الامير محمد الى احاطتهم من جميع الجهات • قام في أول امارته بتسوير واعمار المراكز الواقعة الى جنوبها ، في الطريق بينها وبين قرطبة ، وشحنها بالجند كما هو الحال في قلعة رباح[2] • وفي الشرق عهد بالأمرة على كورة شنتبرية لرأس عائلة بني ذي النون من هوارة البربرية ، فأصبحت طليطلة مغزى لهذه القبيلة البربرية[3] ، أما في الشمال

---

١ ـ المقتبس ، تحقيق ملشر ، ص ٢٠ •
٢ ـ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ٩٥ •
٣ ـ المقتبس ، تحقيق ملشور ، ص ١٧ •

فقد عملت المراكز التي بناها الامير لتحصين خط الحدود مع دولة اشتوريش على تطويق طليطلة من هـذه الجهة أيضـاً • واستطاع بهذه التدابير أن يتخلص من عبء اخماد ثورات طليطلة الكثيرة ، خاصة وانه عندما ترك لهم أمر ادارة شؤونهم الداخلية وعاقدهم على قطيع من العشور يؤدونه له كل عام ، وقع النزاع الداخلي بينهم حول الحكام ، وأدى هذا النزاع في بعض الاحيان لانقسام المدينة الى قسمين يحكم كلاً منهما حاكم خاص[١] •

بهذه الوسائل استطاع محمد الثاني أن يدفع خطر فتن الثغرين الاعلى والاوسط • لكن النجاح لم يحالفه في معالجة فتنة الثغر الادنى ، حيث قامت فتنة ابن الجليقي واستمرت خلال النصف الثاني من امارته عندما بدأت بالظهور بوادر عصيان مولدي في الجنوب •

فتنة عبد الرحمن بن مروان الجليقي في الثغر الادنى

برزت عائلته في ماردة خـلال عصر الامارة الامويـة ودعيت بعائلة الجليقي نظراً لأن أصلها من جليقية في شمال البرتغال الحالية ، هاجر جدها الى ماردة واعتنق الاسلام ، وعرف عن أفراد العائلة اخلاصهم للامارة الاموية وتقريب الامراء الامويين لهم ، اذ عين مروان الجليقي والياً للمدينة وقام ثوارها من المولدين فقتلوه •

لم يكن عبد الرحمن بن مروان سر أبيه في الولاء للأمويين ، فقام في سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م بالاشتراك مع آخرين بتزعم ثورة مولدية في ماردة ، فاستنزلهم قواد الأمير وحملوهم الى العاصمة قرطبة حيث أقاموا سبع سنوات ، هرب بعدها اثر اهانة أحد القواد له بصفع قفاه وشتمه قائلاً له ان الكلب خير منه[٢] ، واعتصم في قلعة الحنش (حالياً Alange) الواقعة الى الجنوب الشرقي من ماردة حيث أعلن العصيان •

---

١ ـ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١٠١ ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٢٦٥ ، ٢٧١ ـ ٢٧٢ ، ٣١٠ •
٢ ـ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١٠٢ •

سارع الامير بارسال القوى لاخضاعه ، فحاصرت حصنه ثلاثة أشهر ، ضاقت به الاحوال بعدها وخاصة لفقدان الطعام مما اضطره مع جماعته لأكل دوابهم[1] • فعرض على الامير الخضوع مقابل السماح له بالسكنى في منطقته والاستقرار في قرية تقع على يمين نهر آنة عند منعطفه الكبير ، واتفق الطرفان بعد ذلك على السماح له بالسكن في نفس المكان تقريباً ولكن في قرية بطليوس التي تقع على يسار النهر في نفس النقطة ، حيث يكون أسهل تناولاً على الأمير • وربما رأى الأمير في اقامة الثائر بمدينة في بسيط من الارض ما يجعله غير ذي خطر ، اذ يسهل في كل وقت حصاره فيها واخضاعه ، على عكس حاله عندما يقيم في الحصون الموغلة داخل الجبال الوعرة •

لم تخف نيات الامير على ابن مروان الجليقي ، اذ ما كادت حملة للأمير تغادر قرطبة في العام التالي لتوقيع الاتفاق متجهة نحو الغرب حتى عرف قصدها ، فغادر المدينة ولجأ الى آحد الحصون الجبلية[2] ، حيث استطاع بمساعدة ثائر آخر يدعى سعدون السرنباقي وملك دويلة اشتوريش أن يأسر قائد الامير ويقدمه هدية لملك اشتوريش • وأن يتابع سيرته من ثم في رفع راية العصيان على الأمير ، والفرار الى الجبال وحصونها عند مجيء الحملات والعودة في أثرها الى مدينة بطليوس عندما تكر راجعة •

بوادر عصيان المولدين في الجنوب

في الوقت الذي كانت فيه حركة ابن مروان الجليقي في الثغر الادنى تقض مضجع الامير ، امتدت حركة المولدين المناوئة لامير قرطبة الى المنطقة الجبلية الواقعة في أقصى شبه الجزيرة الايبيرية • تشتمل هذه المنطقة على أقسام كبرى من كور ريّة وتاكرنّا وغرناطة والجزيرة الخضراء ، وتتكون من قمم جبلية عالية تفصل بينها وديان سحيقة وتكسو المنطقة أحراج

---

١ ـ الكامل ، ج ٧ ، ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ ، افتتاح الاندلس ، ص ١٠٧ ـ ١٠٩ •
٢ ـ الكامل ، ج ٧ ، ص ٣٠٦ •

وأشـجار من جميـع الانـواع • لذلك كانت على ممر العصـور مقراً للعصابات وقطاع الطرق الذين يستفيدون من عجز الجيوش النظامية عـلى العمل في مثل هذه المناطق التي يعرفونها شبراً شبراً • وعندما يتاح لأحد زعماء العصابات ، ما بين فترة آخرى ، الذكاء اللازم مـع الظروف المواتية يغدو زعيماً شهيراً ، ولا يزال اسـم زعيم العصابات الشهير خوسي ماريا Jose Maria ، الذي سيطر في عصـر حديث نسبياً على كل المنطقة مائلا في أذهان الاسبان وقصته لديهم معروفة مشهورة[1] •

---

١ ـ أنظر عن طبيعة هذه الاراضي وعن السير عبرها ، رحلة واشنطن ايرفينغ ، التي قام بها من اشبيلية الى غرناطة في ربيع عام ١٨٢٩ م ، وذلك في :
Washington Irving, Cuentos de la Alhambra, pp. 11-24.

حركة عمر بن حفصون

ظلت هذه المنطقة خلال عهد الامير محمد على حالها في عهد أسلافه . ولكن قبل وفاته بثماني سنوات نشطت فيها حركات العصابات مما اضطره لتوجيه حملات نحوها فقضت عليها وقامت ببناء حصـون جديدة شحنت بالجند كي تساعد على توطيد حبل الامن . لم تكن التدابير المتخذة كافية كما ظهر فيما بعد ، اذ تزايد عدد العصابات وهدمت الحصـون الجديدة التي بنيت[1] . وظهر بين زعماء العصابات عام ٢٦٧ هـ / ٨٨٠ - ٨٨١ م عمر بن حفصون ، الذي قدّر له أن ينقلب من زعيم عصابة الى زعيم ثورة هائلة . تعتبر من أهم الثورات التي حصلت في تاريخ الاندلس ، سواء في طول أمدها ، اذ بقيت مستمرّة نصف قرن تقريباً ، أو في اتساع رقعتها أو فيما نتج عنها من اشعال نار الثورات والحرب الاهلية من أقصى الآندلس الى أقصاها ، وتهديد الامير الاموي في عاصمته قرطبة بالذات . وقـد تطلب اخمادهـا والقضاء عليها استنزاف جهـود أربعة أمراء أمويين ، هـم : محمد والمنذر وعبد الله وعبد الرحمن الذي تقلّد بعد اخمادها مباشرة لقب أمير المؤمنين الخليفة الناصر لدين الله .

مرحلة البداية في حركة ابن حفصون

(٢٦٧ - ٢٧١ هـ / ٨٨٠ - ٨٨٤ م)

اسرة ابن حفصون وتشكيل أول عصابة له

ينتسب عمر بن حفصون الى عائلة تدعي انحدارها من نسل نبيل قوطي يدعى الفونسو ، وأول داخل في الاسلام منها كان جعفر والد جد الثائر[1] .

---

١ - ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١٠٣ - ١٠٤ .

أما مقر العائلة فكان كورة تاكرنا ، ثم هاجرت منها أيام الحكم الربضي فاستوطنت قرية تُرّ جِيله (Torrecilla حالياً) من كور ريُّه (كورة مالقة فيما بعد) قرب حصن أوطة ، حيث ولد عمر لأب يدعى حفص ، ونظراً لكونه ملاكاً كبيراً ولأرومته النبيلة أضاف لاسمه مقطع اون تفخيماً فصار يدعى حفصون ، كان له من الابناء ثلاثة أكبرهم عمر ، الذي تميّز عن أخويه بشراسته ومزاجه الحاد ، الذي أدّى به وهو في مقتبل العمر الى قتل جار له أثناء مشاجرة • ودفع حنان الابوة الأب الى محاولة ابعاد ابنه عن متناول يد العدالة ، رغم استنكاره لعمله فأرسله الى الجبال المجاورة ، كي يتوارى عن الانظار • وهناك اشترك مع العصابات المنتشرة في أعمال السلب فقبض عليه مرة ثانية ، لكن عامل المنطقة ، الذي يجهل ماضيه ، أشفق عليه لحداثة سنه فاكتفى بجلده عدة جلدات ، بدل عقوبة القتل التي كان ينزلها برجال عصابات السلب وقطع الطرق[1] •

خشي عمر اكتشاف جريمته الاولى فغادر المنطقة واتجه الى شمال افريقيا وحل بتاهرت في المغرب الأوسط ، حيث انتشرت هناك جاليات أندلسية في جميع الأصقاع ، وعمل في دكان خياط من أبناء جلدته ، ومرة أخرى تعرف عليه رجل مسن من المولدين • مما اضطره ، وقد كشفت هويته في بلد يعتبر ملوكه موالين لأمير قرطبة ، لمغادرة المدينة • وان كانت الرواية تضيف الى ذلك ، ان الشيخ المولد تنبأ له بمستقبل لامع وبالانتصار على بني أمية في الاندلس • وتوجه ابن حفصون بعد خروجه من تاهرت الى الاندلس حيث حل في جوار عمه وجمع ممن حوله نحو الاربعين رجلاً ودخل جبل ببشتر عام ٢٦٧ هـ / ٨٨٠ م حيث ذاع عصيانه • تقدم جيش الأمير نحو الجبال في ريه والجزيرة الخضراء واستنزل زعماء العصابات فيها ، وكان من بينهم عمر بن حفصون الذي أقام في قرطبة أربعة أعوام •

---

١ ـ افتتاح الاندلس ، ص ١٠٩ ـ ١١٢ •

وهرب بعدها ، أما لأن حياة البلاط لم ترقه وقد الف حياة الجبال وبساطتها ، أو لأنّ صاحب المدينة كان مباعداً للقائد الذي يعمل عمر بن حفصون في خدمته ، فحاول صاحب المدينة اذلال رجال خصمه فأخرج ابن حفصون من نزالة الى نزالة وأمر الهرايين أن يعطوه من شر الأطعمة ، ووصل الامر الى اعطائه طعاماً لا يمكن أن يؤكل ولا أن يعاش به . وكانت عودته في هذه المرة الى دار عمه أيضاً ، حيث جمع ثانية عصابة من رجال عمه وارتقى جبل ببشتر ، وطرد من كان القائد وضعه فيه وسبى منه جاريته وتزوجها . وكانت هذه أم ولده الاكبر سليمان ، الذي تابع ثورته بعد مماته . وبعد عودة ابن حفصون دخلت ثورته في مرحلة القوة والتعاظم .

مرحلة التوسع لحركة ابن حفصون

(٢٧١ - ٢٧٨ هـ / ٨٨٤ - ٨٩١ م)

خلال سبع سنوات ، استطاع عمر بن حفصون أن ينقلب من قاطع طريق ، الى زعيم حركة أوشكت أن تصل به الى مرتبة الرجل الأول في الاندلس ، وذلك بفعل ظروف مواتية أحسن استغلالها لحد كبير .

الظروف المحيطة بتوسع الحركة

١ - القاعدة المنيعة

اتخذ ابن حفصون منذ البداية قاعدة انطلاق له حصن ببشتر Bobastro ، الذي اختلف الباحثون على تحديد مكانه الحالي[1] .

ويهمنا في هذا الحصن أكثر من تحديد مكانه بالضبط توفر أسباب المنعة فيه فهو موغل داخل الجبال لا يمكن الوصول الى منطقته الا عبر خوانق جبلية وعرة ويستدل من الروايات التي تصف مسير بعض الحملات اليه ، أن بعض هذه الخوانق لا تسمح بمرور أكثر من اثنين أو ثلاثة معاً[2] . تحتوي هذه المنطقة ، عدا عن حصن ببشتر ، على حصون أخرى وقرى متعددة غزيرة المياه وفيرة الاشجار والثمار ، الامر الذي يجعل

---

١ - يرى Simonet في كتابه Historia de los Mozarabes, p. 513, nota 4. انه Parauta الحالية ، على بعد ١٠ كم جنوب شرق رندة . بينما يعرفه Dozy. R. في كتابه Recherches..., p. 321 ysigs ، بانه Iznate على بعد ٥ كم الى الشمال الغربي من بليش (حالياً Velez de Malaga) . وأخيراً يرى Joaquin valvés في بحثه De nuevo sobre Bobastro. Al-Andalus, vol. XXX,Fasc. I. 1965, pp. 139-174 بانه Cortijo de Auta الحالية ، الواقعة الى الشمال من الموقع الذي افترضه دوزي .

٢ - المقتبس ، تحقيق ملشر ، ص ٩٩ .

المجاعة لا تهدد الممتنعين بها . أما الحصن ذاته فهو على صخرة ذات مياه كثيرة تقطع الحجر ، مما يجعل انحدار الصخرة على ما حولها عمودياً ومنقطعة . ولا يمكن الوصول الى أعلاها الا من بابين يوصل اليهما من شعب لا يستطيع أن يسلكه الا راجل واحد خفيف ويعبر الحميري عن انقطاع هذا الحصن بقوله « كان حصناً تزل عنه الابصار فكيف الاقدام »[1] .

٢ ـ مهارته في جمع الناس حوله

افلح ابن حفصون بجمع فئات متعددة من الناس حوله ، وذلك بتمنية كل فئة منهم بتحقيق ما تحلم به وازالة ما تشكو منه . كانت أول فئة جلبها عصابات قطاع الطرق الكثيرة العدد في المناطق الجبلية التي تجاوره ، فقد كان يمنيهم بفتح البلاد وغنائم الاموال ، وهو أمر حقق لهم منه الكثير . كما كان سلوكه الشخصي يجعله ذا جاذبية خاصة لهم ، فعدا عن شجاعته وتقدمه للصفوف في المعارك ، كان متواضعاً متحبباً لهم يكرم الشجاع منهم حالاً ويسوره باسورة الذهب . أما بقية الناس في المنطقة ، وكانوا يقاسون من اضطراب حبل الامن عندهم وعجز حكومة الامير عن توطيده ، فقد حقق لهم ابن حفصون ما يريدون عندما تزعم هذه العصابات ووجه نشاطها نحو الخارج ، مما أفسح له المجال لتوطيد الامن . ولم يتوان لتحقيق النظام ، ضد أفراد اعتادوا على الخروج عنه باستمرار ، من استخدام القسوة فكانت العقوبة هي السيف وبسرعة ودون مماطلة بالبحث عن الادلة ، فالشكوى من الرجل والمرأة والصبي كافية للحكم دون أي شاهد ، وكانت النتيجة رائعة حتى انه شاع : ان المرأة في أيامه كانت تجيء بالمال والمتاع من بلد الى بلد منفردة ، لا يعترضها أحد من خلق الله[2] .

---

١ ـ الروض المعطار ، ص ٣٧ .
٢ ـ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١١٤ ـ ١١٥ .

٣ ـ استغلال عصبية المولدين في الكور المجندة

يلاحظ في حركات المولدين في الثغور انها موجهة ضد الامير بالدرجة الاولى وكان الخلاص من سلطانه غايتها ولـذا انضم اليها أناس من غير المولدين كان بينهم البربر في بعض الاحيان وهم عنصر فاتح • أما في الكور المجندة فتدل الشواهد على وجود عصبية مولدية معادية للعرب قابلها العرب بعصبية مماثلة تبادلها الكراهية والتحاسد ، ويترجم ابن الفرضي لشخصية مولدية في اشبيلية ويقول عنه انه ملأ اشبيلية علماً وبلاغة ولسناً ، حتى شرقت به العرب فلما حدثت الثائرة بين العرب والمولدين قتله العرب »[١] •

أسباب ظهور العداء بين العصبيتين

لا ريب ان معاداة المولدين للعرب كانت عامـة الا انها ظهرت على أشدها في الكور المجندة ويمكن تفسـير ذلك ، بأن العرب المسيطرين في هذه الكور كانوا من الجند ، الذين اتوا في أوائل القرن الثاني الهجري من المشرق ، حيث كان العرب يعيشون أوج أيام قوتهم وأمجادهم ، مما جعلهم يحتقرون غيرهم ، وقد عبر هؤلاء بأجلى بيان على لسان الصميل بن حاتم أحد زعمائهم خلال تعقيبه على الآية الكريمة « وتلك الايام نداولها بين الناس[٢] ••• » بقوله ما أظن الا أن هذا الامر سيشاركنا فيه الاراذل والسفلة ، معتبراً أن هؤلاء هم الاعاجم واذا كان الصميل يمثل لنا موقف هؤلاء الجند في عصر الولاة ، فان الشواهد تدل على استمرار هذه العقلية حتى العصر مـدار بحثنا ، اذ يعتبر شاعر العصبية العربية المولدين عبيداً عندما يقول :

ورثنا العز عـن آبـاء صـدق وارثهـم بني العبدان ذلّ

وربما كانوا يعاملونهم أيضاً معاملة الموالي في المشرق من ناحية ارجالهم

---

١ ـ ابن الفرضي ، تاريخ ج ١ ، ص ٢٥٥ ، ت ٦٤٩ •

٢ ـ افتتاح الاندلس ، ص ٦٣ •

عن الخيـل واعلاء العرب عليها ، لأن المولدين سيقومون في المناطق التي سيسيطرون عليها بعملية معاكسة[1] . عدا عن هذا العامل النفسي الذي يدور حول احتقار العرب للمولدين هناك عامل اقتصادي ، كان يعمل عمله منذ نزول الجند في الكور أيضاً ، ولفهم هذا العامل جيداً لا بد من العودة الى أصوله . فرّق أبو الخطّار الجند على ست كور دعيت بالكور المجندة باشارة ارطباس (أحد أفراد العائلة المالكة القوطية التي انتزع لذريق الحكم منها قبل أن يهزمه العرب . وبعد الفتح أصبح ارطباس أول قومس لاهل الذمة) وأعطاهم ثلث أموال أهل الذمة[2] ، ومثل هـذا التدبير مع الجند الوافدين الى أرض شبه الجزيرة ، ربما اقتبسه ارطباس من الماضي البعيد للقوط عندما أتوا كقبائل الى الاراضي التي كان يحكمها الرومان ومنها بعض الاراضي الاسبانية فانزلوا فيها بموجب مبادىء ما يسمى في القانون الروماني، الضيافة . أو النزالة Hospitalitas ، الذي يقضي بأن ينزل كل واحـد من الجرمن على ساكن من السكان ويحق له ثلث ملكية المضيف ، فيبقى الثلثان للمالك « Tertias » [3] .

وقد أصبح القسم المخصص لهؤلاء الجند Parcella ، الذي أصبح عند المستعربين Parchila ، وبرجلة عند العرب وجمعها براجلة[4] وأصبح علماً لتلك الاراضي وللعاملين فيها . كان هذا العمل أمراً لا يثير الاحتجاج لانه بمثابة ضريبة ، ومع تقدم الزمن كان الناس يدخلون في الدين الاسلامي، لكن الجند لـم يتخلوا عن امتيازهم القديم ويأخذوا التطور الجديد بعين الاعتبار .

تجلت نقمة المولدين على العرب في مهاجاة كلامية لهم . كانت تظهر

---

١ ـ ابن حيان : المقتبس ، ص ٩١ .

٢ ـ ابن الخطيب : الاحاطة ، تحقيق عنان ، رواية ابن حيان ص ١٠٩ .

٣ ـ M. Torres Lopez : Historia de España visigoda, p. 150-152.

٤ ـ Simonet, Glosario..., pp. 34-35.

سافرة مباشرة ، عندما يطلقها أناس لا يحتلون مراكز في الدولــة ، على ما يظهر ، ويورد لنا كتاب تراجم العلماء في ثنايا بعض تراجمهم لمولدين مشهورين في مضمار العلم ، ذكراً لبغض هؤلاء للعرب وحفظهم لمثالبهم[1] • ويمكن معرفة ماهية هذه المثالب المحفوظة ، من رسالة الفت في الاندلس بعدما يقرب من قرنين من العصر مدار بحثنا[2] • ويلاحظ فيها أن أغلب المثالب التي حفظها هؤلاء المولدون للعرب ، مأخوذة مما كتبه أو نظمه أورواه شعوبيو المشرق ، وركزوا فيه على ذكر العيوب المرتبطة بحياة العرب في الجاهليــة من حقارة مأكلهم وملبسهم ومسكنهم ، واختــلاط أنسابهم ، وافتقادهــم لأي مجد سياسي أو فكري • ولا ريب أن مولدي الاندلس تعرفوا عليها من الكتب المنقولة نصاً أو رواية والواردة من المشرق ، ككتب الجاحظ وفي الاشــعار كشعر بشار بن برد ، وشعر هجاء القبائل العربية لبعضها ، وفي مؤلفات هذه الفترة ما يثبت ذلك •

أما ذم العرب واعلاء شأن المولدين فيظهر بشكل غير مباشر عند أدباء وفقهاء ، كانت لهم مكانتهم في بلاط الامير أو بلاط بعض سادة ذلك العصر ، كابن عبد ربه الذي كان يمدح الامراء الامويين محمد والمنذر وعبد الله وابن حجاج أمير اشبيلية ، ثم محمد بن لبابة ، الذي دارت عليه الفتيا في القسم الاعظم من امارة الامير عبد الله[3] •

يمكن اثبات تهجم ابن عبد ربه على العرب ، بتطبيق المقياس ، الذي وضعه في مقدمة كتابه للحكم على الاشخاص ، عليه • اذ يقول فيه ان المرء يعرف باختياره واذا نظرنا الى مختاراته في كتابه العقد الفريد الذي يشمل كل فنون الادب بمفهوم ذلك العصر ، نجد نسبة كبيرة من شواهده الشعرية

---

١ ـ ابن الفرضي ، ج ١ ، ت ١٠٣٧ •

٢ ـ احمد مختار العبادي ، الصقالبة في اسبانيا ، رسالة ابن غارسية •

٣ ـ أنظر : المقتبس ، تحقيق ملشور ، ص ٣ ، ١٢ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٩٧ ، ١٠٠ و ٧ ، ٨ ، ٤٧ •

في كل أجزاء الكتاب تقريباً تتعلق بمثالب قبائل عربيــة ، وعندما يعرض حجج الكتاب الشعوبيين ورد الكتاب العرب عليهم ، لا يعلق بشيء على حجج الشــعوبين بينما يعلق عــلى حجة العرب مبينــاً ضعفها[1] . أما محمد بن عمر بن لبابة ، الذي كان فقيهاً كبيراً ، فقد عرف بالاضافة لذلك بأنه « كان حافظاً لأخبار الاندلس ملياً بها[2] » وقد حفظ لنا بعضها تلميذه ابن القوطية في كتابه افتتاح الاندلس . ويلاحظ فيها تغنياً بعظمة المولدين الحاضرة ، كالقول بأن المولدين كانوا يقولون عن الثائر السرنباقي ، شريك ابن مروان الجليقي ، السرور الباقي ، واظهار ابن مروان الجليقي بمظهر من ينذر الامير محمد ويتوعده فيرضخ الامير لمطالبه . كما تذكر هذه الاخبار ماضي أجداد المولدين الناصع وفضلهم ، الذي استمر منذ الفتح ، على العرب . وتجلى بأجلى مظاهره في أعمال أول قومس للأندلس ارطباس بن غيطشة ، الذي أحاطته هذه الاخبار بهالة من المجد ، هي مزيج من الحكمة والحنكة الادارية والثراء المالي والسمو الانساني . فهو الناصح لبعض الولاة بحلول ناجعة خلصتهم من مشاكل عويصة كانت تواجههم . وهو الغني الثري ، الذي قصده زعماء العرب الشاميين ، وهم أسمى العرب مرتبة ، كي ينالوا رفده . كما أن عبد الرحمن الداخل ذاته أدركته الغيرة من ضخامة ثروته وكثرة أتباعه ، مما دعاه لمصادرة ضياعه ، ولم يرد له بعضها الا مقابل نصائح ثمينة تساعده على توطيد ملكه وتوريثه لولده . وأخيراً يحاول ابن لبابة أن يلطف الشائبة التي تشوه الصورة الرائعة التي يرسمها لارطباس أمام أعين معاصريه ، وهي انه لم يكن مسلماً ، لكنه كان مع ذلك يرفع مكانة العباد الزهاد المسلمين الى أعلى المراتب ، ويسلك تجاههم المسلك ، الذي أمر به القرآن الكريم وأوصى به المسيح بآن واحد[3] .

---

١ ـ أنظر : احمد بن محمد بن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٣١٢ ـ ٤١٢ .

٢ ـ ابن الفرضي ، ج ٢ ، ت ١١٨٩ .

٣ ـ أنظر : افتتاح الاندلس ، ص ٢٨ ، ٦٠ ـ ٦٣ ، وأنظر كذلك

J. Ribera, Disertaciones y Opusculos, T. I, pp. 119-129.

استطاع ابن حفصون جلب المولدين نحوه مستغلاً نقمتهم ، التي تجلت بالشكل الذي أوضحناه • وكان في جملة ما أعلنه « طال ما عنف عليكم السلطان وانتزع أموالكم وحمّلكم فوق طاقتكم وأذلتكم العرب واستعبدتكم ، وانما أريد أن أقوم بثأركم وأخرجكم من عبوديتكم »[1] • وعندما بدأ يحرز الانتصار تلو الانتصار على جيوش الامير ، ويذل العرب في المناطق التي يسيطر عليها ، انتقل المولدون من الكلام في محاربة العرب الى السيف •

٤ ـ التبدل السريع في الامراء خلال السنوات التي تلت هربه

في خلال السنوات الأربع التي تلت هرب ابن حفصون من بلاط قرطبة ، والتي أوشك بعدها على احتلال مركز الرجل الاول في الاندلس ، تعاقب على عرش الامارة ثلاثة أمراء • وكان كل تغيير جديد يقتضي من الامير الجديد صرف قسم من وقته ، لتدبير أمر بيعته في العاصمة واجراء التعديلات والتبديلات في مناصب الدولة • وأدى هذا الامر الى عدم استمرار الجهود المبذولة لخنق عصيان ابن حفصون قبل استفحاله • ويلاحظ ذلك واضحاً في سير العمليات ضده خلال هذه السنوات الأربع •

طبق الثائر ابن حفصون منذ مطلع هذه الفترة السياسة المعروفة لكل ثوار المناطق الجبلية في التاريخ الاندلسي ، وهي خطة الانكماش داخل المعقل الحصين عند ارسال الامير لحملة ، والعودة بعد رجوعها لبسط سلطانه على مناطقه السابقة ، ونشر الغارات في الاراضي المجاورة لها • قاوم بهذه الطريقة حملات الامير محمد ، الذي لم تتح له من العمر بقية يتمكن خلالها من استخدام خطة معاكسة ، اذ توفي بعد أقل من سنتين[2] • وعندما جاء المنذر لاحق الثائر الى حصنه وضيق حوله الحصار ، مما جعله يلجأ للحيلة كي يتخلص من هذا الخطر الداهم ، فعرض الاستسلام والعودة

---

١ ـ ابن عذاري ، ج ٢ ص ١١٤ •

٢ ـ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١٠٤ ـ ١٠٦ •

مع الامير الى بلاطه كي يعيش هناك ، ويصبح من خاصة جند الامير له رزق معلوم ، وأن يلحق أولاده بالموالي • فأرسلت اليه مائة دابة مع مائة وخمسين فارساً كدلالة على الاكرام عند الاستسلام • وبـدا أمام الجميع أن مهمة الحملة قد انتهت فانفرط عقدها • واستغل ابن حفصون ذلك الوضع فقبض على الفرسان واستولى على الدواب وما عليها ، مما يساعده على الصمود أمداً أطول • تجاه هذه الخديعة أقسم المنذر على قصده من جديد وألا يتركه قبل أن يلقي بيده اليه مستسلماً ، لكنه بعد ثلاثة وأربعين يوماً من حصار ابن حفصون أصيب بمرض ، فاستدعى أخاه عبد الله كي ينوب في العملية عنه ، وتوفي بعيد وصـول أخيه[1] • وكانت مدة امارته أقل من سنتين • وبعد موته انحل الجيش • عاد الامير الجديد الى قرطبة واضطر كسباً للوقت الذي ينظم فيه أموره لمسالمة عمر بن حفصون واعتبره سيداً لكورة رية • لكن الثائر الذي أعلن الموافقة على الاتفاق نقضه دون اعلان ، وبدأ بنشر الغارات في الكور المجاورة • اضطر الامير لارسال حملة ضد الثائر فهزمت، وأتبعها بأخرى فلم يكن حظها أفضل من حظ سابقتها • عند ذلك ظهر اندفاع المولدين نحو ابن حفصون ابن جلدتهم الذي قام ليثأر لهم ويخلصهم من عبودية العرب لهم على حد قوله ، واتبع قوله بالفعل خلال العمليات التي قام بها • فخلق انضمام المولدين له ظرفاً مواتياً لأقصى حد كي تصل حركة ابن حفصون الى أوج قوتها[2] •

٥ ـ تمزق سلطان الامارة في عهد الامير عبد الله

انضم مولدو الكور المجندة لدعوة ابن حفصون وتبعهم أهل الذمة فأصبحوا ألباً واحداً ضد العرب والامير معاً • وثبت عجز الامير عن الوقوف بوجههم مما اضطر أفراد الفئات والعناصر الأخرى في المجتمع الاندلسي للتكتل ، والانضواء تحت راية زعيم منهم يحميهم في حصن أو مدينة •

---

١ ـ المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٧ ـ ١١٩ •

٢ ـ المقتبس ، تحقيق ملشر ، ص ، ٥٠ ـ ٥٤ •

كان على رأس المتكتلين العرب في الكور المجندة ، ثـم بربر هذه الكور وموالي الامويين • واستقلت كل كتلة عن السلطان ، ما دامت استلمت أمر الدفاع عن نفسها ، وأخذ هذا الاستقلال أشكالاً مختلفة ، فبعضها استقل عن الامير مع العداء له كما هو حال المولدين ، وبعضها الآخر استقل دون معاداة ، واعترف بتبعية اسمية للأمير ، مع دفع كمية من المال متفق عليها له في بعض الحالات ، ويعبر ابن حيان عن وضع هؤلاء باصطلاح : الاستمساك بالطاعة مع التعزز على العمال •

لم تلبث الثغور أن حذت حذو الكور المجندة ، اذ كان بعضها ثائراً على السلطان قبل هذا الوقت كبني قسي في تُطيلَة وطرسونة ، والشيء الجديد الآن هو استقلال تلك الأسر التي اصطنعها الأمراء الأمويون في الثغور وبنوا لها المدن والمعاقل لتقاوم أو تهاجم الثائرين كبني ذي النون من بربر هوارة في شنتبريـة وبني تجيب في سرقسطة ونواحي الثغر الاعلى الذين أصبحت تبعيتهم للأمير اسمية محضة[1] •

جمعت هؤلاء المتنزين سـواء في الكور المجندة أو في الثغور صـفة واحدة وهي الاستقلال عن سلطان الامير • وفيما عدا ذلك تمايزوا عن بعضهم من ناحية اتساع السلطان ، فلم يكن بعضهم أكثر من قاطع طريق على رأس عصـابة كذلك الجندي الذي كان مـن حشم السلطان ثم فر وتحصن بأحد الحصون ، بعد أن جمع حوله عصابة وصار يغير بها على الجوار[2] • بينما أنشأ بعضهم كابن مروان في بطليوس وابن حفصون وابن حجاج ما يشبه الدولة ، التي كان لها من الامكانيات ما يعادل امكانيات مابقي للأمير من دولته ، أقاموا فيها جهازاً ادارياً يحاكي جهاز الامير في قرطبة من ناحية التعقد وشموله لمجالات الادارة والامن المتعددة • ونظراً لتجاور المتنزين الصغار والكبار ، اقتضت ضرورات الدفاع والعصبية عند المتنزين ،

---

١ ــ المقتبس ، تحقيق ملشر ، ص ١٦ ــ ٢١ •

٢ ــ المصدر السابق ، ص ٢٥ •

وخاصة في الجنوب قيام تحالفات وروابط تبعية • وأهم هذه التحالفات تلك التي قامت بين المولدين الذين شملتهم ما سميت بدعوة المولدين أو عصبية المولدين ، والتحالفات التي قامت على مقياس أضيق بين القائمين بدعوة العرب ، أو عصبية العرب •

عصبية العرب

ظهرت حركة هذه العصبية كرد فعل على تكتل المولدين وأهل الذمة حول ابن حفصون وتهديدهم للعرب • وانتقلت الحركة الى مجال العمل في مركزين ، أحدهما في البيرة التف حولها العرب من كور الجزيرة الخضراء وجيان ، وفي بعض الفترات جميع العرب الذين يعيشون شمال المنطقة السابقة حتى قلعة رباح ، حيث تعيش قبائل بكر بن وائل • أما المركز الثاني فكان في اشبيلية ، ولم يقم اتصال بين المركزين ، كما ان اتجاه الحركة لم يكن واحداً ، من ناحية صفاء الحركة العربية وبعدها عن العصبية القبلية ، والموقف من الامير وزعيم الثائرين عليه ابن حفصون •

حركة العصبية العربية في البيرة

تتميز حركة العصبية العربية بتركيز عدائها على المولدين ، وعدم معاداتها للأمير ، حتى أن خصوم أحد زعمائها ، نسبوا اليه ، عندما رغبوا في تشويه سمعته ، أبياتاً من الشعر ضد الامير :

قل لعبد الله يشدد في الهرب	نجم الثائر من وادي القصب
يا بني مروان خلّوا ملكنا	انما الملك لأبناء العرب[1]

كما انها خلت من شوائب العصبية القبلية وروح البغضاء بين قيس ويمن ، وهكذا نرى شاعرهم عندما يفتخر بانتصار احدى حملاتها ، يشير خلال ذلك الى تضامن جذمي العرب الاساسيين فيها قيس ويمن •

---

١ ـ المقتبس ، تحقيق ملشر ، ص ٣٠ ، ابنسعيد ، المغرب من حلى المغرب ، ج ٢ ، ص ١٠٥ •

بهــا من بني عدنان فتيان غارة ومن آل قحطان كمثل الأجادل[1]

وربما كان مرد ذلك الى شعورهم بخطر المولدين من جراء تفوقهم العددي ، خاصة وانهم يعيشون في بؤرة الدعوة المولدية وبجوار زعيمها ابن حفصون ، واذا اعتبرنا أقوال شعرائهم معبرة عن الرأي السياسي السائد بينهم ، نرى أنهم كانوا يعتقدون بقدرتهم على الوقوف في وجه هذه الاخطار بالثقة بأنفسهم رغم قلتهم العددية •

أنتم قليــل كثــير في عنائكم وغيركم قلل فيكم وان كثروا

وكذلك بتوحيد صفوفهم وخاصة انهم في بلد ناءٍ عن مركز العرب الاصلي ويحرضهم شاعرهم على ذلك بقوله :

يا أيهـــا العرب النائي محلتهم أنتم نيــام ومن يشنأكم ســهر
ما عيش عدنان دون الحي من يمن أو عيش ذي يمن قد خانها مضر
ان السهام اذا ما فرقت كسرت وان تجمعن تبقى ليس تنكسر[2]

بدأت أحــداث النزاع بين العرب والمولدين في كورة البيرة بتكتل المولدين مع من بقوا على دينهم من أهل جلدتهم ، وانضوائهم تحت راية الدعوة المولدية التي يتزعمها ابن حفصون • ورد العرب المقيمين بناحية البراجلة في نفس الكورة بالالتفات حول زعيمهم يحيى بن صقاله ، الذي تحصن معهم في حصن منت شاقر Montejicar الذي بنوه • هاجم المولدون هذا الحصن واستطاعوا احتلاله وقتل الكثيرين ممن كانوا فيه ، وغادر يحيى بن صقاله مع من بقي معه الى حاضرة البيرة حيث كان بينه وبين أهلها المولدين موادعة وأماناً أقسموا عليــه بأغلظ الايمان ، لكنهم غدروا بــه وقتلوه • فر من بقي من جماعة ابن صقاله ونصبوا سواراً بن حمدون المحاربي[3] ، الذي جمع حوله العرب من كورة رية وجيان بالاضافة الى كورة البيرة ذاتها ،

---

١ ــ المصدر السابق • ص ٥٨ •

٢ ــ المصدر السابق ص ٦٤ •

٣ ــ أنظر : الاحاطة ، مخطوط الاسكوريال ، ص ٣٦٤ •

واتخذ لنفسه حصن غرناطة كمعقل • ثم بدأ بعملية الثأر فاسترجع حصن مُنْتْ شاقر وقتل من فيه من المولدين وأهل الذمةواتبع ذلك بالطواف على حصون المولدين ومنازلتها الواحد بعد الآخر وغلب على أكثرها •

بعد فشل المولدين بالوقوف في وجه سوار لجؤوا الى عامل الامير علّه ينقذهم ، واستجاب العامل لهم الا أنه هزم أمام سوار وأسر ، ثم أطلق سراحه ، وذاع صيت سـوار بعدها فكاتبته العرب حتى قلعة رباح مقر بكر بن وائل ، وازداد بذلك قوة على قوة ، مما دعا المولدين لطلب حماية الامير ، الذي حقق لهم الامن بمخاطبة سوار وارسال عامل جديد الى الكورة على أساس ادارة الكورة بالاشتراك معه •

استجاب سوار لرغبة الامير ، فكف عـن مولدي حاضرة البيرة ، وصرف نشاطه الحربي لمهاجمة الحصون ، الداخلة في طاعة ابن حفصون ، فنقض مولدو حاضرة البيرة العهد بسبب ذلك وهاجموا سواراً فقتل منهم مقتلة عظيمة ، ولم تفدهم استغاثتهم بابن حفصون لان سواراً استطاع هزيمة هذا الثائر الشهير في الموقعة التي جرت بينهما • فاضطر ابن حفصون لمغادرة المدينة بعد أن أغرم سكانها الكثير من الاموال وترك عليها عاملاً من قبله • واستطاع هذا العامل قتل سوار بالحيلة عام ٢٧٧ ، وحملت جثته الى المدينة حيث مُثل بها أشنع تمثيل[١] •

نصب العرب لزعامتهم سعيد بن سليمان بن جودي[٢] صديق سوار ، لكنه لم يسد مكانه ولا بلغ مداه في السياسة ، فدب التفرق بينهم حتى انه قتل غيلة بيد أحد أصحابه في ذي العقدة من سنة ٢٨٤ هـ / كانون أول ٨٩٧ م وصادفت فترة موته استعادة الامير الاموي لبعض قوته ، لذا خضع له زعيم عرب البيرة الذي تلاه محمد بن الهمذاني[٣] •

---

١ ـ الحلة السيراء ، ج ١ ، ص ١٤٧ ـ ١٥٤ •

٢ ـ الاحاطة ، مخطوط الاسكوريال ، ص ٣٦٦ •

٣ ـ المقتبس ، تحقيق ملشر ، ص ٣١ و ٦١ •

حركة العصبية العربية في اشبيلية

عندما شبت نار العصبية في الكور المجندة عام ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م بدت على مسرح الاحداث في اشبيلية ثلاث قوى • أولاها وأكثرها عدداً وأعظمها ثراء قوة المولدين وتقاسم ادارة شؤونهم ١٢ رئيساً ، وتليها قوة العرب وتتمركز قوتهم في ضواحي المدينة لا في داخلها واحتلت عائلتا بني الحجاج وخلدون مقام القيادة ، ومع ذلك كانت السيطرة في هذا الوقت على اشبيلية بيد فئة ثالثة حيادية تجاه العصبيتين وموالية للأمير •

كان العرب في اشبيلية ، شأنهم في ذلك شأن العرب في الكور المجندة الاخرى ، يشعرون بقلة عددهم بالنسبة للمولدين ، وعلى الرغم من ذلك سار زعماؤهم وخاصة كريب بن خلدون ، بدافع من عداوتهم للقرشيين وللأمير الاموي ، ورغبتهم في السلطة ، بحركة العصبية العربية نحو الاقتصار على عصبية اليمانية ونحو العداء للأمير الاموي في المقام الاول •

خطا زعماء العصبية العربية أول خطوة لهم ، بالخروج من اشبيلية الى الضواحي ، بعدما أدركوا استحالة العمل فيها آنذاك ، نظراً لقوة أتباع الامير الاموي • تحالفوا مع البربر البرانس في المناطق المتاخمة لاشبيلية كشذونة ولبلة ، واستثاروا طمع هؤلاء البربر وثوار منطقة ماردة من المولدين ، بأشبيلية وسهولة الحصول على الغنائم والثروة منها لضعف امكانيات الدفاع ، وبهذا أصابوا أعداءهم المولدين بغير أيديهم • ثم بدأ حلفاؤهم البربر بقطع الطرق حول اشبيلية •

رد المولدون بالتحالف مع المضرية والبربر البتر ببناء حصن خارج اشبيلية بموجب موافقة من الامير لمحمد بن احد زعمائهم ، الذي تعهد بأن يقضي على أعمال السلب وقطع الطرق خارج اشبيلية ويجعل الطريق من قرطبة الى اشبيلية آمناً • هاجم بنو خلدون وبنو حجاج مع أتباعهم وحلفائهم الحصن ففشلوا في احتلاله وقتل أحد أفراد بني الحجاج • فاستغل زعماء العصبية

العربية هذا الحادث وطالبوا انصافهم من زعيم المولدين ، وعندما ماطل الامير في الرد احتلوا قرمونه ووعدوا بالتخلي عنها عندما ينصفون ، واضطر الامير للتضحية بمحمد بن غالب المولدي ، في سبيل تهدئة الموقف ، وهكذا أرسل أحد قواده وكلفه بمهمة قتل المولدي واسترجاع قرمونة فنفذ القائد ما كلف به .

ثارت ثائرة المولدين في اشبيلية ، وكانوا أكثرية ، لما حل بزعيمهم وكان واليهم أخاً لقاتل زعيمهم ، فحاصروه في القصر مع ابن للأمير يقيم معه ، وجاء الجيش الذي نفذ قائده عملية القتل منجداً للمحاصرين وبدأت اثر وصوله مذبحة راح ضحيتها الوف من المولدين ، وبذلك أتيح لزعماء العصبية العربية التخلص من قوة المولدين في اشبيلية ، ولم يبق أمامهم الا قوة الامير الاموي .

قام عامل الامير على اشبيلية بتقريب زعماء العصبية العربية ظاهراً ، الا انه كان يدبر سراً للتخلص منهم الواحد بعد الآخر ، ونجح في قتل عبد الله بن حجاج شيخ بني الحجاج ، وحاول بعد ذلك الايقاع بين كريب بن خلدون وابراهيم بن حجاج الذي خلف أخاه في زعامة العائلة . لكن الطرفين تعاضدا ضده واستطاعا قتله ، وبعثا الى الامير عبد الله بطاعتهما متهمين الوالي القتيل بالخروج عن طاعته ، وبما أن الامير كان عاجزاً عن عمل أي شيء ضدهم . تظاهر بالتصديق ، وصار يبعث الى اشبيلية بالعامل تلو العامل ، ليبقى ألعوبة بيد زعماء العصبية العربية الذين سيطروا على المدينة[1] .

عصبية المولدين

تجاه هذين المركزين للعصبية العربية ، كان لحركة العصبية المولدية ثلاثة مراكز ، تكون كل مركز من عدد من الثوار المولدين . في الشرق كان ديسم بن اسحق على رأس الثوار المولدين في منطقة تدمير ، وفي

١ ـ انظر تفاصيل أحداث اشبيلية في : المقتبس ، تحقيق ملشر ، ص ٦٧ ـ ٥٨ .

الغرب انتشرت حصون المولدين العصاة بين بطليوس والمحيط الاطلسي غرباً وكان زعماؤهـم أعضاء حلف يتزعمه ابن مروان الجليقي صاحب بطليوس ، وفي الوسط كان كبير المولدين عمر بن حفصون الذي انبسط سلطانه اما مباشرة أو عن طريق الثوار التابعين له ، من البحر في سواحل الجزيرة الخضراء وريّة والبيرة حتى جيان وحدود قرطبة .

موقف الامير عبد الله تجاه العصيان

بعد أن يعدّد ابن حيان أكثر من ثلاثين ثورة ضد الامير عبد الله ، يقول « شذت منهم أسماء زعانف من أو شاب منهم وأتباع لهم ، سلكوا في الخلاف سبيلهم ولم يبلغوا شأوهم فأعرضنا عنهم لقمأة أحوالهم[1] » . وفي هذا دلالة على مدى اتساع الانتقاض على الامارة الاموية . وكانت تجمع هؤلاء العصاة صفة الثورة على الامير الا أن قسماً منهم قنع بالاستقلال بما في حوزته ، بينما لم يكتف الفريق الآخر بذلك ووضع نصب عينيه التوسع على حساب ما بقي للأمير مطيعاً .

تجاه هذا الوضع صار الامير يكتفي بأي شكل من أشكال الخضوع حتى ولو كان اسمياً . فمن تغلب على منطقة من المناطق وطلب من الامير تعيينه وافقه على ذلك ، ومن هؤلاء من كان يهاجم بعض المناطق الموالية له ، فيغضي الامير عن ذلك ، كما هو حال ابن مروان الجلّيقي الذي طلب من الامير عبد الله بعد توليه بعام واحد الموافقة على توليته على الثغر الادنى الواقع بحوزته ، فوافق الامير على ذلك وأغضى عنه عندما هاجم المنطقة المحيطة باشبيلية[2] . ولعل أقصى تعبير عن الطاعة طمح له الامير عبد الله أن يؤدي له أولئك المستقلون بمقاطعاتهم قطيعاً معيناً من العشور (أي كمية من المال

---

١ ـ أنظر المقتبس ، تحقيق ملشر ، ص ٨ ـ ٣٣ .
٢ ـ المصدر السابق ، ص ٥٣ و ٦٩ .

يتم الاتفاق عليها) ، وقد اشتهر في عهده ديوان دعي بديوان القطع[1] •

وتجاه الثائرين الذين يريدون التوسع كان الموقف البارز موقف الدفاع ، ففي مناطق عصيان المولدين التابعين لابن حفصون أو حلفائه ، حاول تمكين الجماعات التي بقيت على الطاعة وأغلبها من العرب ، من الدفاع عن نفسها وذلك ببناء الحصون لها • وكان عليه أيضاً تأمين الدفاع عن المعقل الكبير الوحيد الذي بقي وهو العاصمة قرطبة ، اذ أن ابن حفصون سيطر بسرعة ، وخاصة بعد قتله لسوار زعيم العرب في المنطقة الوسطى من الكور المجنّده ، على أكثر وأهم الحصون جنوب الوادي الكبير ، أي أصبح مجاوراً لقرطبة وزادت من قوته تحالفاته مع زعماء المولدين في شرق وغرب الاندلس • وهذا ما جعل مسعى الامير عبد الله في الدفاع عن عاصمته أمراً في غاية الصعوبة ، وذلك لضعف موارده المالية والبشرية ، اذ أن استقلال كل نواحي الاندلس تقريباً قلّل الواردات على خزينة قرطبة ، وأصبح الامير غير قادر على الانفاق على جيش كبير فانفصل عنه قسم كبير من الجند ، ثم اضطر لخفض مخصصات من بقي عنده منهم[2] • وساءت الاحوال أكثر عندما أضيف لضعف امكانيات الدفاع عن العاصمة ، تحرك أهل الذمة فيها ضد الامير •

انقسم أهل الذمة في قرطبة منذ أواسط عصر الامارة الى حزبين : قسم متطرف خرج منه المستخفون ، وقسم معتدل موالٍ للأمير ، وعلى ما يظهر ، كان هذا الحزب يضم الكثيرين من المنافقين الذين بالغوا في اظهار الولاء للحصول على المزيد من المغانم • ومن الطبيعي أن يقلبوا الآن ظهر المجن للأمير ، الذي ضعف موقفه ويتجهوا الى ابن حفصون ، الذي بدأ نجمه بالصعود •

---

١ ـ ر • دوزي ، ملحق القواميس ٢/٣٧٢ •

٢ ـ الاخبار المجموعة ، ص ١٥١ •

موقعة حصن بلاي

قاد أهل الذمة في قرطبة ضد الامير رأس هؤلاء المنافقين في الحزب المعتدل شربند بن حجاج • (أو ابن حسان) القومس Servando ، الذي اشتهر عنه حسب كتابات رؤســاء حزب المتطرفين ، انه كان من المنافقين للأمير ، ولم يتورع ، لكسب ثقته ، عن استخدام أشنع الوسائل • منها نبش قبور بعض المستخفين تحت المذابح وعرضها على الوزراء ، كي يظهر للأمير ميول رجال الدين الكبار ضده وضد المسلمين ، وقــد عبروا عنها بدفن المستخفين بهذا الاحترام • كمــا اتهم كبار رجال الدين من المستعربين في قرطبة بأنهم يشجعون تلاميذهم على القيام بالاستخفاف • واعتبر المتطرفون شربند بأنه من أهم أدوات الامير في اجبار أهل الذمة على الدخول في الدين الاسلامي ، وفي مساعدة الامير لبسط سلطانه على الكنيسة ، وذلك بأخذه الضرائب الفادحة منهم ، مما جعل الكثيرين منهم يدخلون في الدين الاسلامي ، وكذلك فرض أقسى الضرائب على الكنائس حتى تلك التي لا تستطيع أن تدفع لرهبانها ، مما أجبرها على قبول الذين يُدفع لهم من خزانة الأمير[١] •

بدأ هذا الرجل يتقرب من المتطرفين عندما ضعف موقف الامــير ، وأصبح أهل الذمة في قرطبة كتلة واحدة ارتبطت عواطفها بابن حفصون ، وبدأ شربند يدبر لحركة عصيان ، نمي الى الامير خبرها على ما يظهر ، وقبض على ابن شربند (أو أخيه) ، وتمكن هــو من الفرار والاعتصــام بحصن بلّي أو بُلاي (حالياً Aguilar) جنوب قرطبة وعلى بعد مرحلة منها • ويدل احتلاله لهذ الحصن على أن الامير لم يعد لديــه من الجند ما يكفي لتوزيعه كحاميات للحصون • راسل الذمي العاصي من حصنه ابن حفصون ، الذي أمده بعصابات من لدنه ، تساعده في حمايــة الحصن ، وطلب منه القيام بالغارات على احواز قرطبة ، الامر الذي جعل سكانها في حال أهل الثغور المصاقبة للعدو • وعلى الرغم من اخراج الامير عبد الله

---

١ - R. Dozy, Histoire, T. II, pp. 61-62

سرايا خيالة لمواجهته أوقعت به فقتلته مع عدد من أصحابه ، وجيء برأسه الى قرطبة ، الا أن الخطر بقي ماثلاً ، ان لم يتعاظم ، اذ أدرك ابن حفصون قيمة الحصن فبالغ في تحصينه وشحنه بالرجال كي يبقى آخذاً منه بمخنق قرطبة • استمرت الغزوات على الاراضي المحيطة بقرطبة ليلاً ، ووصلت جرأة بعضها أو بالاحرى استهانتها بقوة الامير الى التوغل حتى نقطة على الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير يقابلها على الضفة الاخرى من النهر قصر الامير ذاته •

أدى هذا الوضع الى سوء الاحوال في قرطبة فتعطلت أسواقها وغلت فيها الاسعار ، وانعكس ذلك على الامير بالذات اذ أفسدت عليه سكانها المسلمين ، فقام بعض الفقهاء ، وقد بدا سقوط قرطبة وشيكاً ، يرجعون السبب في ذلك الى الفسق والمجون والجور الذي ساد فيها ، وأصبح القصر مركزه[١] •

معركة حصن بلاي ونتائجها

تعاظم أطماع ابن حفصون

حاول الأمير عبد الله أن يتخلص مما هو فيه ، بمراسلة ابن حفصون والوصول معه الى ما يمكن الحصول عليه ، الا أن الثائر الذي كان يدرك أوضاع الامير رفض أي اتفاق • وبما أن العاصمة كادت تصبح في قبضته ، بدأ بوضع الترتيبات ليتجاوز ، مرتبة صاحب دعوة المولدين في الاندلس ، ليصبح صاحب الاندلس كلها بدلاً من الامير الاموي ، ولكي يجعل سلطته مقبولة لدى الاندلسيين غير المولدين ، حاول أن يكسو سلطته بثوب الشرعية بالحصول على موافقة الخليفة العباسي •

كاتب ابن الأغلب ، الذي يعتبر من ناحية رسمية أمير افريقية لبني

---

١ _ R. Dozy, Histoire, T. II, pp. 64-65

العباس ، في اعلانه بدعوتهم ولاطفه بالهدايا ، فأجابه ابن الأغلب وكافأه على هديته وطمع فيه[1] •

المعركة

تجاه هذا الوضع وجد الامير عبد الله انه لا مندوحة له عن القذف بكل ما بقي لديه ، لرد عادية ابن حفصون الذي أصبح يهدده في عقر داره• عرض عليه أصحاب شوراه أن يسند القيادة للحملة التي ستولى ذلك لغيره ، فأبى الا أن يقودها بنفسه نظراً لأهميتها في تقرير مصير الامارة الاموية • حشد كل ما توفر له من الجند وعامة الناس والمطوعة والحشم والموالي ، ومع كل ذلك لم يتوفر له حسب الروايات الا ما بين ١٤٠٠٠ الى ١٨٠٠٠ محارب ، مقابل ما يزيد على الثلاثين ألفاً تمكن ابن حفصون من حشدها •

كانت الروح المعنوية لدى الطرفين متناقضة ، وصلت من القوة عند ابن حفصون الى حد انه لم يكن يصدق أن الامير جاد في عزمه على محاربته، ويعلن انه سيكافىء بخمسمائة دينار من يبشره بسير الامير نحوه ، وسادت في صفوف جيش الامير روح متشائمة ، فما أن انهدم عمود المظل الذي أراد الامير اقامته حتى تطير الناس ، وما أن قتل منهم فارس مشهور حتى اشتدت عليهم الطيرة •

كانت نتيجة المعركة عكس ما كان يتوقع ، فقد انتصر الامير وكأنه استمد من اليأس قوة ، كما أن خطة جيشه في الحرب نجحت ، اذ ركزت قوة الجيش الكبرى على جناح من أجنحة العدو وبعد الخلاص منها ، رمي بثقل الجيش كله ضد الجناح الآخر • وهكذا حملت ميسرة الامير على ميمنة ابن حفصون فحطمتها وكان بها ابن حفصون ذاته ، وبعد ذلك توجه كل الجيش على ميسرة ابن حفصون فلم تستطع الصمود فتمزقت وتدافع عسكر ابن حفصون هاربين بشكل فوضوي •

---

١ ـ المقتبس ، تحقيق ملشور ، ص ٩٣ •

تحصن قسم منهم بحصن بلاي ، وبلغ من تزاحمهم على بابه ان سد ، ولم يستطع ابن حفصون ذاته دخوله فرفعه أصحابه من أعلى السور وهو على صهوة جواده • وهام قسم آخر من الجيش على وجهه فلاحقهم فرسان الامير وقتلوهم • ثم بات الامير على الحصن يحاصره ، وخلال الليل هرب أهل استجة من داخل الحصن خلال نقب نقبوه بجوف الحصن، وبقي ابن حفصون الى النهاية في قلة من أصحابه فهرب خامس خمسة واستقر بمقره حصن ببشتر[1] •

نتائج معركة بلاي

غني معسكر الامير بالغنائم واستعاد جيشه الثقة بقوته ، وحاول الامير استغلال ضعف عدوه اثر الهزيمة غير المتوقعة ، ونشوة الانتصار والثقة عند جيشه فتابع المنهزمين حتى شذونة وبعد ضربها بالمنجنيق تضرع له سكانها طالبين الامان فأمنهم ، واتجه نحو مقر ابن حفصون فحاصره الى أن ضاق جنده ذرعاً بطول مدة العمليات الحربية التي خاضوها ، فرفع الحصار وعاد أدراجه نحو قرطبة ، واستطاع أن ينجو من كمين دبره ابن حفصون للجيش على عادته في المضائق الجبلية وذلك في معركة جرت في الاول من ربيع نفس العام / ١٣ حزيران ٨٩١ م • وفي الطريق الى العاصمة دخل جيش الامير البيرة وأخذ الرهائن من سكانها على الطاقة ، كما أعيدت حاضرة جيان الى حظيرة الطاعة • وبهذا استعادت الامارة الاموية هيبتها سواء في داخل البلاد أو خارجها ، فأدرك الاغالبة انهم لم يقدروا ابن حفصون حق قدره وابتعدوا عنه ، وعندما طلب مساعدتهم أبلغوه انشغال أميرهم باخضاع ثورات قائمة في بلادهم[2] •

---

١ ـ المقتبس تحقيق انطونيا • ص ٩٣ ـ ٩٧ •

٢ ـ أنظر : العبر ، ج ٤ ، ص ٢٩٣ •

جمود وتداعي حركة ابن حفصون

مرحلة الجمود (٢٧٨ ـ ٢٨٩ هـ / ٨٩١ ـ ٩٠٢ م)

يتجلى جمود حركة ابن حفصون في هذه الفترة بعجزه عن احراز مكاسب جديدة ، فقد بقي في حصنه وتناوب مع الأمير السيطرة على كورتي البيرة وريّه بينما استطاع الامير تقوية مركزه من جميع النواحي ، فقد استطاع في كثير من الاحيان أن يشل نشاط ابن حفصون خارج منطقته ، وأن يحاصره في حصنه حتى يضطره الى طلب الموادعة مقابل الرهائن • وبما انه كان ينقضها بعد أقل من عام وعرف عنه تكراره لهذه العملية ، فان قبول الامير لها في كل مرة ، يدلّ على انه كان بحاجة لهذه الموادعة لامد كان يستغله في ارسال الحملات التي تطوف مناطق الحصون الثائرة في شرق الاندلس وغربها ، وتبدأ بالاضعف حتى تخضعه بعد تخريب الاراضي والمزروعات المحيطة بالحصن وضربه بالمنجنيق ، ثم تنتقل الى الاقوى وهكذا دواليك • وقد اتخذت حملات الامير هذه أسلوباً جديداً كما أخذ الخضوع شكلاً معيناً ، اذ أدرك الامير على ما يظهر أن الثائرين ليسوا أكثر من عصابات • استفادت كل واحدة من شدة مراس رجالها ووعورة منطقتها ، فلجأ الى الاعتماد في كثير من الاحيان على مجموعة من الرجال الاقوياء • وبرز في هذا المجال القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة ، وعائلته من موالي الامويين ، شغل أفرادها مراكز في الدولة منذ انشائها ، وظلت مكانتهم تسمو باستمرار[١] ، وكانت « عدته في حروبه ومعوله في زحوفه على نحو ثلاثمائة فارس من مدوّنه الجند بقرطبة • كانوا أنجاداً نخبة فلم يجتمع مثلهم في عسكر بالاندلس »[٢] • ويلاحظ أيضاً أن هذه المجموعة لجأت

---

١ ـ الحلة السيراء في ج ١ ، ص ١٢١ ، ١٤٦ •
٢ ـ المقتبس ، تحقيق ملشر ، ص ١٢٩ •

للتخريب والتدمير في منطقة الثائرين على نطاق واسـع كالعصابات سـواء بسواء • أما الخضوع فقد اكتفى بالتعبير عنه ، في كثير من الاحيان ، بدفع كمية متفق عليها من الجباية كل عام •

وقد عبر أحد الشعراء عن سياسة الامير هذه في مدحه لاحد قواده :

ففي كل صيف وفي كل مشتى   غزاتان منك عـلى كل حال
فتلـك تبيـد العـدو وهذى   تفيـد الامام بهـا بيت مال[1]

وكانت سياسة الامير بالموافقة على ابقاء الثائر في حصنه أو منطقته مفيدة في بعض الاحيان وذلك للدفاع عنها وعدم احتلال ابن حفصون لها ، ذلك لأن الامير رغم تحسن وضعه العسكري والمالي الا انه لم يكن قد وصل الى الحد الذي يمكنه من بعثرة جنده على الحصون لحمايتها •

الى جانب هذه الاعمال العسكرية كان الامير يسعى لعزل ابن حفصون وتخلي حلفائه عنه والتضريب بين الثوار بشـكل عام • ويتجلّى ذلك في سلوكه تجاه بني حجاج وبني خلدون في اشبيلية ، فقد استطاع جيش لـه عام ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م أن يحملهما الى قرطبـة ، ثم أطلق سراحهما بعد ورود جباية بلدهما اشبيلية اليه ، وذلك كي يحميا بلدهما وحصونه ضد ابن حفصون ، ثم اجتمعت سياسة الامير في التضريب بين الثوار الى اطماع ابن حجاج ، وأدت الى قيام ابراهيم بن حجاج بالقضـاء على شريكه ابن خلدون وحكم اشبيلية منفرداً • ولتقوية نفسه لجأ للتحالف مع ابن حفصون وقامت قطعة من جيشه بعملية مشتركة مع جيش ابن حفصون ضد الأمير ، الذي رد عليها بقتل رهينة ابن حفصون ورد رهينة ابن حجاج اليه[2] • كان لهذا العمل أثره فقد امتنع ابن حجاج عن مناصرة ابن حفصون ، وان لم يقبل بمعاداته نظراً لنفسه ورعيته ، وظل يرسل الى العاصمة مال المفارقة

---

١ ـ ابن عذاري ، ج ٢ ، ص ١٣٩ •
٢ ـ افتتاح الاندلس ، ص ١٢٩ •

بانتظام وربما زاد عليه باتحاف الامير بهدايا من لطائف بلده . أفادت عودة اشبيلية الى حظيرة طاعة الامير بصورة غير مباشرة ، اذ ان الطريق من قرطبة الى غرب الاندلس كان يمر بها وقد تعطل خلال الازمة في العلاقات ، وفتح الآن فوردت المعائش الى قرطبة من جهات الغرب وكانت ذات أثر في حياة المدينة على ما يظهر ، ومن ناحية اشبيلية ، أدت المسالمة بين صاحبها والأمير الاموي ، الى الازدهار فيها أيضاً ، اذ أصبح فيها ، حكم منظم ، على رأسه ابن حجاج ومجلس شوراه ممن يسميهم الاصحاب ، ثم قاض يقوم بالحكم وصاحب مدينة يقيم الحدود ، ودار طراز خاصة . وبلاط قصده التجار بالطرائف من البر والبحر ، وكبار الشعراء كابن عبد ربه والشاعر المشرقي الاعرابي العذري بالمدائح[١] .

رد ابن حفصون على مجهودات الأمير لعزله ، بمحاولة الاتفاق مع ابن قسي المولد الثائر في أقصى الشمال عام ٢٨٥ هـ ، وتم الاتفاق بينهما على الاجتماع في منطقة جيان ، الا أن محمداً بن لب القسوي شغل بحروبه في الشمال وأوفد ابنه ، وعندما وصل الابن الى المكان المعين بلغه خبر وفاة والده على أسوار طليطلة . فعاد الى بلاده[٢] ، وفشل ابن حفصون في الخروج من عزلته . فلجأ في العام التالي الى اعلان النصرانية دين أجداده كي يكسب لنفسه الاصدقاء ، الا أنها أدت عكس ما توقعه منها مما جعلها خطوة مميتة ، فقد انفصل عنه العديد من أتباعه أصحاب الحصون وانقلب بعضهم لحربه ، كذلك لم تعد الحرب بينه وبين الامير في نظر الكثيرين من الناس حرباً بين أمير وثائر بل حرباً بين امام ومارق ، وهو أمر ركز عليه الشعراء كثيراً[٣] .

هـذا النجاح أمام المسلمين وذا   هـو القفول الذي أوفى بعيدين

---

١ ـ المقتبس ، تحقيق ملشر ، ص ١١ ـ ١٤ .

٢ ـ الجمهرة ، ص ٥٠٢ ـ ٥٠٣ .

٣ ـ انظر بقية القصيدة التي يمدح فيها الشاعر عبد الله بن يحيى بن ادريس الامير عبد الله في المقتبس تحقق ملشر ، ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .

وكذلك لم تجد الثائر وسيلة أخرى للخروج من العزلة ، وهي الدعوة للفاطميين الذين سيطروا على قسم كبير من شمال افريقيا[1] • نتيجة هذا الضعف الذي أصاب ابن حفصون يلاحظ أن الامير شدد عليه الغارات ولم يقبل منه الا موادعة نقضها المارق سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م •

مرحلة النهاية في ثورة ابن حفصون (٢٨٩ـ٣١٦ هـ / ٩٠٢ـ٩٢٨ م)

استمرت سياسة الامير تجاه ابن حفصون على ما كانت عليه في ترديد الغارات ، انما بشكل أكثر عنفاً وقوة ضد معقله ، والاستيلاء على الحصون الخاضعة للثائر ، ضمن المنطقة التي يسيطر عليها ، الواحد بعد الآخر ، في الوقت الذي كانت حملات الامير تجوب المناطق الاندلسية لادخال من بقي عاصياً الى حظيرة الطاعة • والشيء الجديد في سياسة الامير الجديدة تجاه عمر بن حفصون عدم قبول الموادعة والاتفاق معه ، وهذا يدل على أن الثائر عاد كما كان عليه في أول ثورته كقاطع طريق ليس بذي خطر على الامارة •

بهذه الجهود التي استمر الأمير في بذلها طيلة مدة امارته استطاع كسر شوكة الثائرين في الاندلس ، الامر الذي سهل على حفيده وخليفته أن يعيد خلال ست عشرة سنة الى الطاعة كل أراضي الاندلس انما بمفهوم جديد للطاعة ، اذ لم يعد يتمثل بدفع الممتنعين ، بالمعاقل أو بالمدن ، لمال المفارقة ، بل انهم استنزلوا منها وأقاموا في قرطبة في جيش الامير أو في بلاطه ، تاركين مراكزهم لعمال الامير يديرونها بأمر منه • وتختفي عند ذاك قضية العداء بين العرب والمولدين ، من مسرح الاحداث كمحور رئيسي تدور حوله أمور السياسة الداخلية • كما كان الحال في كل الفترات التي مرت من عصر الامارة اعتباراً من أيام هشام الرضا والحكم الربضي الى نهاية حكم الامير عبد الله • وهذا يعني ولادة عصر جديد هو عصر الخلافة الذي سيكون ، موضوعاً أساسياً من مواضيع الجزء الثاني من كتابنا عن تاريخ الاندلس والمغرب •

---

١ ــ العبر ، ج ٤ ، ص ٢٩٣ •

العلاقات مع دولة اشتوريش وأوضاع الثغور

عاصر فترة الحرب الأهلية هذه في اشتوريش الفونسو الثالث (٨٦٦ - ٩٠٩ م / ٢٥٢ - ٢٩٦ هـ) الذي استغل فترة الاضطراب هذه ليقوم بغارات كثيرة ناجحة على الاراضي الاسلامية ، وكانت المراكز الجديدة التي أعمرت وخاصة ليون تساعد في سرعة الانطلاق • اضافة الى ذلك استمر هذا الملك بالسير قدماً في عملية اعمار المناطق المتاخمة للحدود الاسلامية ، فتقدم بها نحو الجنوب حتى وصل الاعمار الى ضفاف نهر دويرة • وهكذا بنيت عدة مدن كان أشهرها وأكثرها ايقاعاً للأذى بالمسلمين مدينة سمّوره (Zamora حالياً) ، التي أعمرت عام ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م[١] • وكانت ذات أهمية استراتيجية كبرى ، اذ تقع علىالطريق الروماني الواصل بين ماردة واشتُرقة ، وفي النقطة التي يعبر فيها هذا الطريق نهر دويرة • وبعد ست سنوات أخرى أعمرت مدينة شنت منكش (Simancas حالياً) على نهر Pisuerga أحد روافد دويرة ، وبعد التقائه به •

تكثر على وثائق سمّوره ، التي يعود تاريخها لهذه الفترة ، الاسماء العربية مثل عمر وعبد الله وزيد[٢] مما يدلّ على أن بعض عامري هذه الاماكن ، كانوا يعيشون سابقاً في محيط عربي • ويذكر ابن حيان « ان بناة سمّورة كانوا من أهل طليطلة ، وعلى يدي رجل من أعاجيمهم أقيمت أرجاؤها فعمرت من لدن هذا الوقت »[٣] •

شكّل هذا التقدم نحو الجنوب في الاعمار خطراً كبيراً على سكان الثغور من المسلمين ، خاصة وانه تم في وقت لم يكن فيه لأمير قرطبة من سلطة الا على عاصمته وما حولها • كما أن حكام الثغور المستقلين ، لم

---

١ - أنظر : الروض المعطار ، ص ٩٩ ، حيث يذكر الحميري ان سمّورة اتخذت داراً بعد ثماني سنوات من هذا التاريخ •

٢ - أنظر : R. Menendez Pidal, El Idioma Español, p. 52-55.

٣ - أنظر رواية الرازي في : المقتبس ، تحقيق ملشر ، ص ١٠٩ •

يقوموا بتوحيد جهودهم لدفع الخطر المشترك ، بل كانوا على العكس من ذلك ، متناحرين . ولجأ كل منهم لملاطفة ملك اشتوريش ، رغبة في نيل الحظوة لديه ولرد عاديته عنه ، كي يتفرغ هو لمحاربة جيرانه من اخوانه في الدين . وعلى ما يظهر ، لم يبق في الثغور من يقدّر هذا الخطر الداهم ، الا جماعات النساك المرابطين فيها .

اذا كانت الوثائق تعوزنا للوصول الىمعرفة اعداد هذهالجماعات ،ومدى مشاركة الناس في الاندلس في عملية الرباط ، الا أن الدلائل متوفرة على أن تقاليد الرباط في الاندلس عريقة .

اذ تبدأ الشواهد لدينا منذ أيام عبد الرحمن الداخل ، التي عاصره فيها « أبو الفتح الصدنوري العابد وكان الجهاد قد غلب عليه ، وكان يرابط بثغر سرقسطة مرّة وبثغره الذي كان يسكنه قُلُمْرِيّة مرة ، وكان صديقاً لفرقد العالم بالحدثان ، وكان يأتي الثغر فيرابط فيه مع فرقد ثم يسير فرقد فيرابط بقلمرية[1] » .

وفي فترة الحرب الاهلية في الاندلس ، يذكر ابن الأبار أن ، ابن مدخل قراءة ورش الى الاندلس المتوفى سنة ٢٧٤ هـ / ٨٨٧ م ، كان يذهب للرباط في الثغر بصحبة أبيه[2] .

بين هؤلاء المرتسمين بالرباط قام بالدعوة للجهاد أبو علي السراج ، الذي ينعته الرازي « بالخبيث المرائي بالزهد الساعي بالفتنة » ، وهو نعت يجب أن يؤخذ بتحفظ كبير ، نظراً لأن المؤرخ قائله كان يعيش في بلاط أحد أحفاد الامير الاموي القائم على الحكم في هذه الفترة[3] .

اتصل الزاهد بأحمد بن معاوية المعروف بالقط ، وهو من أبناء الاسرة

---

١ ـ الاخبار المجموعة ، ص ٨٤ .

٢ ـ أنظر ترجمة أحمد بن ابراهيم بن محمد بن باز في : التكملة ، ج ١ ص ٨ .

٣ ـ أنظر رواية عيسى بن أحمد الرازي في : المقتبس ، تحقيق ملشور ، ص ١٣٣ .

الاموية الحاكمة ، عرف عنه انصرافه الى الدراسات الفلسفية وما تحتويه بمفهوم ذلك العصر وخاصة علم الهيئـة (الفلك) • عرض الزاهد على الأموي أن يقود حركة شعارها الجهاد والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مادامت روح العصبية الجاهلية قد سادت المجتمع الاندلسي وعطلت القيام بفريضة الجهاد ، وأن يكون هو داعيته •

خرج القط من قرطبة وبدأت الدعوة باسمه على أساس انـه المهدي فائز الدين بين صفوف البربر المقيمين في فحص البلوط شمال قرطبة[١] ، ثم بُثت بين أهل الثغور وخاصة في منطقتي الثغرين الادنى والاوسط • فالتف حولها جمـع عظيم استطاع القط أن يسيطر عليهم سيطرة تامة ، جعلتها الرواية نتيجة لما ادعاه ، من انه من أهل الكرامات والمعجزات •

سار القط بما تجمع له من بربر هذه المناطق نحو الهدف الذي حدده لهم ، وهـو سمّوره التي تنبأ لها بخراب سيحلّ بها سريعاً • استمرت المعركة مع المسيحيين ثلاثة أيام • استطاع القط في اليوم الاول منها أن يهزم طلائعهم من الفرسان في نهر دويره ، ثم يلاحقهم بعد ذلك ، مسافة عشرة أميال داخل بلدهم • وعندما لاحت بشائر النصر الى جانبه ، خشي بعض شيوخ القبائل أن يؤدي انتصاره الى فقدانهم لبقية السيطرة ، التي أبقاها لهم على قبائلهم ، تعلّق أبناء هذه القبائل بالمهدي فائز الدين • فتراجعوا وادعوا أمام الجيش في الصفوف الخلفية ، ان الهزيمة حلت بالمسلمين • وهذا أدى لتفشي حركة الهرب في الجيش ، مما اضطر المهديّ للتراجع حتى خلف الوادي ، حيث بقي صامداً مـدة يومين قتل على أثرهما في ٢٠ رجب سنة ٢٨٨ هـ / ٣٠ حزيران سنة ٩٠١ م ، وسمي هذا اليوم بيوم سمّورة[٥] •

---

١ ــ عن عنصر سكان فحص البلوط أنظر :

La Description de l'Espagne d'Ahmad al - Razy, Al - Andalus, vol. XVII, Fasc I. 1953. p. 83.

٢ ــ أنظر تفاصيل المعركة في : المقتبس ، تحقيق ملشر ، ص ١٣٤ ــ ١٣٩ •

المصـادر العربية والمترجمة

ابن الأبار ـ محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (أبو عبد الله)

التكملة لـكتاب الصلـة ، عني بنشـره عزت العطـار الحسيني ، القاهرة ١٩٥٦ ٠

الحلة السيراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ٠

ابن الأثير ـ علي بن الشيباني (عز الدين أبو الحسن)

الكامل في التاريخ ، مجلد ٥ و ٦ و ٧ ، بيروت ١٩٦٥ ٠

ابن بسام الشنتريني (علي أبو الحسن)

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القاهرة ١٣٥٨ ـ ١٩٣٩ م

ابن الجزري ـ محمد بن محمد

غاية النهاية في طبقات القراء ، القاهرة ١٩٣٣ ٠

ابن جلجل ـ سليمان بن حسان (أبو داود)

طبقات الاطباء والحكماء ، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٥ ٠

ابن حزم ـ علي (أبو محمد)

جمهرة انسـاب العرب ، تحقيق عبـد السـلام محمد هارون ، القاهرة ١٩٦٢ ٠

طوق الحمامة في الألفة والألاف ، منشـورات مكتبة دار الحيـاة ـ بـيروت ٠

ابن حوقل ـ محمد بن علي الموصلي الحوقلي البغدادي (أبو القاسم)

صورة الأرض ، بيروت ، منشورات دار مكتبة الحياة ٠

ابن حيان ــ حيان بن خلف (أبو مروان)

المقتبس في تأريخ رجال الأندلس ، تحقيق ملشور ٠ م ٠ انطونية ، باريس ١٩٣٧ ٠

ابن الخطيب ــ محمد بن عبد الله السلماني (أبو عبد الله لسان الدين)

الاحاطة في أخبار غرناطة ٠ جزء منها تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥ ٠ وقطعتان مخطوطتان في الاسكوريال تحملان رقمي ١٦٧٣ ــ ١٦٧٤ ٠

ابن الخطيب ــ أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام

نشر الجزء المتعلق بالاندلس بتحقيق ليفي پروفنسال في بيروت عام ١٩٥٦ ، تحت عنوان « ناريخ اسبانيا الاسلامية » كما نشر الجزء المتعلق بالمغرب في الدار البيضاء عام ١٩٦٤ ، بعنوان « المغرب العربي في العصر الوسيط » ، بتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي والأستاذ محمد ابراهيم الكتاني ٠

ابن خلدون ــ عبد الرحمن

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، بيروت ١٩٥٨ ٠

ابن سعيد

المغرب في حلى المغرب ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٤ ٠

ابن عبد ربه ــ احمد بن محمد

العقد الفريد ٠ القاهرة ١٩٥٦ ٠

ابن عذاري المراكشي

كتاب البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب ، ج ١ و ج ٢ ، تحقيق : ج ٠ س كولان و إ ٠ ليفي پروفنسال ، طبعة بيروت المنقولة عن طبعة المحققين في ليدن ١٩٤٨ ٠

ابن الفرضي ـ عبد الله محمد بن يوسف الأزدي (أبو الوليد)

تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس ، عني بنشره عزت العطار الحسيني ، القاهرة ١٩٥٤ ٠

ابن القوطية ـ محمد بن عمر بن عبد العزيز (أبو بكر)

تاريخ افتتاح الاندلس ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، بيروت ١٩٥٧ ، ومع نفس الطبعة توجد « نبذة من أخبار فتح الاندلس » مأخوذة من « الرسالة الشريفية الى الاقطار الاندلسية » ٠

ارسلان ـ شكيب

تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطالية وجزائر البحر المتوسط ، القاهرة١٣٥٢ هـ وهو ترجمة في القسم الأعظم منه لكتاب

M. Reinaud, Invasion des Sarrazins en France et de France en Savoie, en Piemont et dans la Suisse.

بدوي ـ عبد الرحمن

التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ، دراسات مترجمة لكبار المستشرقين ، مكتبة النهضة ١٩٤٠ ٠

البكري (أبو عبيد)

المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب ، وهو جزء من كتاب « المسالك والممالك » ، تحقيق De Slane ، الجزائر ١٨٥٧ ٠

توماس ٠ و ٠ ارنولد

الدعوة الى الاسلام ، ترجمة : الدكتور حسن ابراهيم حسن ، والدكتور عبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوي ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧ ٠

الحميدي ـ محمد بن فتوح بن عبد الله (أبو عبد الله)

جذوة المقتبس ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة١٣٧٢هـ٠

الحميري ـ محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (أبو عبد الله)

صفة جزيرة الاندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر

الاقطار ، تحقيق ليفي پروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ . وقد نشره المؤلف أيضا مع ترجمة للنص العربي ، والحق به عدا التعليقات نصوصا للبكري عن جغرافية الاندلس ، وذلك تحت عنوان
La Péninsule Ibérique au Moyen - Age, Leiden 1938.

الخشني ـ محمد بن حارث بن أسد الخشني القيرواني الاندلسي (أبو عبدالله)

قضاة قرطبة وعلماء افريقية ، عني بنشره عزت العطار الحسيني ، القاهرة ١٣٧٣ هـ .

الداني ـ عثمان بن سعيد (أبو عمرو)

المقنع في معرفة رسوم مصاحف أهل الامصار مع كتاب النقط . تحقيق محمد أحمد دهمان ، دمشق ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م .

دينيت ـ دانييل

الجزية والاسلام ، ترجمة عن الانكليزية الدكتور فوزي فهيم جاد الله ، بيروت ١٩٦٠ .

الريس ـ محمد ضياء الدين

الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية . الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦١ .

الضبي ـ أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة

بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الاندلس ، تحقيق J. Ribera; F. Codera مدريد ١٨٨٥ .

الطليطلي ـ صاعد بن أحمد (أبو القاسم)

طبقات الأمم ، مطبعة السعادة بمصر ، دون تاريخ .

العبادي ـ أحمد مختار

الصقالبة في اسبانيا ـ رسالة ابن غارسية . مدريد ١٩٥٣ .

القزويني ـ زكريا بن محمد بن محمود

آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م

ليفي بروفنسال

الاسلام في المغرب والاندلس ، مجموعــة مقــالات للمؤلف ترجمها السـيد محمود عبد العزيز سـالم ومحمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة ١٩٥٦ ٠

المراكشي ـ عبد الواحد

المعجب في تلخيص أخبــار المغرب ، تحقيق محمد سـعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م ٠

المقري التلمساني ـ أحمد بن محمد

نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ٠ تحقيق محمدمحي الدين عبدالحميد ، القاهرة١٩٤٩ ٠

مؤلف مجهـول

أخبار مجموعــة في فتح الاندلس وذكر أمرائهــا والحروب الواقعة بينهم ، تحقيق E, Lafuente Alcantara ، مدريد ١٨٦٧ ٠

مؤنس ـ حسين

فجر الاندلس ، دراسة في تاريخ الاندلس من الفتح الاسلامي الى قيام الدولة الأموية ٠ القاهرة ١٩٥٩ ٠

المراجع الأجنبية

Aguado Bleye

Historia de España, T.I. Madrid 1954.

Allison Peers (E)

El Misticismo Español, Buenos Aires 1947.

Asin Palacios (M)

Ibn Massarra y su Escuela, Obras Escogidas, T.I, Madrid 1946.

Carlos Diehl

Grandeza y Servidumbre de Bizancio, traduccion Castellana, Madrid 1963.

Codera y Zaidin : (F)

Numismàtica Aràbigo - Española, Madrid 1879.

Dozy (R)

Histoire des Musulmanes d'Espagne, (2e) Leyde 1932.

« «

Recherches sur l'Histoire et la litterature de l'Espagne pendant le moyen age, Leyde, 1881, (2vols).

Eduardo Saavedra

Estudio sobre la Invasion de los Arabes en Espana. Madrid 1892.

Elias Teres

Linajes Arabes en « al - Andalus », segun la « jamhara » de Ibn Hazm, Al-Andalus, vol XXII, Fasc. 1-2.

Elias Teres

Literatura Arabigo - Española Islamologia, Madrid, 1952-1954.

Elias Teres

Abbas Ibn Firnas, Al-Andalus, vol XXV, Fasc. 1. 1960

« «

Sobre el vuelo de Abbas Ibn Firnas, Al-Andalus, vol. XXIX, Fasc 2. 1964.

Isidro de las Cagigas

Los Mozarabes. Madrid, 1947-1948.

Joaquin valvés

De nuevo sobre Bobastro, Al-Andalus, vol. XXX, Fasc. 1, 1965.

Karl Rolh

Cultura del Imperio Bizantino, Traduccion castellana, (3ed), Barcelona, 1952.

Lévi Provençal (E)

Histoire de l'Espagne Musulmane, paris 1951.

Lévi Provençal (E)

La Description de l'Espagne d'Ahmad al-Razi, Al-Andalus, vol. XVII, Fasc. I, 1953.

Luis G. De valdeavellano

Historia de España, T. I, (4ed), Madrid 1968.

Manuel Torres

España Visigoda, (Historia de Espana, T. III) Madrid 1963.

Menendez pidal (R)

Castilla : la tradicion, el Idioma, (3ed), Madrid 1955.

Menendez pidal (R)

El Idioma Español in sus primeros Tiempos, (5ed), Madrid 1957.

« « «

Flor nueva de Romances viejos, Buenos Aires, 1963.

Perez de Urbel (F.J)

Primeros Contactos del Islam con el Reino Asturiano, Arbor, Abril, vol. XXIV, 1953.

Philip Gosse

Los Piratas del Norte, (3ed), Mexico 1954.

Primera Cronica General, que mando componer Alfonso el sabio y se continuaba bajo Sancho IV en 1289, publicada por (R) Menendez Pidal, Madrid 1955.

Ribera y Tarrago (J)

Disertaciones y Opusculos, 2 vols, Madrid 1928.

Torres Balbas (L)

Arte Hispano-Musulman hasta la Caida dél Califato, (H.E, vol v), Madrid 1957.

Torres Balbas (L)

Los Contornos de las Ciudades Hispano-Musulmanes, vol. XV, 1950, Fasc. 2.

Washington Irving

Cuentos de la Alhambra, Madrid 1959.

Werner Wcichl

« al-andalus » Al-Andalus, vol. XVII, 1952, Fasc. 2.

فهرس الموضوعات

الفصل الأول (عصر الفتح)

الفصل الثاني (عصر الولاة)

العلاقات الخارجية (ص ١٩٢ ـ ٢٠٩)

دول شمال افريقيا المعاصرة (الأدارسة ـ الاغالبية ـ الدولة الصالحية ـ دولة برغواطة ـ الدولة المدرارية ـ الدولة الرستمية ـ العلاقات بين الامارة الاموية وبين دول المغرب) • العلاقات مع دولة اشتوريش ـ العلاقات مع بيزنطة (الدبلوماسية البيزنطية ـ ظروف بيزنطة ـ عروض البيزنطيين ـ رد الامير الاموي) •

الفصل السادس (فترة الحرب الاهلية

الأمراء وفتن الثغور (ص ٢٠٩ ـ ٢١٩)

الأمير المنذر ـ الأمير عبد الله ـ جذور الحرب الاهلية (فتنة ابن مروان الجليقي ـ بوادر عصيان المولدين في الجنوب) • بداية حركة عمر بن حفصون •

مرحلة التوسع لحركة ابن حفصون (ص ٢١٩ ـ ٢٣٩)

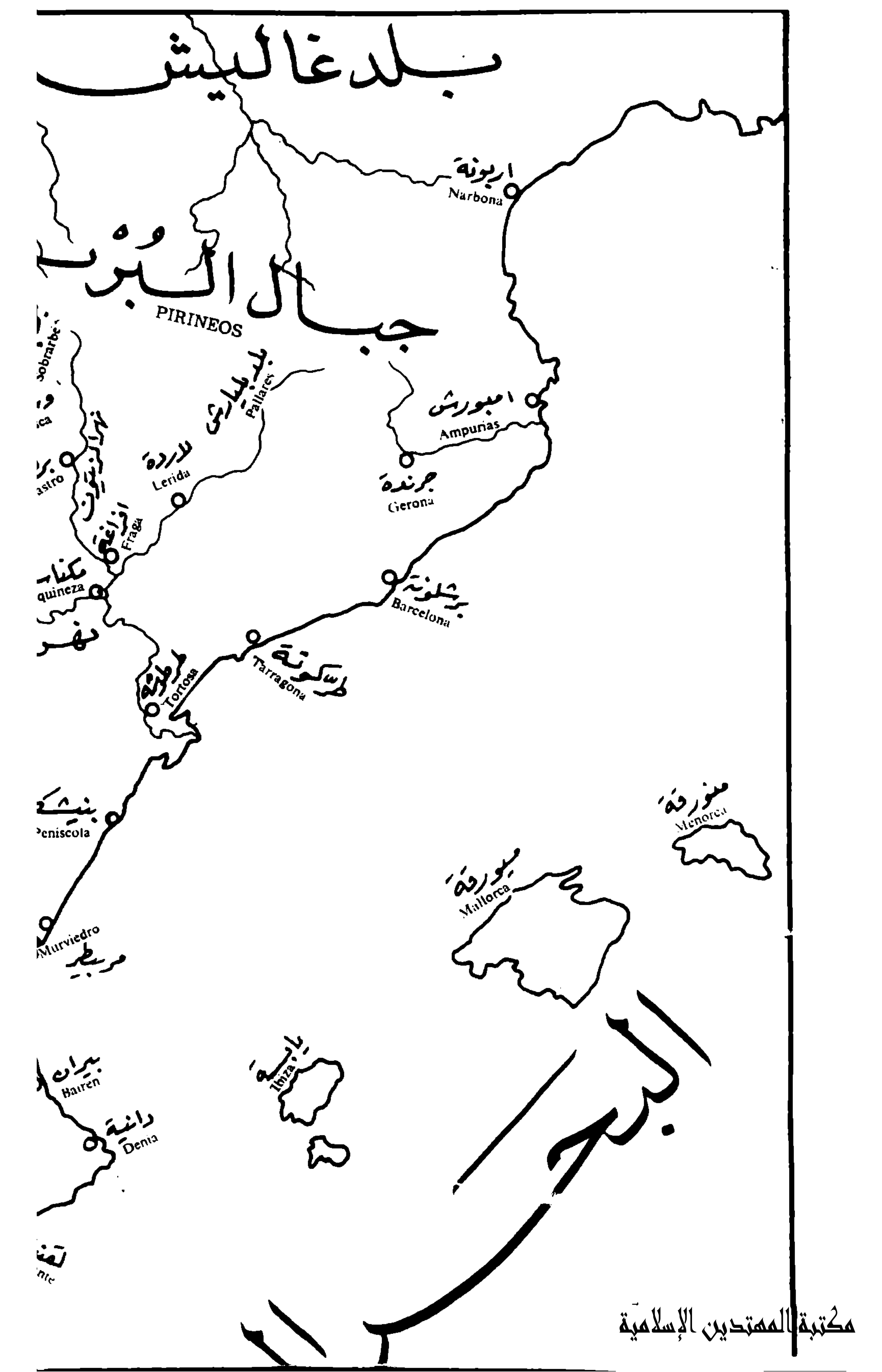
الظروف المحيطة بتوسع الحركة (القاعدة المنيعة ـ مهارته في جمع الناس حوله ـ استغلال عصبية المولدين ـ أسباب العداء بين العرب والمولدين ـ التبدل السريع في الامراء) • عصبية العرب (حركة العصبية العربية في البيرة ـ حركة العصبية العربية في اشبيلية) • موقف الامير عبد الله تجاه العصيان (موقعة حصن بلاي ـ معركة الحصن نتائجها) •

نهاية حركة ابن حفصون وحركة الجهاد في الثغور (ص ٢٤٠ ـ ٢٤٥)

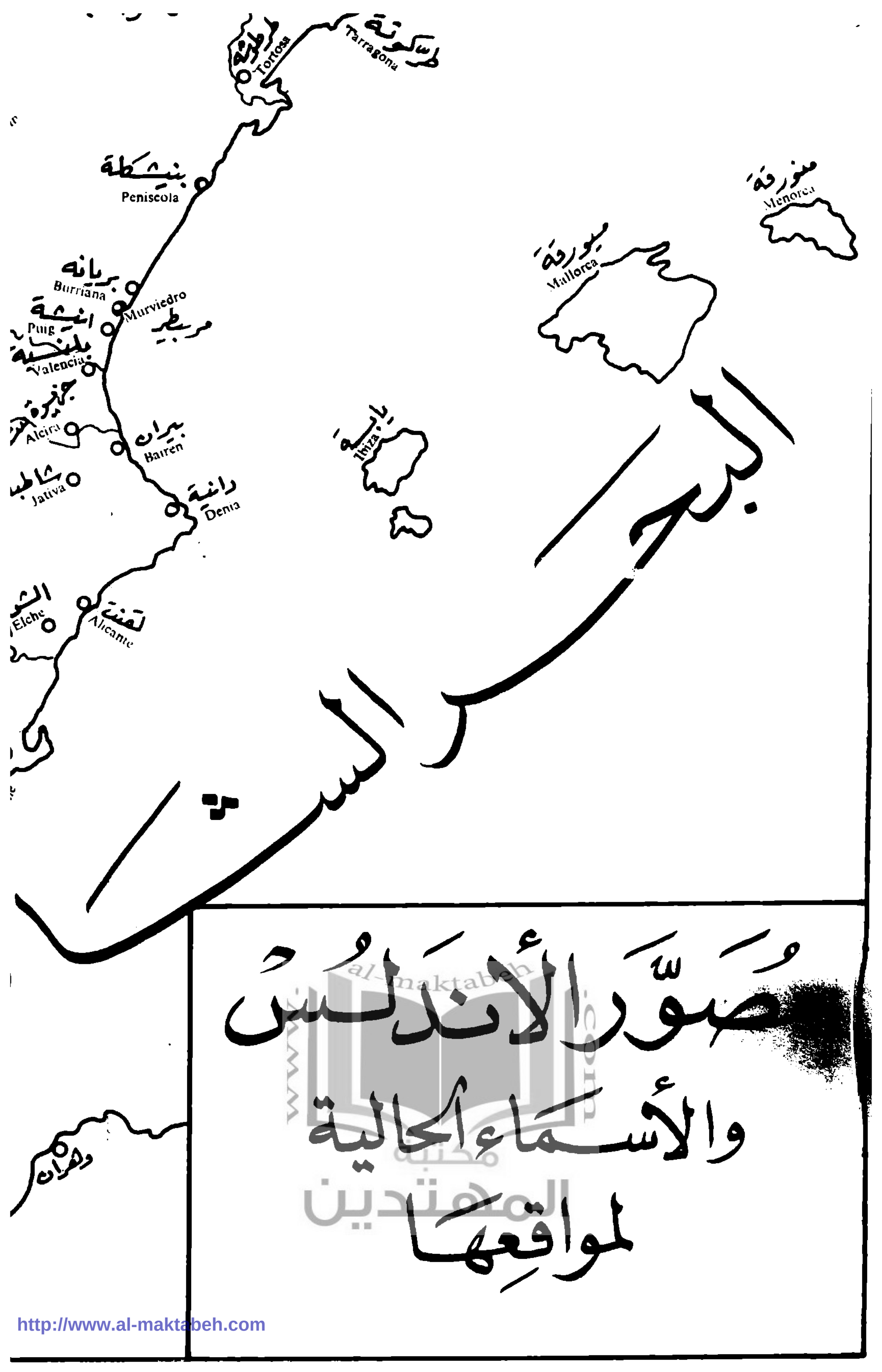
مرحلة الجمود ـ مرحلة النهاية في الثورة ـ الجهاد في الثغر والعلاقات مع دولة اشتوريش •

جدول الخطأ والصواب

الخطــأ	الصــواب	الصفحة	السطر
الثلاثة	الثلاث	٧	١٦
يدانيه	يدانـه	٩	٥
أنيــة	آنيــة	١٠	٥
اشهرهان	أشهرها	١٠	١٣
الفاة	الفتاة	١١	٩
الاربعة	الأربع	١٢	٨ ، ١٦
Guadaljara	Guadaljarra	١٧	١٠
السبعة	السبع	٢٣	١٧
ثلاثة	ثلاث	٢٧	١٥
اعبتار	اعتبار	٢٨	٩
الثلاثة	الثلاث	٣٣	١٨ ،١٩
في	من	٣٨	٨
Peley	Bleye	٦٣	هامش
وشد	وشدة	٧٢	٢١
عبد الرحمن نعيم	عبد الرحمن بن نعيم	٨٣	٤
حجّة	بحجّة	٨٥	١١
عبد الرحمى	عبد الرحمن	٨٧	٢١
ينهي	ينهى	٩٥	١٢
اندلسية	الأندلسية	٩٨	٢
يأخذ	بأخذ	١٠٨	١٢
اثرها	اثره	١١٢	١٢
الطبيعي ينفجر	الطبيعي أن ينفجر	١١٥	٣
عانة	آنـة	١٢٢ ، ١٣٩	١٢ ، ٩
الصرع	الصراع	١٣٠	١١
الساسية	السياسية	١٣٥	١٨
عليه	علية	١٣٨	١
٨٥٩	٨٥٩ م	١٩٠	٢١



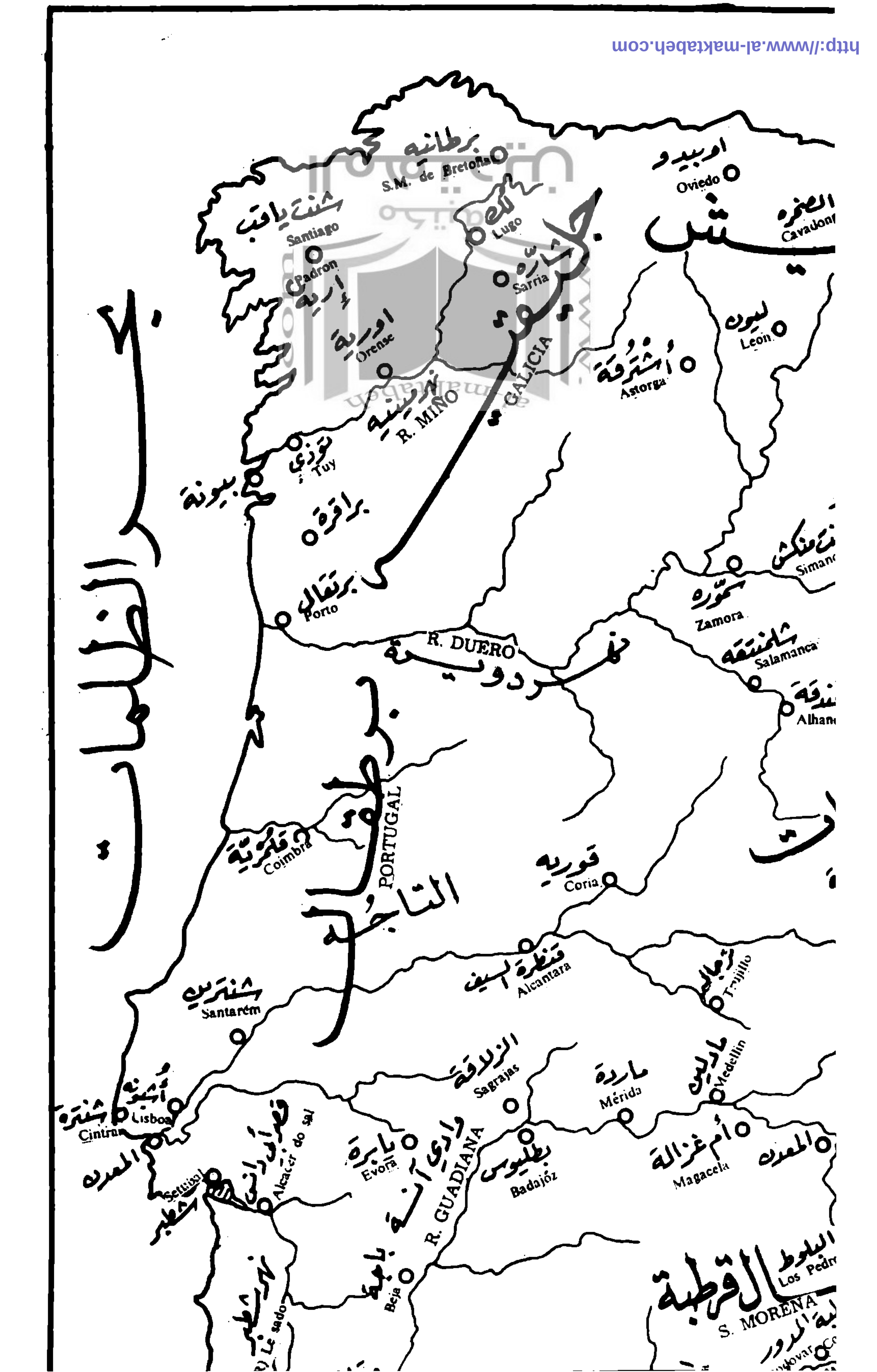
بلد غاليش
اربونة
Narbona
جبال البرت
PIRINEOS
Sobrarbe
بلد بليارش
Pallares
امبوريش
Ampurias
لاردة
Lerida
جرندة
Gerona
افراغة
Fraga
مكناسة
برشلونة
Barcelona
طركونة
Tarragona
طرطوشة
Tortosa
بنيشكلة
Peniscola
Murviedro
مربيطر
منورقة
Menorca
ميورقة
Mallorca
يابسة
Ibiza
بيران
Bairen
دانية
Denia
البحر



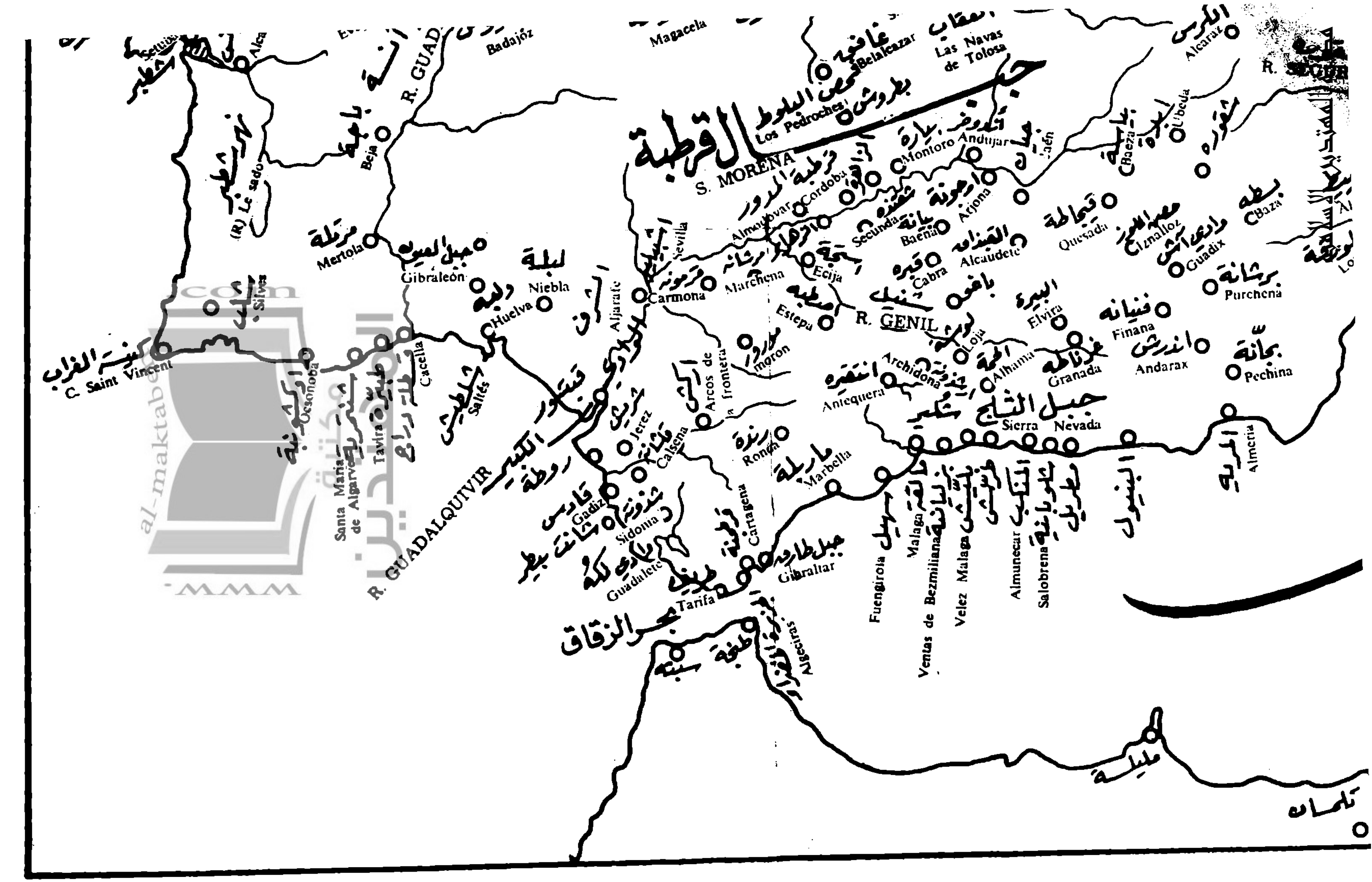
طرطوشة
Tortosa
طركونة
Tarragona
بنيشكلة
Peniscola
منورقة
Menorca
ميورقة
Mallorca
بريانه
Burriana
Murviedro
مربيطر
Puig
بلنسية
Valencia
Alcira
بيران
Bairen
يابسة
Ibiza
Jativa
دانية
Denia
Elche
لقنت
Alicante
وهران
صور الأندلس
والأسماء الحالية
لمواقعها



ASTURIAS
LOS CASTILLOS
ALABA
Navarra
Pamplona
Roncesvalles
Cavadonga
Leon
Amaya
Grañon
Alcocero
Burgos
Auca
Najera
Calahorra
Tudela
R. Gallego
Palencia
Valladolid
Cervera
Simancas
Ricla
R. EBRO
Osma
San Esteban
Medinaceli
Calatayud
Salamanca
San Vicente
Segovia
Atienza
Sigüenza
Alhandega
Talamanka
Daroca
S. GUADARRAMA
Guadalajara
Priego
Albarracin
Madrid
Santaver
Huelamo
Talavera
Huecas
Magan
Huete
Cuenca
Toledo
Uclés
Trujillo
R. JUCAR
Iniesta
Medellin
Calatrava la vieja
Alcira
S.M. de alarcos
Albacete
Chinchilla
Jativa
Oreto
Belalcazar
Las Navas de Tolosa
Alcaraz
R. SEGURA
Los Pedroches
Elche
Ubeda
S. MORENA
Montoro
Andujar
Jaén
Baeza
Orihuela
Cordoba
Arjona
Baza
Aledo
Murcia



بحر الظلمات
برطقال
PORTUGAL
جليقية
GALICIA
S.M. de Bretoña
Santiago
Padron
Orense
Lugo
Sarria
R. MIÑO
Tuy
Porto
R. DUERO
نهر دويره
Oviedo
Cavadonga
Leon
Astorga
Simancas
Zamora
Salamanca
Alhandega
Coimbra
Coria
Alcantara
Trujillo
Santarém
Lisboa
Cintra
Sagrajas
Mérida
Medellin
Evora
Badajóz
Magacela
R. GUADIANA
وادي آنة
Alcacer do sal
Setubal
Beja
R. Le sado
Los Pedroches
S. MORENA



C. Saint Vincent
Silves
(R) Le sado
Alca
Ocsonoba
Santa Maria de Algarve
Tavira
Cacella
Saltés
Mertola
Beja
R. GUAD
Badajóz
Gibraleón
Huelva
Niebla
Aljarafe
R. GUADALQUIVIR
Magacela
Belalcazar
Las Navas de Tolosa
Los Pedroches
S. MORENA
Almodovar
Cordoba
Montoro
Andujar
Jaén
Baeza
Ubeda
Alcaraz
R. SEGURA
Sevilla
Carmona
Marchena
Ecija
Secunda
Baena
Arjona
Quesada
Iznalloz
Baza
Guadix
Cabra
Alcaudete
Estepa
R. GENIL
Loja
Elvira
Finana
Purchena
Archidona
Alhama
Granada
Andarax
Pechina
Antequera
Sierra Nevada
Almeria
Arcos de la frontera
moron
Jerez
Calsena
Ronda
Marbella
Gadiz
Sidonia
Guadalete
Cartagena
Tarifa
Gibraltar
Algeciras
Fuengirola
Malaga
Ventas de Bezmiliana
Velez Malaga
Almunecar
Salobrena
جبل القرطبة
بحر الزقاق
جبل الثلج
غرناطة
المرية
مليلة
تلمسان